



دكتور أبو اليسر فرح

تاريخ مصر

في عصرى البطالة والرومان



تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان

تأليف
دكتور أبو اليسر فرح
كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

٢٠٠٢



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم حبيب قاسم

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المنيطة - الهرم - ج.م.ع. تيلون ولاكس ٢٨٧١٦٩٣

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Eln@hotmail.com

المستشارون

د. أحمد إبراهيم الهوارى

د. شوقي عبد القوى حبيب

د. قاسم حبيب قاسم

مدير النشر

محمّد عبد الرحمن حفيظ

تيسيم الخياط ، محمّد أبو طالب

المحتويات

الصفحة

الإهداء :	٥
تقديم :	٧
الفصل الأول : العصر الهلنستي :	١١
<p>- بلاد اليونان - الفرس والإغريق - الإغريق في القرن الخامس ق.م - مقدونيا والإغريق - الإسكندر الأكبر - فتح مصر - مصر قبل الفتح المقدوني - الإسكندر الأكبر في مصر - الإسكندر في الشرق - الإسكندر وبلاد العرب - العصر الهلنستي .</p>	
الفصل الثاني : دولة البطالمة :	٣٩
<p>- مؤثر باهل - عصر النخوة - بطليموس الأول - بطليموس الثاني - فيلادلفوس وبلاد العرب - بطليموس الثالث - بطليموس الرابع - موقعة رفح - عصر الضعف - نتائج موقعة رفح - بطليموس الخامس - بطليموس السادس - بطليموس الثامن - بطليموس التاسع والعاشر والحادي عشر - مرحلة الاحتضار - بطليموس الثاني عشر - كليوباترة السابعة - موقعة اكتيسيوم ونهاية دولة البطالمة</p>	
الفصل الثالث : حضارة مصر في عصر البطالمة :	٨٧
<p>الديانة - النظم الاقتصادية - الحياة الاجتماعية - مدينة الإسكندرية - الحياة الثقافية .</p>	
الفصل الرابع : قيام دولة روما وقصة التوسع الروماني :	١١٥
<p>- كيف تحولت روما من مدينة إلى دولة ؟ - روما وعالم البحر المتوسط - الحرب البونيقية الأولى - الحرب البونيقية الثانية - الأحوال في منطقة شرق البحر المتوسط - الحرب البونيقية الثالثة .</p>	
الفصل الخامس : مصر ولاية رومانية :	١٣٧
<p>كيف أصبحت مصر ولاية رومانية - مصر ولاية رومانية متميزة - مصر في عصر أوغسطس - حملة إيلبيوس جالفوس على بلاد العرب - التايغ السياسي لمصر تحت</p>	

الحكم الروماني (العائلة اليوليوكلاودية - العائلة الفلانية) - مصر في عصر
 الازدهار في الإمبراطورية الرومانية - عصر الاضطراب - حضارة مصر في عصر
 الرومان - النظم المالية والاقتصادية (الصناعة والتجارة) - الحياة الاجتماعية .

إهداء

إلى النور الذي يسطع في حياتي
إلى ابنتي وقرّة عيني « بدر »
أهدي هذا الكتاب

د. أبو اليسر فراح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

يتناول هذا الكتاب تاريخ مصر في عصرى البطالمة والرومان ، وهو عصر يمتد ما بين عام ٣٣٢ ق.م. وحتى عام ٢٨٤ ميلادية ، ويعد من أخصب عصور التاريخ المصرى . ففى عام ٣٣٢ ق.م. تمكن الإسكندر الأكبر من فتح مصر ، وكانت آنذاك إحدى ولايات الإمبراطورية الفارسية ، ثم أعقب ذلك بإسقاط الإمبراطورية الفارسية ذاتها ، والاستيلاء على كافة ممتلكاتها ، وقد وأصل هذا الفاتح المقدوتى تقدمه فى قلب القارة الآسيوية ، حتى وصل إلى وادى نهر السند، حيث قرر العودة ، وفى مدينة بابل العريقة وافته المنية فى عام ٣٢٣ ق.م.

يطلق المؤرخون على العصر الذى أعقب وفاة الإسكندر الأكبر اسم العصر الهلينيستى ، وهو عصر ذو ملامح محددة تختلف عن ملامح العصر السابق عليه ، فقد انصهرت الحضارات الشرقية مع الحضارة الإغريقية فى بوتقة واحدة ، وتولدت حضارة جديدة هى الحضارة الهلينيستية ، وهى حضارة ليست غربية ولا شرقية ، بل إنها جمعت ما بين الشرق والغرب فى تناغم جميل ، يعكس أفكار الإسكندر الأكبر ، الذى كان يؤمن بالمساواة بين البشر ، وبذلك جهوداً مضنية للتقريب بين الشرق والغرب .

ومن الناحية السياسية فإن إمبراطورية الإسكندر لم تلبث أن إنهارت ، وقاومت على أنقاضها ثلاث ممالك كبرى ، هى مملكة مقدونيا فى بلاد اليونان ، والدولة السلوقية التى كانت قاعدتها الرئيسية هى سوريا وبلاد الرافدين ، ولكنها شملت مناطق أخرى فى بعض الأحيان ، أما المملكة الثالثة فهى مملكة البطالمة فى مصر ، التى تمكنت من بسط سيطرتها على مناطق أخرى خارج مصر ، لعل أشهرها إقليم جوف سوريا .

ولما كان هدفنا من وضع هذا الكتاب هو دراسة تاريخ مصر في عصرى البطالة والرومان ، فإن حديثنا ينصب بشكل أساسى على دولة البطالة ، ولكن هذا لايعنى أننا نهمل الحديث عن باقى الدول والقوى التى قامت فى العصر الهلينيستى ، ولكن حديثنا عن هذه الدول يأتى فى إطار الحديث عن علاقة هذه القوى بمصر ، دون التخلل فى تفاصيل عن هذه الدول ، ونحن نحيل القارىء إلى كتابنا " الشرق الأدنى فى العصرين الهلينيستى والرومانى " إذا رغب فى الحصول على معلومات مفصلة عن الدولة السلوقية . وما هو جدير بالذكر أن هذا العصر كان غنياً بالتفاعلات الحضارية والسياسية بين مصر وكافة المناطق الأخرى ، فإن مصر بحكم موقعها وما تتمتع به من عمق حضارى لا تستطيع أن تعيش فى عزلة ، فكان لابد لها أن تؤثر فبمن حولها ، وأن تتأثر بهم كذلك .

وقد استمر هذا التفاعل بين مصر وجاراتها طوال عصر البطالة وكان لمصر دورها المؤثر حتى فى فترات الضعف ، ونجلى ذلك فى عهد الملكة كليوباترة السابعة ، التى بعد عهدها بمثابة صحوة الموت لدولة البطالة ، وفى عام ٣٠ ق.م. سقطت هذه الدولة ، وأصبحت مصر ولاية رومانية . وعلى الرغم من أن مصر كانت واحدة من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، فإنها كانت ولاية متميزة بين ولايات هذه الإمبراطورية . وقبل الحديث عن تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، وآينا أن نشرح للقارىء قصة نرى أنه يحتاج إلى معرفتها ، وهى قصة قيام مدينة روما ، وكيف أصبحت إمبراطورية عالمية ، بسطت سلطاتها على أغلب أرجاء المعمورة .

وإذا كانت مصر قد فقدت استقلالها . وأصبحت ولاية رومانية ، فإنها ظلت تلعب دوراً بارزاً فى الإمبراطورية الرومانية ، وحسبنا أن تشير إلى أن مصر كانت قد روما بثلاث احتياجات السنوية من الغلال ، وأنها لعبت فى كثير من الأحيان دوراً كبيراً فى حسم الصراع على العرش الإمبراطورى فى روما . وقد آثرنا أن نتوقف فى دراستنا لتاريخ مصر فى عصرى البطالة والرومان عند عام ٢٨٤ ميلادية . ففى ذلك العام تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس ، الذى رأى بشاقب بصره أن الإمبراطورية الرومانية قد هزمت ، وأنها بحاجة إلى إدخال تغييرات جذرية ، ومن ثم فقد أدخل تعديلات إدارية أدت فى النهاية إلى تقسيم العالم إلى قسمين هما الإمبراطورية الرومانية التى ظلت عاصمتها مدينة روما القديمة ، ولكنها لم

تلبث أن سقطت على يد الجرمان ، أما القسم الشرقى الذى أصبحت عاصمته مدينة القسطنطينية على ضفاف البوسفور ، والتي أقيمت فى مكان بلدة قديمة هى بيزنطة ، فمر القسم الذى عمر لمدة طويلة والذي عرف بالإمبراطورية البيزنطية ، وقد أصبحت مصر واحدة من ولايات الإمبراطورية البيزنطية ، ولا ترجع التغيرات التى سادت العالم بعد عام ٢٨٤ ميلادية إلى تلك التغيرات فقط ، بل ترجع أيضاً إلى عامل مهم وهو المسيحية التى أصبحت العامل البارز فى حياة الناس والدول بعد عام ٢٨٤ ميلادية .

ونحن نستطيع القارىء عذراً لأن التاريخ السياسى شغل الجانب الأكبر من هذا الكتاب أما الجوانب الحضارية فإننا حرصنا على تقديم الملامح البارزة مثل الديانة والنظم الإدارية والاقتصادية والمالية ، وكذلك الحياة الاجتماعية . وهى جوانب لدينا ذخيرة من المعلومات عنها بفضل أوراق البردى التى جاءت بها تربة مصر . وإذا كنا قد أشرنا فى بداية هذه المقدمة إلى أن هذا العصر يعد من أخصب عصور التاريخ المصرى ، فهذه حقيقة يتأكد من صدقها من يفحص فى مصادر تاريخ مصر فى عصرى البطالة والرومان ، وإذا كان البعض يعتقد أن هذا العصر هو عصر احتلال أجنبي لمصر ، وأن شخصية مصر قد توارت خلاله ، فإن هذا الاعتقاد يجانبه الصواب ، لأن مصر كانت قادرة طوال تاريخها المديد على أن تستوعب الوافدين ، وأن تسيغ عليهم شخصيتها وهذه هى هبة مصر . فإن الإسكندر الأكبر منذ أن وطأت قدماء أرض مصر ، قال إنه ابن الإله آمون ، وتشبه بالفراعنة وحمل ألقابهم ، وسار على دربه خلقاؤه من البطالة ، وكانت كليوباترة السابعة حريصة على أن تتشبه بالربة المصرية إيزيس . وقد سار الأباطرة الرومان على نفس النهج ، وحرصوا على أن يتم تصويرهم على جدران المعابد المصرية فى هيئة الفراعنة ، بل إن بعضهم سارع ببناء معابد للآلهة المصرية فى روما ذاتها .

لم يكن هذا الاتيهار بمصر على المستوى الرسمى فقط ، بل على مستوى الأفراد أيضاً ، فمن المعروف أن بطليموس الأول مؤسس دولة فتح أبواب مصر على مصراعها أمام الأجانب للاستقرار فى مصر ، وبخاصة الإغريق ، ولم يلبث هؤلاء أن عبدوا الآلهة المصرية وتعلموا اللغة المصرية ، ومن ناحيتهم فإن المصريين لم يتخلقوا على أنفسهم بل أقبلوا على الحضارة

الإغريقية ، وانصهر المصريون والإغريق في بوتقة واحدة ، ومع ازدياد حالات التزاوج بين الفريقين أصبح التفرقة بين المصريين والإغريق أمراً شديداً الصعوبة .

وفيما يتعلق بالنظم التى طبقها البطالة فى مصر ، فعلى الرغم من حرصهم على إضفاء مسحة إغريقية ، فإن هذه النظم ظلت فى جوهرها مصرية خالصة ، واستمر الحال على هذا المنوال فى عصر الرومان ، على الرغم من التغيرات المتلاحقة التى أدخلوها فى مصر . فأرجو أن يجد القارئ فى صفحات هذا الكتاب ما يعينه على رسم صورة طيبة لتاريخ مصر خلال هذا العصر .

والله الموفق

القاهرة - مدينة نصر

٢٠٠٢/٨/١

الفصل الأول

مقدمات العصر الهلينيستى

تعد فتوحات الإسكندر الأكبر للشرق : بداية لذلك العصر : الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر الهلينيستى ، وهو عصر ذو ملامح حضارية متميزة ، سوف نعود إلى مناقشتها لاحقاً . والإسكندر الذى عرف بالأكبر فيما بعد ، هو الإسكندر الثالث ملك مقدونيا ، التى تقع شمال بلاد اليونان . وهذا يقتضى منا إلقاء نظرة سريعة على أحوال هذه البلاد ، فى الفترة السابقة على عصر الإسكندر ، لكى نتعرف على الأسباب التى حدث بهذا القائد إلى فتح بلدان المشرق .

لعبت طبيعة بلاد اليونان الجبلية . دوراً مهماً فى الحيلولة دون قيام كيان سياسى موحد ، فقد قسمت السلاسل الجبلية هذه البلاد إلى أقاليم منفصلة^(١) ، وأدى ذلك إلى قيام كيانات سياسية مستقلة ، فى كلٍ من هذه الأقاليم ، عرفت باسم دويلات المدن ، أو ما يعرف بالـ Polis . وبعد هذا النظام هو محور الحضارة الإغريقية ، وكان الإغريق يرون أن نظام دولة المدينة ، هو النظام الأمثل ، الذى ينبغى للإحسان الحر أن يعيش فى كنفه ، وكانوا ينظرون إلى من يعيشون فى ظل أنظمة أخرى ، نظرة لا تخلو من الإحساس بالتمعالي ووطنقون عليهم لفظ Barbaros^(٢) .

وتعد مدينة أثينا : من أشهر دويلات المدن ، وتشغل إقليم أتيكا ، الذى يتمتع بمكانة متميزة . وكذلك مدينة إسبرطة Sparta ، التى تقع فى شبه جزيرة البليبونيز Peloponnese ،

(1) Cary, Geographical Background of the Greek and Roman History. pp. 47 - 52 .

(٢) سيد القاصرى : الإغريق تاريخهم وحضارتهم ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨١ ص ٦٨ - ١٠٦ .

جنوب بلاد اليونان ، أما مدينة طيبة Thebes فإنها تقع في قلب بلاد اليونان . كما وجدت أيضاً دول أخرى ، سواء في بلاد اليونان القارية . أو في الجزر التي تحيط بها .

وقد شهدت دويلات المدن ، تطورات مستمرة في أنظمتها السياسية . وكان لكل دويلة منها تجربتها السياسية المستقلة . وتراوحت هذه النظم ما بين الملكية ، والأوستقراطية ، والديمقراطية . وفي شمال بلاد اليونان كانت تتبع دولة مقدونيا ، وبينما شهدت باقي اليونان تحولات سياسية وحضارية مهمة ؛ ظلت مقدونيا ذات طابع محافظ . لذا فقد ظلت نظرة الإغريق إلى سكان مقدونيا نظرتهم إلى قوم بدائيين . وقد سعى بعض ملوك مقدونيا ، إلى الأخذ بمظاهر الحضارة الإغريقية ، مثل الإسكندر الأول الذي كان يستضيف في بلاطه بعض الكتاب الإغريق من أمثال هيرودوت ، كما كان الملك أرخيلوس (٤١٣ - ٣٩٩ ق.م) Archelaus شديد الإعجاب بالحضارة الإغريقية ، وكان بلاطه يعج بالكتاب الإغريق ، ويقال إن شاعر التراجيديات المعروف يوربيديس Euripides ؛ كتب إحدى مسرحياته في قصر الملك أرخيلوس ، وأنه راح يمجّد هذا الملك ، في تلك المسرحية (١) . إلا أن الكثيرين من ملوك مقدونيا ؛ على الرغم من إعجابهم بالحضارة الإغريقية ، كانوا يرون أن الإغريق من الناحية السياسية ، مجرد دويلات متناحرة ، وكانوا ينظرون بإعجاب إلى الإمبراطورية الفارسية . ولمس أدل على ذلك من تحالف الإسكندر الأول مع الفرس ، خلال الحروب الفارسية وسماحه لقواتهم خلال الحملة الأولى عام ٤٩٠ ق.م ، على بلاد اليونان ، بالمرور عبر أراضي مقدونيا ؛ بل ومشاركته في الحملة الثانية في عام ٤٨٠ ق.م ، إلى جانب الفرس . وهنا ينبغي أن نتوقف لإلقاء نظرة على العلاقة بين الفرس والإغريق .

الفرس والإغريق :

شهد الشرق الأدنى في حوالي عام ٥٥٠ ق.م ، قيام قورش بتأسيس الإمبراطورية الأخمينية ، ومنذ عام ٥٤٧ ق.م ، أخذت هذه الدولة تشكل تهديداً لجيرانها ، لما يقرب من سبعين عاماً متواصلة (٢) . وامتدت حدود إمبراطورية قورش ؛ من بحر إيجه غرباً حتى

(1) Bengtson. H, The Rise of Macedonia Under King Philip II (The Greeks and the Persians) p. 284 .

(2) Bengtson. H; The Persian Empire and The Greeks Ca.520B.C. (The Greeks and Persians) p.1 .

جبال هندكوش في الشرق ، ومن بحر قزوين شمالاً ، حتى صحراء بلاد العرب جنوباً . وكانت المدن الإغريقية التي تقع على ساحل أيونيا ، في آسيا الصغرى ، من المناطق التي خضعت للسيطرة الفارسية .

وبعد وفاة قورش خلفه على العرش قمبيز ٥٣٠ - ٥٢٢ ق.م ، الذي سار على نهج سلفه ، ولم تقتصر فتوحاته على القارة الآسيوية فقط ، بل امتدت إلى قارة أفريقيا أيضاً بسبب رغبته في الاستيلاء على مصر وقوريني ، لما يمثل هذان البلدان من أهمية قصوى للإغريق ؛ حيث كانوا يعتمدون عليهما في الحصول على حاجتهم من الفلأل ، فأراد قمبيز حرمان الإغريق من هذه السلعة الحيوية ، وبأتى ذلك في إطار الرغبة في محاربة الإغريق باعتبارهم يغلزون عقبة ، أمام انغراء الفرس بالسيادة البحرية على شرق المتوسط .

وبعد وفاة قمبيز ارتقى عرش الإمبراطورية الفارسية ابنه دارا (الذي يطلق عليه الإغريق داريوس Darius) ، وحكم فيما بين عامي ٥٢١ - ٤٨٦ ق.م . وعمل على إعادة بناء الإمبراطورية ، على أسس راسخة (١) . وقد حدثنا المؤرخ هيرودوت (٢) عن تنظيمات دارا ، فذكر أنه قسم الإمبراطورية إلى عدد من الولايات ، على رأس كل منها حاكم يحمل لقب ساتراپ Satrap (٣) ، وقد جعلت هذه التنظيمات دارا واحداً من أعظم رجال الإمبراطورية الفارسية . وعلى الرغم من الجوانب البراقة في تنظيمات دارا ؛ فقد وجد جانب سلبي ، أخذ ينمو في عصر هذا الملك ، ويمثل في نمو الإحساس بالنفوق ، والاستعلاء ، والجدارة بالسيادة على سائر رعايا الإمبراطورية الفارسية ، من الشعوب الأخرى . كما أن الأساس النظري الذي قامت عليه فكرة الملكية الفارسية ؛ كان يقوم على النظر إلى كافة رعايا الملك باعتبارهم صبيداً له (٤) . وهو مفهوم لا بد وأن يتصادم مع ما جبل عليه الإغريق من نزوع إلى الحرية والاستقلال السياسي .

(1) Bengtson, H; op. cit p.10

(2) Herodot. III. 89 ff .

(٣) كلمة فارسية معناها : "حامي الملكة" .

(4) Bengtson, H; op.cit. p. 19

وبالنسبة للمدن الإغريقية في آسيا الصغرى ، التي وجدت نفسها خاضعة للسيادة الفارسية ؛ فإنها على الرغم من تمتعها بالحرية في إدارة شئونها الداخلية ، كانت مضطرة للإذعان لمفهوم السيادة الفارسية ^(١) ، وعرف عن الفرس مناصرتهم للحكام الطغاة ، واعتماد هؤلاء الحكام على الفرس في استمرار تسلطهم على رعاياهم . وقد حدث على سبيل المثال في عام ٥٢٢ ق.م أن سقط بوليكراتيس Polycrates ، طاغية جزيرة ساموس Samos ، إلا أن الوالي الفارسي في آسيا الصغرى ؛ فرض طاغية آخر على مواطني الجزيرة ، وجعله تابعاً للفرس ^(٢) .

وفي أثينا التي كانت تعد واحدة من أكبر دويلات الإغريق ، نجح مواطنوها في التخلص من الطاغية هيبياس Hippias ، وأخذ نظام الحكم يتجه نحو الديمقراطية ، وراحت أثينا تروج لهذا النظام وتحاول نشره في باقي المدن الإغريقية . وترتب على ذلك أن الأثينيين راحوا ينظرون إلى الفرس نظرتهم إلى طغاة برابرة لا ينبغي الخضوع لهم ؛ ومن ثم فقد راحوا يحرضون إغريق آسيا الصغرى على الثورة ضدهم .

لم تلبث الدعاية الأثينية أن أتت ثمارها ، فانفجرت ثورة المدن الأيونية ضد الفرس ، في عام ٤٩٩ ق.م . وقام الثوار باضرام النار في مدينة سارديس Sardis ، عاصمة إقليم ليديا ^(٣) . وتمكن الفرس من إخماد هذا التمرد ، ولم ينس الملك دارا أن أثينا كانت هي السبب في إشعال هذه الفتنة ؛ فقرر أن يعاقبها ، فأرسل حملة عسكرية في عام ٤٩٤ . إلا أن سوء الأحوال الجوية حال دون إتمام الحملة . ولم يلبث أن أعاد الكرة في عام ٤٩٠ ق.م . وفي هذه المرة نجحت القوات الفارسية في النزول في سهل ماراثون Marathon ، الذي يقع بالقرب من أثينا ، ولكن الأثينيين تمكنوا من إنزال هزيمة بالفرس عند هذا السهل ^(٤) .

(١) مما هو جدير بالذكر ، أن النشاط الحضاري في منطقة أيونيا ، لم يتأثر بالأوضاع السياسية ، وظلت هذه المنطقة مركزاً للنشاط الثقافي ، وقدمت العديد من رجال الفكر مثل الفيلسوف أنكسمندر Anaximander ، والمؤرخ هيرودوت .

(2) Bengtson. H; op.cit. p. 22 .

(3) Bengtson. H; The Ionian Rebellion and the Persian Wars to the Battle of Marathon (The Greeks and the Persians) pp. 40 - 41 .

(4) Bengtson. H.; op. cit. p. 45 .

توفى الملك الفارسي دارا الأول في عام ٤٨٦ ق.م ، دون أن يحقق حلمه . بالانتقام من أثينا ، لذا فإن خليفته إكسركسيس Xerxes ، قرر أن يضع هذا الحلم موضع التنفيذ ؛ فأعد جيشاً جراراً ، وأسطولاً كبيراً لهذا الغرض ، وفي هذه المرة أيضاً وقلت الأحوال الجوية السيئة ، حجر عشرة أمام إتمام الحملة . ولكن بحلول عام ٤٨٠ ق.م. تمكن الجيش الفارسي من عبور اليوسفور والدردييل . وإزاء هذا الخطر الذي بات يتهددهم ؛ اضطر الإغريق إلى أن ينحوا خلاقاتهم جانباً . وقرروا إقامة حلف عسكري فيما بينهم ، لمواجهة الفرس . إلا أن هؤلاء الآخرين تمكنوا من اجتياز بحر ترموبيلاي Thermopylae ، وهو بحر استراتيجي ، بعد أن أبادوا قوة إسبرطة ، بقيادة ملك إسبرطية ليونيداس Leonidas ، كانت تربط عند هذا الممر .

بعد الانتصار على القوة الإسبرطية . والاستيلاء على هذا الممر الهام ، أصبح الطريق أمام الفرس ممهداً ، لاحتلال مدينة أثينا ، وقد أدرك الأثينيون أنه لا قبيل لهم بمواجهة الفرس ؛ فقاموا بإخلاء المدينة ، واتخذوا من الجزر القريبة مُستقراً إلى حين . فدخل الفرس إلى أثينا ، وبلغت بهم روح التشفي والحقدا حدا جعلهم يضرمون النار في أعظم مدن الإغريق . مما حفز روح الرغبة في المقاومة لدى باقي الإغريق ، فعقدوا القيادة لأسبرطة وتمكنوا من إحراز نصر مؤرر على الأسطول الفارسي ، عند جزيرة سلاميس Salamis ، وهو ما جعل الفرس يولون الأدبار ، وكان هذا النصر في عام ٤٨٠ ق.م^(١) ، وفي العام التالي واصل الإغريق إنتصارهم على الفرس ؛ فأحرزوا عليهم نصراً باهراً في بلاتنايا Plataea . وترتب على ذلك طرد الفرس من بلاد اليونان .

الإغريق في القرن الخامس ق . م :

بعد انسحاب الفرس من بلاد الإغريق ، سيطر الخوف من عودتهم مرة أخرى . وعادت إسبرطة إلى ممارسة سياسة العزلة ، والانكماش في شبه جزيرة البليونيز ، أما أثينا فكانت أكثر إحساساً بالخوف ؛ لذا راحت تدعو إلى قيام حلف دفاعي ، من أجل التصدي للفرس ، وسارعت العديد من المدن الأيونية ، وجزر بحر إيجه إلى تلبية الدعوة ، وتقدير إقامة حلف عسكري بزعامة أثينا ، ووقع الاختيار على جزيرة ديلوس Delos ؛ لكي تكون مقراً لحزنة الحلف ؛ لذا عرف هذا الحلف باسم حلف ديلوس^(٢) .

(1) Bengtson. H; op.cit. p.59 .

(2) Bury. J.B.; The History of Greece. pp. 203ff.

ولم يلبث الحلف أن تحول إلى أداة للهيمنة الأثينية . وراحت أثينا تقارس سياسة تقوم على التسلط ، والاستعلاء على سائر أعضاء الحلف ، وتعاملت بقسوة متناهية مع المدن التي فكرت في الخروج على سياستها . كما راحت تتدخل في الشؤون الداخلية لتلك المدن ، وإمعاناً في إظهار تسلطها ؛ قامت السلطات الأثينية بنقل خزانة الحلف ، إلى أثينا ذاتها . مما أدى إلى إثارة امتعاض باقي الأعضاء .

أما إسبرطة فقد انكفأت على نفسها في البليوبونيز ، بعد أن تعرضت لزلزال مدمر ؛ أدى إلى إلحاق أضرار مادية جسيمة بها ، مما شجع الأرقاء (الهيلوتس Helots) على الثورة ، من أجل التخلص من نير الإمبراطيين ، إلا أن إسبرطة تمكنت من إخماد هذه الثورة .

وفي أثينا استطاع الحزب الديمقراطي أن يصل إلى الحكم ، وأخذت مشاعر العداء لإسبرطة تزداد بين الأثينيين ، وعادت روح التنافس القديمة بين أثينا وإسبرطة تطل برأسها مرة أخرى ، وأخذ كل طرف يتشكك في نوايا الطرف الآخر . وقامت إسبرطة بدورها بتكوين حلف عسكري ، ضمت إليه غالبية مدن البليوبونيز . ونظرت بعين الشك إلى قيام أثينا بتحصين ميناء بيرايوس ، وبدأت التحرشات بين الطرفين ، إلا أنها توقفت بعد عقد معاهدات في عام ٤٤٥ ق.م.

لم تكن هذه المعاهدة سوى فرصة لالتقاط الأنفاس . أخذ كل طرف يعمل خلالها من أجل تدعيم قواته استعداداً للحرب ، وفي عام ٤٣١ ق.م. تفجرت الحرب ، التي عرفت بحرب البليوبونيز ، التي اكتوت بنارها بلاد اليونان حتى عام ٤٠٤ ق.م. وهي الأحداث التي رواها المؤرخ الأثيني ثوكوديديز Thucydides . وكانت الشرارة التي أشعلت الحرب ، هي تدخل أثينا في خلاف تشب بين كورنث . وهي واحدة من أعضاء حلف البليوبونيز (١) وإحسبني مستعمراتها ، ولم يكن أمام إسبرطة وحلفائها سوى قبول هذا التحدي ، فقامت قوات الحلف بغزو أراضي أثينا في عام ٤٣٠ ق.م (٢) ، وكانت إسبرطة تتمتع بالتفوق في القوات البرية ، بينما كانت لأثينا الغلبة في البحر .

(1) Bengtson. H: The Peloponnesian War (431-404 B.C) (The Greeks and the Persians) p. 158 .

(2) Bengtson. H; op. cit. p. 167 .

وكان على أثينا أن تدفع ثمن الصلف والغطرسة التي مارستها ضد المدن الصغرى ؛ لذا فقد لحقت بقواتها هزيمة منكرة فى جزيرة صقلية ، فى عام ٤١٤ ق.م . وترتب على هذه الهزيمة أحداث مهمة فى داخل أثينا . كما بدأ حلفاؤها يتململون ، بعد أن ضاقت أذرعاً بهيمنة أثينا . وعلى الرغم من ذلك فقد أصرت أثينا على مواصلة الحرب ، إلى أن تعرضت لضربة قاصمة فى عام ٤٠٤ - ٤٠٣ ق.م ؛ حيث تمكن الإسبرطيون من إلحاق هزيمة قاسية بالأسطول الأثينى . وحصار أثينا ، وإجبارها على توقيع صلح مهمين فقدت على أثره مكانتها فى بلاد اليونان^(١) . مما أدى إلى سقوط الحكم الديمقراطى فيها .

مقدونيا والإغريق :

كان للموقف المحايد الذى التزمت به مقدونيا ، خلال حرب البيليبونيز ، أبعد الأثر فى المحافظة على قوتها . وقد ساعدها على تحقيق المزيد من الاستقلال فى سياساتها ، حالة الضعف التى سيطرت على الإمبراطورية الفارسية ، فى النصف الثانى من القرن الخامس . فلم تجد صعوبة فى التخلي عن صداقة الفرس .

بعد وفاة أرخيلائوس ، ملك مقدونيا القوى فى عام ٣٩٩ ق.م ، سيطر الضعف على هذه المملكة . مما شجع ملك طيبة على مهاجمة مقدونيا عام ٣٦٧ ق.م ، وأخذ معه الأمير فيليب Philip . وقد أتاح اللقاء فى طيبة لهذا الأمير الفرصة أن يتعلم فى مدرسة طيبة العسكرية ، التى كانت أفضل المدارس فى بلاد اليونان . وبعد أن شب فيليب عداً إلى مقدونيا ، ونجح فى ارتقاء العرش فى عام ٣٥٩ ق.م .

كان فيليب قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر ، عندما تربع على عرش مقدونيا ، فأخذ يعمل على تقوية بلاده فى شتى المجالات ، وتحمس لنشر الحضارة الإغريقية فى سائر أرجاء المملكة . واستطاع أن ييسر سيطرته على الكثير من الأقاليم المجاورة^(٢) . وقد أحس الملك فيليب بأن خطر الفرس ما يزال يلوح فى الأفق ؛ فدعا الإغريق إلى الاتحاد ، إلا أنهم أصبحوا إذاً عنهم عن هذه الدعوة ، ورأى البعض متهم أن فيليب يمثل خطراً على حرية الإغريق ، لا يقل بأى حال من الأحوال عن خطر الفرس ، وأخذ الخطيب الأثينى الشهير ديموستينز

(1) Bengtson. H; op. cit. p. 194 .

(2) Bengtson. H; The Rise of Macedonia under King Philip II. p. 286 .

Demosthenes في إلقاء مجموعة من الخطب النارية ، لتحريض الإغريق ضد فيليب ، ووصل به الأمر إلى اقتراح طلب المعونة من الفرس ، لدرء خطر مقدونيا . وعند هذا الحد وجد فيليب أنه لا مناص من فرض الوحدة على الإغريق ، فحاربهم بعد أن اجتمعوا ضده ، وأنزل بهم الهزيمة في موقعة خايرونيا Chaeronea في عام ٣٣٨ ق.م^(١)؛ وأجبرهم على تكوين حلف عسكري بزعامة مقدونيا ، من أجل محاربة الفرس ، والانتقام منهم لأنهم دنسوا مقدسات اليونان ، وأعلن فيليب عن عزمه على قيادة الإغريق لحرب الفرس . وفي عام ٣٣٨ ق.م . عبرت طلائع القوات المقدونية مضيق الهلبوننت^(٢) ، وكان من المقرر أن يبدأ الزحف الكامل في عام ٣٣٦ ق.م. إلا أن اغتيال فيليب في هذا العام أوقف هذا المشروع .

الإسكندر الأكبر :

اعتلى الاسكندر الثالث ، الذي عرفه بالأكبر فيما بعد ، عرش مقدونيا ، وكان يبلغ من العمر عشرين عاماً ، وكان قد أظهر منذ صباه المبكر نبوغاً ، يدل على أنه سيصبح حاكماً قديراً . وتلقى العلم على يد الفيلسوف المشهور أرسطر^(٣) ، وظل شديد العرفان لهذا الأستاذ ، وأشاد به قائلاً " أن أبى هو الذى وهبى الحياة ، لكن أرسطر هو الذى علمنى كيف أحيا " .

وقد أظهر الإسكندر منذ صباه شجاعة وثقة كبيرة في النفس . وكان على ثقة من أنه سيرتقى عرش مقدونيا ، ويروى عنه أنه عندما كان في عامه الثاني عشر ، وافته الأنباء بأن فيليب انتصر في معركة كبيرة ، فتضايق قائلاً " إذا ظل أبى يكسب مزيداً من المعارك ، فلن يتبقى لى بلاد أقتسحها " (٤) . وعندما بلغ السابعة عشرة ؛ قرر فيليب أن الوقت قد حان لتدريب ابنه على الحكم . فأسند إليه مهمة تصريف الأمور في مقدونيا ، عندما اضطر إلى التوجه جنوباً في بلاد اليونان . وفي تلك الأثناء انتهزت إحدى القبائل الفرصة ، وأعلنت التمرد مستغلة حداثة سن الإسكندر ، إلا أنه قمع هذا التمرد بعنف . واستولى على أكبر المدن التي تقع في أرض هذه القبيلة ، وأطلق عليها اسم " مدينة الإسكندر " Alexandropolis .

(1) Bengtson. H; op. cit. pp. 299 - 300 .

(2) Bengtson. H; op. cit., p. 302 .

(٣) جرونر : الإسكندر الأكبر . ترجمة فاروق القاضي ، ص ٣٠ .

(4) Savill, A; Alexander the Great and his Time. New York. 1993. p. 209

وفى معركة خايروتيا التى دحر فيها فيليب المدن الإغريقية فى عام ٣٣٨ ق.م . كان الإسكندر يتولى قيادة الفرسان^(١) ، وكان عمره ثمانية عشر عاماً ، وأظهر بسالة تادرة خلال المعركة . إلا أن العلاقة بين الإسكندر ووالده كانت متوترة ، ويرجع سبب هذا التوتر إلى أوليمبياس Olympias ، والدة الإسكندر ، وعلى الرغم من أنها كانت سيدة شرمسة ، غريبة الأطوار ، إلا أنها كانت عظيمة الأثر على ابنها^(٢) . وكان فيليب قد ضاق بها ذرعاً ؛ واتخذ لنفسه زوجة أخرى تدعى كليوباترة ، وكانت مقدونية ، بينما كانت أوليمبياس من منطقة إبيروس Eperus ، التى تقع غربى بلاد اليونان ؛ لذا فقد راحت الأقاويل تتناثر حول رغبة فيليب فى إلهاب وريث للعرش ، يكون مقدونيا خالصاً ، مما يعنى إزاحة الإسكندر عن ولاية العهد .

وعندما بلغ التوتر فى العلاقة بين فيليب وزوجته ، درجة عالية ؛ قرر فيليب نفى هذه السيدة الشاكسة إلى بلدها^(٣) . وقد رافق الإسكندر والدته إلى المنفى . وبعد برهة أرسل فيليب إلى الإسكندر ، طالباً منه العودة إلى مقدونيا ، وقد استجاب الابن وعاد إلى مدينة "بلا" Pella ، عاصمة مقدونيا ، وعلى الرغم من محاولات فيليب للتقرب من ابنه ؛ إلا أن الإسكندر ظل فاتراً تجاه أبيه . وعندما أنجبت العروس المقدونية ابناً لفيليب ، استبد القلق بالإسكندر ووالدته ، وساورهم الخوف من أن تتحقق الأقاويل التى أثبتت من قبل ، فى ردهات القصر . وفى عام ٣٣٦ ق.م. تم اغتيال فيليب ، فكان من الطبيعى أن تشير أصابع الاتهام إلى الإسكندر ووالدته^(٤) . وهو اتهام لم تثبت صحته . وعندما أصبح الإسكندر ملكاً ؛ كان أول عمل أقدمت عليه أوليمبياس هو قتل كليوباترة وابنها ، وهو عمل أثار استياء الإسكندر .

ترجع الإسكندر على عرش مقدونيا فى عام ٣٣٦ ق.م. ، وعمره عشرين عاماً ، وما أن ترامى إلى المدن الإغريقية نبأ وفاة فيليب ؛ حتى هبت ثائرة ، رغبة فى التخلص من نهر

(١) جونتير : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(2) Hamilton. J.R; Alexander the Great. London. 1973. p. 31 .

(٣) جونتير : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(4) Hamilton. J.R.; op. cit. p. 42 .



الإسكندر الأكبر

مقدونيا ، وكان الإغريق يعتقدون أن الإسكندر شاب صغير لا تتوفر لديه قوة فيليب ولا خبرته. تزعمت مدينة طيبة ثورة الإغريق ضد مقدونيا ، فصار إليها الإسكندر ، واستولى عليها ، وأمر بتسوية المدينة بالأرض ، وبيع ثلاثين ألفاً من أهلها في أسواق العبيد ، إضافة إلى قتل ستة آلاف آخرين منهم (١). وقد أراد الإسكندر أن يجعل من طيبة أمثلة ، حتى يتعظ باقي الإغريق ، ويبدو أنهم قد استوعبوا الدرس جيداً ، فلم يسهبوا متاعب تذكر للإسكندر بعد ذلك.

بعد أن اطمأن الإسكندر إلى هدوء الأحوال ، في بلاد اليونان ، شرع في القيام بالحملة ، التي كان يتأهب أبوه فيليب للقيام بها ، ضد الإمبراطورية الفارسية (٢). وبعد عامين من إحتلاله العرش ، أي في عام ٣٣٤ ق.م. عبر بقواته مضيق الهلبوننت ، وقام بزيارة سهل طروادة ، وهو المكان الذي شهد أحداث حرب طروادة ، وربما حملت هذه الزيارة مغزى هماً ، فبالإضافة إلى الإعجاب الشديد الذي يكنه الإسكندر لأخيل بطل ملحمة الإلياذة ، التي تناولت أحداث حرب طروادة ؛ فإن هذه الحرب نظر إليها البعض على إنها مرحلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب ، وهي مرحلة انتهت بانتصار الغرب ممثلاً في أجداد الإغريق ، الذين هزموا طروادة ، القوة الشرقية .

توشل الإسكندر بعد ذلك في آسيا الصغرى ، وكانت من ممتلكات الإمبراطورية الفارسية (٣). وكان جيشه يبلغ ثلاثين ألفاً من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان . وهو جيش صغير ، إذا ما أخذنا في الاعتبار ما كانت تتمتع به الإمبراطورية الفارسية ، من قدرة على

(١) يرى البعض أن هذا المسير المؤلم الذي حاق بمدينة طيبة لا تقع مسؤوليته على الإسكندر وحده . وإنما يتحمل المسؤولية أيضاً باقي الحلفاء الذين كانوا يرغبون في الانتقام من مدينة طيبة ؛ راجع تارن ، الإسكندر الأكبر قصته وتاريخه ، ترجمة زكي على ؛ القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩ .

(٢) من الجدير بالذكر أن الزعيم الأثيني بركليز Pericles هو الذي أوصى بالقيام بهذه الحملة من أجل الانتقام من الفرس ، لأنهم دنسوا المعابد الإغريقية

انظر : Wilken, U; Alexander the Great, New York, 1976, P. 48 .

(3) Jouguet, P. ; Alexander the Great and the Hellenistic World, Chicago, 1978, P. 17 .

إعداد قوات كبيرة . وأحرز الإسكندر أول انتصاراته على الفرس ، عند نهر صغير يسمى جرانيكوس Granicos مما أتاح له فرصة الاستيلاء على باقى أقاليم آسيا الصغرى ، وكذلك الجزر المتاخمة للشاطئ .

واصل الإسكندر سيره ، متجهًا صوب الجنوب ، فوصل إلى إسوس Issos (طرسوس الحالية) . وفى هذا الموقع دارت رحى معركة كبيرة : حيث كان الجيش الفارسى ، بقيادة الملك دارا الثالث مرابطًا عند هذا المكان ، وأحرز الإسكندر نصرًا باهرًا ، فر على أثره الملك دارا الثالث ، تاركًا والدته وزوجته وبناته ، اللامى وقعن فى أسر الإسكندر فأكرمهن وعاملهن معاملة طيبة ^(١) . وأمر الإسكندر ببناء مدينة فى هذا الموقع احتفالاً بالنصر ، حملت اسم الإسكندرية (الإسكندرونة فيما بعد) ^(٢) .

عقب الهزيمة فر دارا إلى الشرق ، وكان من المتوقع أن يسير الإسكندر فى أثره ؛ إلا أنه رأى أنه من الأصوب أن يقوم بالاستيلاء على قواعد الأسطول الفارسى فى البحر المتوسط أولاً، لذلك قرر السير إلى الجنوب . ويرى بعض الدارسين أن المؤرخين قد بالغوا فى الإشادة بمهنية الإسكندر ^(٣) ، عند إشارتهم إلى هذه الحظرة . وأن الأمر لا يعدو رغبة الإسكندر فى الاستيلاء على مصر ؛ وذلك لما كانت تتمتع به من شهرة . باعتبارها من أهم مصادر الغلال فى العالم القديم ، وأنه كان يحتاج إلى مصدر لتسويل جيشه ، قبل الإقدام على الانجاء إلى الشرق . وإذا كان هذا رأى على قدر كبير من الصحة فإننا لا ينبغي أن نغفل عن الأهداف الاستراتيجية ، التى ذكرها فى خطبة ألقاها بينما كان يحاصر مدينة صور . فقد خاطب رجاله قائلاً " إننا لا يمكن أن نكون آمنين على أنفسنا ، ونحن نتقدم إلى الشرق ، ومثل هذه المدينة فى ظهورنا " ^(٤) .

(١) قال الإسكندر لعائلة دارا " إننى لا أحارب شخص دارا ، ولكنى أحارب من أجل ملكه فقط " . انظر : Arrian. Anab. II.8-11 .

(٢) سيد الناصرى : تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى فى العصر الهلنستى . القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) مصطفى العبادى . العصر الهلنستى . بيروت ١٩٨٨ . ص ١٨٠ ، ١٩٠ .

(4) Arrian. Anab. II. 17 .

اجتاح الإسكندر ساحل فينيقيا . وراحت المدن تستسلم واحدة تلو الأخرى . إلا أن مدينة صور استعصت عليه ، وأغلقت أبوابها دونه . فحاصرها لمدة سبعة شهور . واضطرت للاستسلام بعد مقاومة عنيدة . فأنزل الإسكندر بأهلها عقاباً أشبه بما فعله مع طيبة من قبل . وفي أثناء حصاره لمدينة صور ، تلقى الإسكندر رسالة من الملك دارا ، حملت عرضاً من الملك الفارسي ، يقضى بالاعتراف بالإسكندر ملكاً . وأن يتنازل له عن الأراضي التي تقع غربى نهر الفرات ، كما عرض أن يزوجه ابنته ، إلا أن الإسكندر رفض هذا العرض (١) .

فتح مصر :

في خريف عام ٣٣٢ ق.م. تقدم الإسكندر نحو مدينة غزة ، فسلمت له بعد أن حاصرها لمدة شهرين . وأصبح على مشارف مصر . فبلغ مدينة بيلوزيون Pelosion (تل الفرما الحالية ، شرقى بورسعيد) وهي بوابة مصر الشرقية . وكانت أنباء انصهارات الإسكندر قد سبقته : فسارع الوالى الفارسي بالاستسلام للفتح المقدونى . كما رحب به المصريون ترحيباً حاراً . فقد راجت شائعات حول ارتباط الإسكندر بالإله آمون . وانحداره من صلب آخر قراعشة مصر ، الذى يدعى نكتنبو الثانى Nectanenbo (٢) . وأنه جاء لكى يحرر مصر من الاحتلال الفارسي . ولما كان المصريون يحلمون بالتخلص من الفرس ، فقد سرتهم هذه الأنباء . وما هو جدير بالذكر أن المصريين كانوا قد ثاروا أكثر من مرة ، وذلك من أجل استخلاص حريتهم من الفرس ، إلا أن الفرس تمكنوا من إخماد هذه الثورات وإبقاء مصر تحت سيادتهم . ولما كان الإغريق قد مدوا يد التعاون للمصريين خلال هذه الثورات : فإن المصريين تصوروا أن الإسكندر قادم فى هذه المرة على رأس الإغريق لتحريرهم .

مصر قبيل الفتح المقدونى :

أطلق المؤرخون على الفترة التى تمتد ما بين عام ١٠٧٠ ق.م. ، وعام ٣٣٢ ق.م. اسم العصر المتأخر . وكانت الأسرة الحادية والعشرون أسرة ضعيفة ، امتد حكمها ما بين عامى ١٠٧٨ و

(1) Jouguet. P., op.cit. p. 27 .

عندما عرض الإسكندر على رجاله رسالة دارا ، يادره أكبر القادة ويدعى بارمينون قائلاً " لو كنت الإسكندر لتبعت العرض " فرد عليه قائلاً " وكذلك كنت أفعل لو كنت بارمينون " . انظر : بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على ، ص ٢٨ .

(2) Bowman. A.K; Egypt after the Pharaohs. London. 1986. p. 22 .

٩٤٥ ق.م . وجاءت نهاية حكم هذه الأسرة على يد أحد الزعماء الليبيين ، الذى تجمع فى إقامة أسرة ظلت تحكم ما بين عامى ٩٤٥ و ٧٣٠ ق.م . وحاول هذا الزعيم الليبي أن يعيد الوحدة إلى مصر ، وأن يدعم مكانتها الخارجية . وبعد وفاته عانت البلاد من حالة من الضعف والتفكك ، دامت خلال عصر الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين . وفى ذلك الوقت كانت هناك دولة قوية فى النوبة ، راح حكامها يعملون على الاستفادة من ضعف حكام مصر . وكان زعماء النوبة قد تأثروا بالحضارة المصرية ، واعتنقوا عبادة الإله المصرى آسون ، مما جعلهم يشعرون أنهم فى مكانة الفراعنة المصريين . وقام أحد ملوكهم ويدعى "بمنخى" بالسير من بلاده على رأس جيشه ، وتقدم شمالاً حتى منف ، واستولى عليها . وأعلن قيام أسرة حاكمة جديدة . هى الأسرة الخامسة والعشرين ، وتوج فرعوناً على مصر فى عام ٧١٥ ق^(١) . واستمر حكم النوبيين لمصر حتى عام ٦٦٣ ق.م .

جاء سقوط حكم النوبيين لمصر على يد الملك الآشورى آشور بانيبال ، ومما هو جدير بالذكر أن الدولة الآشورية هى واحدة من الدول التى قامت فى بلاد الرافدين ، واستطاعت أن تسيطر على هذه البلاد ، وما لبثت أن واصلت توسعها فى الشام ومصر ، وتمكن أعظم ملوكها آشور بانيبال من احتلال منف فى مصر ، ثم تقدم جنوباً نحو طيبة عاصمة مصر الخالدة ، وقام بتدميرها . واحتل الآشوريون مصر لبعض الوقت .

لم تلبث مصر أن نفضت عن نفسها غبار الاحتلال الآشورى^(٢) ، وجاءت هذه الخطوة على يد أمير مصرى من أصل ليبي يدعى إسماتيك (٦٦٣ - ٦٠٩) ، تمكن من تطهير الدلتا من الآشوريين ، وقام بتوحيد مصر تحت رايته ، متخذاً من مدينة سايس Sais (صا الحجر) عاصمة له ، وهى مدينة تقع على فرع رشيد فى غرب الدلتا المصرية . لذا عرف هذا العصر بالعصر العاشر . وهو عصر الأسرة السادسة والعشرين .

شهد عصر الأسرة السادسة والعشرين طفرة فى العلاقات بين مصر وبلاد الإغريق ، وذكر المؤرخ الإغريقى هيرودوت أن المرتزة الإغريق ساعدوا إسماتيك فى اعتلاء العرش^(٣) . ومنذ

(١) أحمد قفارى ، مصر الفرعونية ، ص ٤٠٧ .

(٢) أحمد قفارى : المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

(٣) Herodot., II. 152 .

ذلك الحين ازدادت أهمية الإغريق في مصر (١)؛ فأنزل ملوك العصر الصاوي جنودهم الإغريق في مستعمرات خاصة ، مثل مستعمرة دافنى Daphne في شمال شرق الدلتا . وذلك من أجل الدفاع عن المدخل الشرقي لمصر ، الذي ظل يمثل الخطر الأكبر على مصر دوماً . كما استخدم الفرعون نخاو الثاني (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) المرتزقة الإغريق في حملاته الآسيوية ، وهي الحملات التي تمكن بقتضاها هذا الفرعون من تحقيق السيادة المصرية ، على أجزاء من بلاد الشام فيما بين عامي ٦٠٨ و ٦٠٥ ق.م ، إلى أن تمكن الملك البابلي نيرخذ نصر من إلحاق الهزيمة به في موقعة " قر قبيش " عام ٦٠٥ ق.م (٢) . ومن الأعمال الهامة التي تنسب إلى الفرعون نخاو قيامه بحفر قناة تصل ما بين الفرع البلوزي للنيل والبحر الأحمر (٣) .

وقد استمر فراعنة العصر الصاوي في استخدام المرتزقة الإغريق في جيوشهم ، وشارك هؤلاء المرتزقة في حملات الملك إيسماتيك الثاني على النوبة في عام ٥٩٣ ق.م ، وفي عهد الفرعون آپريس Apris (٥٨٨ - ٥٦٨ ق.م) استأثر المرتزقة الإغريق بمكانة رفيعة في مصر ، مما أدى إلى إثارة حنق الجنود المصريين ، فثاروا بقيادة أحمس (أمازيس Amasis) ولبس أبريس حتفه في هذه الثورة ، وأعقب ذلك اعتلاء أحمس للعرش ، وعلى الرغم من أن هذا القائد تزعم ثورة ضد النفوذ الإغريقي ؛ فإنه عندما تولى العرش رأى أنه من الأفضل أن يعمل على كسب صداقة الإغريق . وشهد عهده الذي امتد ما بين عامي ٥٦٨ ، ٥٢٥ ق.م . نفعاً فريداً من تشجيع الإغريق على الاستقرار في مصر . لذا أطلقت المصادر الإغريقية على الفرعون أحمس الثاني لقب " صديق الإغريق " Philohellenes (٤) . واستمر وجود المرتزقة الإغريق في صفوف القوات المصرية ، فقاتلوا إلى جانب هذه القوات في عهد الفرعون إيسماتيك الثالث في بيلوزيون عام ٥٢٥ ق.م . وهي المعركة التي لقي فيها الفرعون هزيمة على يد الملك الفارسي قمبيز ، وكانت بداية للاحتلال الفارسي لمصر .

(١) عن العلاقات بين مصر وبلاد الإغريق قبيل الفتح المقدوني انظر : أهر اليسر فرح . النيل في المصادر الإغريقية . القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٩ - ٣٤ .

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) أهر اليسر فرح : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٤) Herodot II 180 .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الوجود الإغريقي في مصر ؛ لم يقتصر على الجنود المرتزقة فقط ، بل شمل إلى جانب هؤلاء فئات أخرى ، مثل التجار ، وكان الفرعون إيسماتيك الأول ، قد بادر بفتح أبواب مصر أمام التجار الأجانب ، ومنهم الإغريق ^(١) . وبعد ازدياد النشاط التجاري للإغريق في مصر ، قام التجار الإغريق بإنشاء مدينة نقرطيس Naucratis (موقعها في محافظة البحيرة حالياً) . وظلت هذه المدينة مركزاً تجارياً وحضارياً مهماً ، إلى أن احتلت الإسكندرية هذه المكانة فيما بعد . وقد تعرضت هذه المدينة لمحنة خلال الثورة التي وقعت في عهد الملك أبريس ضد النفوذ الإغريقي . ولكنها استردت عاقبتها وشهدت المزيد من التوسع والازدهار في عهد الملك أحيس الثاني . وإلى جانب المرتزقة والتجار توافدت على مصر أعداد من ذرى الخبرة في بعض المجالات ، مثل رجال البحرية الذين ساعدوا الفرعون نخاو في بناء الأسطول ، كما ذكر المؤرخ هيرودوت ^(٢) . وكانت مصر أيضاً مشاراً لاهتمام رجال العلم والفلاسفة الإغريق ، فأخذوا في التوافد إليها ، ومن أشهر هؤلاء الفيلسوف طاليس (٦٢٤ - ٥٤٦ ق.م) ، وأفلاطون ، أما هيرودوت أبو التاريخ فقد زارها في عام ٤٥٠ ق.م ، إبان الحكم الفارسي . وخصص الكتاب الثاني من مؤلفه للحديث عن مصر .

ولم تقتصر العلاقات بين مصر وبلاد الإغريق قبيل الفتح المقدوني على الأفراد ؛ بل تعدى ذلك لكي تشمل العلاقات بين مصر ودوليات المدن الإغريقية ، وما هو جدير بالذكر أنه في أعقاب ارتقاء الملك الفارسي أرتكسر كسجس الأول Artaxerxes عرش الإمبراطورية في عام ٤٦٥ - ٤٦٤ ق.م . سادت الإمبراطورية حالة من الاضطراب . ورغبت الكثير من الولايات في التخلص من الحكم الفارسي ، وكانت مصر من بين الولايات التي شقت عصا الطاعة ^(٣) . وقاد التمرد فيها أمير ليبى يدعى إيناروس Inaros بين إيسماتيك . الذي نجح في السيطرة على منطقة غرب الدلتا ، وهرع إلى مدينة أثينا طالباً مساعدتها في ثورته ضد الفرس . وتلقفت أثينا هذا الطلب ، وأبدت حماسة في مساعدة هذا الثائر ، لأن هذا الموقف يخدم السياسة الأثينية التي كانت على الدوام ترمى إلى بث القلاقل في أرجاء الإمبراطورية الفارسية ، العدو التقليدي للإغريق .

(1) Diodoros.L 66. 8 . 67. 9.

(2) Herodot. II. 159 .

(3) Edda Bresciani; Egypt and the Persian Empire (The Greeks and the Persians) London, 1972 . pp. 333. ff.

وقد أرسلت أثينا أسطولاً لمؤازرة إيناروس ، وتمكن هذا الشائر بفضل هذه القوة الأثينية ، من تحقيق نصر باهر ، واستطاع أن يدحر الحملة الفارسية التي أرسلت لقمع التمرد . إلا أن الفرس لم يستسلموا للهزيمة ؛ فأرسلوا جيشاً جراراً فى عام ٤٥٨ - ٤٥٧ ق.م . وفى هذه المرة تمكن الجيش الفارسى من حصار إيناروس وحلفائه الإغريق . ولم يجد إيناروس مناصاً سوى الاستسلام ، حيث جرى إعدامه . أما الإغريق فقد لقي الكثيرون منهم حتفهم ، بينما تمكن الباقون منهم من الهروب إلى قورينى (برقة) فى شكل مهين ، وعلى الرغم من المصير الذى حاق برجالهم . لم يتعظ الأثينيون ؛ فبادروا بمد يد المساعدة إلى ثائر آخر يدعى أسبرتاىوس Amyrtaeus ، حالفه الفشل أيضاً ، وقد نعمت مصر بالاستقلال فى عهد الأسرات الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين ^(١) . ولكن فى عام ٣٥٨ ق.م. تولى عرش الإمبراطورية الفارسية الملك أرتاكسركيس الثالث وقدر إعادة مصر إلى حظيرة الدولة الفارسية . وتمكن فى عام ٣٤٣ ق.م من هزيمة ملك مصر نكتنبو الثانى Nectanebo السلى هرب إلى الصعيد ، وعادت مصر مرة أخرى إلى حوزة الإمبراطورية الفارسية ^(١) .

الإسكندر الأكبر فى مصر :

أبحر الإسكندر فى الفرع البلوزى لنهر النيل ^(٣) ، ووصل إلى مدينة منف مقر عبادة الإله بتاح ، وحرص على إظهار احترامه للديانة المصرية ، فقدم القرابين للإله ، وحرص على إيداء احترامه للمكهنة ، ومن المرجح أنه توج فرعوناً طهناً للطقوس المصرية ^(٤) . ومن ناحية أخرى فإنه أراد أن يؤكد كونه رسول الحضارة الإغريقية إلى الشرق ؛ فأقام مهرجاناتاً رياضية وموسيقية فى منف ، على الطريقة الإغريقية ^(٥) . وبعد أن قرع الإسكندر من كل ذلك ؛ أبحر فى الفرع الكانوبى لنهر النيل ، حتى مصب هذا الفرع عند مدينة كاتوب (أبو قير الحالية) ،

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ، ص ٤٣٨ - ٤٤٠ .

(2) Edda Bresciani; op. cit. P. 350 .

(٣) فى ذلك العصر كان لنهر النيل سبعة فروع ، فيما يتعلق بأسماء هذه الفروع وخط سيرها انظر : أبو اليسر فرح . المرجع السابق ص ١٧٧ - ١٩٢ .

(٤) إبراهيم نصحي : تاريخ مصر فى عصر البطالة ج١ . القاهرة ١٩٨٠ . ص ٢٠ .

(5) Arrian. Anab. III. 1.4.

وسار بعد ذلك براً قاصداً مدينة قوريني Cyrene ، وهي مستعمرة بناها الإغريق على ساحل ليبيا (مكانها الحالي قرية شعاع بمحافظة الجبل الأخضر) . وكانت تابعة للفرس .

وفي أثناء سير الإسكندر بحاذاة شاطئ البحر المتوسط ، لغت انتباهه موقع قرية صغيرة يسكنها الصيادون المصريون ، تدعى راقودة Rhacotis ، وتقع قبالتها في البحر جزيرة صغيرة تسمى فاروس Pharos ؛ فقرر إقامة مدينة في هذا الموقع ، ويأتى ذلك في إطار رغبته في تخليد اسمه من خلال إقامة المدن ، ومن ناحية أخرى فقد أراد إقامة ميناء يكون قادراً على أن يسلب مدينة صور الأهمية التي تتمتع بها من الناحية التجارية ^(١) . وعهد إلى مهندس يدعى دينوكراتيس Deinocratis بأن يقوم بتخطيط المدينة . وتم إقامة جسر يصل ما بين الهابسة وجزيرة فاروس . وقد حملت المدينة الجديدة اسم الإسكندرية .

وبعد أن قام الإسكندر بوضع حجر الأساس لمدينته الجديدة ، واصل سيره في اتجاه الغرب . وعندما بلغ مدينة برايتونيون Paractonion (مرسى مطروح الحالية) : التقى وقدماً من مدينة قوريني جاء لمبايعته وتقديم الهدايا له ^(٢) . فلم يعد هناك ما يدعو إلى مواصلة السير إلى قوريني ، وقرر أن يخترق الصحراء جنوباً إلى واحة سيوة ؛ حيث يوجد معبد الإله آمون . وهو معبد نال شهرة عالمية آنذاك باعتباره من أشهر معابد الوحي في العالم ^(٣) ، وقصد أراد الإسكندر من خلال هذه الرحلة أن يحقق عدة أهداف ، أولها إثبات إنتسابه للإله آمون ، كما أراد من ناحية أخرى أن يسأل الوحي عن مدى نجاح خطته المستقبلية . وكانت رحلة الإسكندر ورفاقه إلى واحة سيوة محفوفة بالمخاطر ، فلم تكن لدى الإغريق خبرة بالسير في دروب الصحراء . ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر القديمة بالفت في الحديث عن المعجزات التي صاحبت هذه الرحلة .

عندما بلغ الركب نهاية الرحلة ، تقدم الإسكندر نحو معبد الإله آمون فاستقبله كبير الكهنة قائلاً " أهلاً بابن آمون " ، ودعاه إلى دخول قدس الأقداس . وكان الإسكندر يرغب في سماع هذا الاعتراف من كبير الكهنة ، ثم دلف بعد ذلك إلى قاعة قدس الأقداس بمفرده . وليس من

(1) Grant.M; From Alexander to Cleopatra. The Hellenistic World. London. 1982. p. 37 .

(2) Jouguet. P; op. cit. p. 29 .

(٣) عن هذه الرحلة انظر تارن . المرجع السابق ، من ٨٠ - ٨٤ .

المعروف على وجه التحديد فحوى الحوار الذى دار فى داخل هذه القاعة ، لأن كبير الكهنة ألهم الإسكندر بأن ما دار داخل قدس الأقداس : هو نوع من الأسرار لا ينبغي البوح به للآخرين ، ولكن الإسكندر كتب إلى والدته بأنه سوف يخبرها بتفاصيل هذا الحوار عندما يلتقى بهما^(١) . ومن ناحية أخرى حرص على أن يخبر رفاقه المقربين ببعض أطراف هذا الحوار ، وبخاصة الجانب الذى يهمه أن يعرفه الآخرون ، فقال لهم أن السؤال الأول الذى توجه به إلى الوحي هو " من قتل أبى ؟ " فأجابه الوحي قائلاً أنه لا يجوز توجيه هذا السؤال لأن أباك إله . فرد الإسكندر قائلاً بأنه يريد معرفة قتلة فيليب ، وكانت إجابة الوحي بأن قاتل فيليب قد نال العقاب الذى يستحقه . وقد أراد الإسكندر من وراء ترديده لهذا الجانب من الحوار ، أن يزيل الشك الذى كان يراود البعض ، فيما يتعلق بأصابع الاتهام التى راحت تشير إليه هو وأمه أولمبياس ، حول مؤامرة اغتيال فيليب . كما أن الوحي طمأنه على نجاح خطته المستقبلية تقهر الفرس .

بعد أن فرغ الإسكندر من زيارة سبوسة ، عاد إلى وادى النيل ، وحرص على أن يعلن للجميع عن دخول الحضارة الإغريقية إلى مصر ، لكي تكون توأماً للحضارة المصرية . ولكنه حرص على الإبقاء على النظم الإدارية المصرية القديمة ، أما الإدارة المالية فتقد عهد بها إلى الإغريق ، وجعل على رأس هذه الإدارة مواطن إغريقى من مدينة تقراطيس ، ويدعى كليومينيس Cleomenes^(٢) ، وأبقى على منف عاصمة لمصر . ومن الناحية الإدارية قسم مصر إلى قسمين هما الوجه البحرى ، والوجه القبلى . وجعل على كل قسم منها حاكماً من أبناء البلاد .

الإسكندر فى الشرق :

بعد أن فرغ الإسكندر من تنظيم أحوال مصر : غادرها فى عام ٣٣١ ق.م. متجهاً إلى مدينة صور ، تمهيداً للزحف إلى قلب الإمبراطورية الفارسية ، ولم يكن أمام الملك الفارسى بعد أن رفض الإسكندر عرضه السخى ، سوى أن يستعد للمواجهة العسكرية . وقد التقى جيش

(١) لم يقدر الإسكندر أن يرى والدته مرة أخرى ، فقد قضى نحبها فى بابل وهو فى طريق العودة ، ودللت معه أسرار زيارته لوى الإله آمون .

(2) Bowman, A.K; op. cit. p. 22 .

الإسكندر مع الجيش الفارسي في عام ٣٣١ ق.م. عند جاوجميلا Gaugameia^(١) (بالقرب من أرميل عند الموصل الحالية) . وفي هذه المعركة أحرز الإسكندر نصراً باهراً على الملك دارا الثالث ، الذي ولى الأدبار صوب الشرق ، ويعتبر المؤرخون هذه المعركة واحدة من أهم المعارك في تاريخ البشرية .

أدرك الإسكندر أن هذا النصر ليس كافياً لإعلان سقوط الإمبراطورية الفارسية ، سادام دارا الثالث على قيد الحياة ؛ فقرر أن يتتبعه لإلقاء القبض عليه ، إلا أن رجال دارا تخلو عنه ، وطعته أحدهم تاركين إياه وحيداً يعاني آلام الموت والذل وغدر الرفاق ، وعثر عليه جنود الإسكندر وهو يحتضر في عرشه الملكية . فطلب منهم أن يشكروا الإسكندر للمعاملة الطيبة التي قدمها لأسرته التي وقعت في الأسر بعد معركة إسوس^(٢) . وعندما وصل الإسكندر إلى الموقع كان الملك الفارسي قد قارق الحياة ، فحرص على إظهار احترامه لعدوه حتى اللحظات الأخيرة ، وألقى صباه الملكية على جثمان دارا ، وأمر بدفنه بطريقة تليق بالملوك . كما أمر بإلقاء القبض على القتلة لمعاقبتهم^(٣) .

هكذا سقطت الإمبراطورية الفارسية ، ودخل الإسكندر مدن الفرس العظيمة مثل سوسة وپرسپوليس Perspolis . وصار وهو في سن السادسة والعشرين سيداً على العالم ، ولم ينس الإسكندر وهو في غمرة انتصاراته الهدف الذي خرج من أجله من بلاد الإغريق ، وهو الانتقام لشرف الإغريق الذي دنسه الفرس عند غزوهم لبلاد اليونان ، وإحراقهم لمدينة أثينا أعظم مدن الإغريق ، فأمر بإضرام النار في مدينة پرسپوليس^(٤) .

واصل الإسكندر تقدمه في الإمبراطورية الفارسية ، التي كانت حدودها تمتد إلى الهند شرقاً . وفي إقليم باكثريا (أفغانستان الحالية) تزوج من روكسانا Roxana ابنة حاكم هذا الإقليم^(٥) . ثم واصل سيره حتى وصل إلى إقليم البنجاب ووادي نهر السند ، وعند هذا الحد

(1) Grant. M; op. cit. p. 1 .

(٢) عندما توفيت زوجة دارا وهي في الأسر ، أمر الإسكندر بإقامة جنازة ملكية لها .

انظر : Plutarch.37.

(3) Wilcken. U; op. cit. p. 150 .

(4) Savill. A; op. cit. p. 60 .

(٥) تذكر المصادر أن روكسانا كانت أجمل سيدة في آسيا بعد ستاتيرا زوجة دارا الثالث ، انظر :

Wilcken . U; op. cit. p. 164.

أدركت رجاله حالة من الملل والإعياء : فرفضوا أن يطيعوا قائدهم ، وطالبوه بالعودة إلى بلادهم . وعلى الرغم من حالة الإحباط التي سيطرت على الإسكندر من جراء طلب رجاله : قبضه اضطر إلى الإذعان لهم (١) . وقرر تقسيم قواته في طريق العودة إلى قسمين ، يعود أحدهما عن طريق البر تحت قيادته ، بينما يعود القسم الآخر بحراً . وعهد إلى أحد رجاله ويدعى نيارخوس Nearchos بمهمة قيادة الأسطول الذي أعد لهذا الغرض . وجعل الهدف الرئيسي لهذه المهمة اكتشاف طريق للربط بين الغرب والشرق عن طريق البحر (٢) .

ولم تكن أهداف الإسكندر تقتصر على إيجاد طرق الاتصال بين الشرق والغرب فقط ؛ بل كان يهدف إلى إقامة جسر المحبة والتفاهم بين الشعوب (٣) . فتزوج من سيدة شرقية . وأمر رجاله بالزواج من سيدات فارسيات ، وأقيم لهذا الغرض حفل كبير تزوج فيه تسعة آلاف من المقدونيين من سيدات آسيويات (٤) . ومكث الإسكندر في بابل التي كان يخطط لجعلها عاصمة لإمبراطوريته ، وأخذ يتطلع إلى سماع أخبار الأسطول ، وكانت الاتصالات مع نيارخوس ورجاله قد انقطعت تماماً ، وظن الإسكندر أن الأسطول قد هلك في غياهب المحيط الهندي ، ولكنه فوجئ بوصول نيارخوس إلى بابل ، وفرح بهذا النياً فرحاً غامراً ، واستقبل نيارخوس بحفاوة بالغة ، وراح يستمع باهتمام إلى المعلومات التي جمعتها الأسطول خلال الرحلة . وشجعه ذلك على الاستمرار في استكشاف المزيد من المناطق . وكانت بلاد العرب على رأس البلاد التي حظيت باهتمام الإسكندر . فقد أسهبت بعض المصادر في الحديث عن ثروة هذه البلاد (٥) .

(١) Grant, M; op. cit. p. 4 .

(٢) راجع : أبو اليسر فرج ، حملات الإسكندر الأكبر وتطور المعلومات الجغرافية عند الإغريق . حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، العدد ٢٧ ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٣) خالف الإسكندر تعاليم أستاذه لوسطور ، الذي أوصاه بأن يكون قائداً للإشريق ، وطاغية على الشرقيين . انظر : تارن ، المرجع السابق ص ٨٠ ، ٩٨ .

(٤) جون جرنتر . المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٥) عن أهمية الجزيرة العربية كما وردت في المصادر الإغريقية انظر : طليعة الزهراني : ثلاثة شبه الجزيرة العربية بجاراتها في العصر الهلنستسي . سياسياً وحضارياً . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات بالدمام ، ١٩٩٥ - ص ٤ - ١٠ .

الإسكندر الأكبر وبلاد العرب :

على الرغم من أن الخليج العربي جاء ذكره عند هيكاتييه في حوالي عام ٥٠٠ ق.م.؛ إلا أن فكرة الإغريق عن هذا الإغريق ظلت محدودة ، وكانوا يطلقون عليه اسم " الخليج الفارسي " Persikos Kolpos^(١) ، نظراً لخضوع هذا الخليج للنفوذ الفارسي في تلك الآونة .

اتفق الإسكندر الشطر الأكبر من عامه الأخير في الإعداد لخطة اكتشاف بلاد العرب ؛ فأمر ببناء أسطول في قبرص وقينيقيا لهذا الغرض ، وتم نقل السفن براكا إلى ثابساكوس -Thapsa- (بالقرب من دير الزور الحالية) ، في طريقها إلى بابل^(٢) . ويذكر أريان أن الإسكندر أمر بإقامة ميناء في بابل لاتخاذ قاعدة للمحلات . وكان هذا الميناء من الضخامة بحيث أنه كان يتسع لما يقرب من ألف سفينة^(٣) .

وفي إطار الاستعداد لإرسال الحملة الكبرى ؛ بادر الإسكندر بإيفاد ثلاث حملات استكشافية في عام ٣٢٤ ق.م. وكان هدف هذه الحملات جمع المعلومات عن شواطئ بلاد العرب والجزر المتاخمة لها . وتولى قيادة البعثة الأولى أرخياس Archias ، وهو أحد رجال حملة نيارخوس . ويذكر أريان^(٤) أن أرخياس وصل حتى جزيرة تيلوس Tylos (البحرين) . أما البعثة الثانية فقد تولى قيادتها أندروستشيتز Androthenes من ثامسوس Thasos ، وقطعت هذه البعثة شوطاً أطول من سابقتها ، فوصلت إل تيلوس وأرادوس Arados ، وأعد قائدها كتاباً ظل يشكل مرجعاً أساسياً للبحارة على نطاق واسع^(٥) .

وتولى هيرون Hieron قيادة البعثة الثالثة ، التي بدأت رحلتها من جنوب بابل ، وتمكنت من الطواف حول الجزيرة العربية ، والوصول إلى ميناء هيروبوليس Heroopolis في مصر ، حيث استدارت عائدة لتقديم التقارير إلى الإسكندر .

(1) Potts, D.T: The Arabian Gulf in Antiquity. p. 2.

(2) Strabo. 16. 1. 11.

(3) Arrian: 7. 19. 4 .

(4) Arrian. 7. 20. 7 .

(5) Potts. op. cit. p. 6 .

وبينما انطلقت هذه البعثات الثلاث من بابل ، قامت في نفس الوقت بعثة من الاتجاه المقابل . فقد أمر الإسكندر بقيام حملة بقيادة أناكسيكراتيس Anaxicrates من مسينا هيرابوليس في مصر^(١) ، للدوران حول بلاد العرب ، إلا أن هذه الحملة لم تتجاوز باب المندب في مدخل البحر الأحمر . وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت من جمع معلومات طيبة عن الشواطئ الغربية لبلاد العرب .

وبما هو جدير بالذكر أن الإسكندر كان يؤمن إيماناً راسخاً بأهمية بناء المدن والمستعمرات ، وكان يخطط لإقامة العديد من المستعمرات على شاطئ الخليج العربي . ويوجد دليل على قيام الإسكندر بإنشاء مستعمرة في شمال شرق الجزيرة العربية ، على حدود بلاد الرافدين ، وذكر اثنان من الكتاب القدماء أن الإسكندر دخل إلى بلاد العرب^(٢) . وأقام مدينة حصينة أعدها لسكنى جنوده الذين انتهت مدة خدمتهم . إلا أننا لا نستطيع تحديد موقع هذه المدينة ، ومن المرجح أنه أطلق عليها اسم الإسكندرية^(٣) .

وربما كان الإسكندر يرمى من خلال إقامة هذه المدينة ، إلى تحقيق عدة أهداف ، أولها إقامة مركز دفاعي ضد إغارات العرب ، وثانيها إقامة ميناء يمكن اتخاذ قاعدة للعمليات للأسطول الكبير ، الذي كان يجرى بناؤه لغزو بلاد العرب ، أما الهدف الثالث فهو خلق مركز تجاري على رأس الخليج العربي لاستقبال البضائع الواردة من الشرق .

وعلى الرغم من أن غزو الإسكندر لبلاد العرب لم يتم ، إلا أننا نجد إصراراً من بعض الكتاب القدماء على وقوع هذا الغزو^(٤) ، وربما جاء هذا الخلط بسبب الغزوة الحاطقة التي قام بها الإسكندر أثناء حصاره لمدينة صور ، وأرسل بعدها هدية إلى معلمه ليونيفاس من بخور بلاد العرب .

وبينما كانت الاستعدادات لإرسال الحملة الكبرى لبلاد العرب تجري على قدم وساق . جرى إقامة حفل كبير في شهر يونيو من عام ٣٢٣ ق.م. على شرف نيارخوس ، الذي تقوى إسناد قيادة الحملة إليه ، وفي اليوم التالي للحفل أصيب الإسكندر بالحمى . وعلى الرغم من

(1) Arrian. 8.43. 7 .

(2) Arrian. 7.21.7; Curtius. 10. 4. 3 .

(3) Potts. op. cit. p. 7 .

(4) Pliny. N.H.12. 32. 62, Curtius. 1 Summ. 7. Plutarch. 25. 4. f .

هذا لم تتوقف الاستعدادات لإرسال الحملة . وحرص الإسكندر على الرغم من مرضه على مناقشة تفاصيل الخطة مع نيارخوس . وفي مساء اليوم العاشر من شهر يونيه عام ٣٢٣ ق.م. أسلم الإسكندر الروح^(١) . ولم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره ، بعد أن حكم لمدة إثني عشر عاماً ونصف ، تعد بحق من أخصب سنوات تاريخ البشرية .

العصر الهلينيستي

هو ذلك العصر الذي يمتد ما بين وفاة الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.م. وحتى قيام الإمبراطورية الرومانية على يد الإمبراطور أوغسطس في عام ٣١ ق.م.^(٢) . وما هو جدير بالذكر أن هذا العام شهد أحداث مرمقة أكتسبوم ، وهي الموقعة التي انتهت بانتصار أوكتافيانوس (أوغسطس فيما بعد) على كليوباترة السابعة ملكة مصر ، وآخر سلالة أسرة البطالمة . وتلى ذلك انتحار هذه الملكة وستوط دولة البطالمة . وتحول مصر إلى ولاية رومانية . ويسرى تارن Tarn^(٣) أن هذه الحدود هي مجرد تحديد وضعى بحث ، لأن مظاهر الروح الهلينيستية كانت قد أخذت في الظهور من قبل عصر الإسكندر ، كما أن أوغسطس لا يمثل في كثير من النواحي فاصلاً حقيقياً بين عهدين . وربما يصدق قول تارن من الناحية الحضارية ، لأن الرومان شجعوا على الاستمرار في الأخذ بالنهج الإغريقي في الكثير من المظاهر ، وبالتالي استمرت الكثير من مظاهر الحضارة الإغريقية في شكلها الذي تطورت به خلال العصر الهلينيستي . أما من الناحية السياسية ، فإن عصر أوغسطس يمثل بداية لتغيرات بعيدة المدى . فقد أقلت شمس الممالك الهلينيستية ، وسطعت شمس الإمبراطورية الرومانية التي بسطت سيطرتها على مساحات شاسعة من المعمورة .

وكلمة هلينيستي هي لفظة حديثة ؛ استخدمها العلماء لتمييز هذا العصر عن العصر السابق عليه ، أي العصر الهليني ، الذي سادت فيه الحضارة الإغريقية الكلاسيكية . وترجع بداية استخدام هذا المصطلح إلى أوائل القرن التاسع عشر^(٤) .

(1) Hamilton, J.R; op. cit.p. 152.

(٢) يطلق الدكتور لطفى عبد الوهاب على هذا العصر اسم العصر المتأخر أيضاً : انظر : لطفى عبد الوهاب يحيى . دراسات في العصر الهلينيستي ، بيروت ١٩٨٨ ص ١٦ .

(٣) تارن ، الحضارة الهلينيستية . ترجمة زكى على . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٣ .

(٤) جون جوستاف دروسون لعب دوراً مهماً في صياغة هذا المصطلح في الفترة ما بين ١٨٣٠ - ١٨٤٠ .

انظر : Grant M; op. cit. intro. p. XII; Preaux, C; Le monde hellénistique I. 3ed. Paris. : 1989. pp. 7 ff.

ويركز جبرانت^(١) Grant على أهمية العصر الهلينيستي ، فيذكر أنه لا ينبغي أن ننظر إلى العصر الهلينيستي باعتباره مجرد ملحق للعصر الكلاسيكي ، أو مجرد مقدمة للعصر الروماني ، فهو عصر يتميز بدرجة كبيرة من الثراء والخصوبة على الرغم مما يدين به للعصر السابق عليه .

ولعل مرد هذه الخصوبة الحضارية ، التي يتمتع بها هذا العصر ، إلى أن إمبراطورية الإسكندرية كانت هي البوتقة التي انصهرت فيها الحضارة الإغريقية مع الحضارات الشرقية ولكن لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن الحضارة الإغريقية قد ذابت في خضم الحضارات الشرقية . أو أن الحضارة الإغريقية التهمت الحضارات الشرقية ، واستطاعت أن تمسخها . ولكن الحقيقة أنه على الرغم مما هو معروف من أن المغلوب مولودٌ بتقليد الغالب فإن العكس هو الذي حدث ، فإن الإسكندر كان محباً للحضارات الشرقية ، وكان يرى أن الشرقيين جديرون بالإعجاب . وربما شايعه الكثيرون من قومه في هذا الاتجاه . ومن ثم فقد شهد عصر الإسكندر مولد حضارة جديدة ، ذات شخصية مستقلة ، ليست شرقية أو غربية الطبع ، بل عالمية الطابع . لأنها جمعت أفضل ما في هذين العالمين .

وقد شهد الفكر السياسي تطوراً مهماً ، ويمكن القول أنه يوفاء أرسطو انتهت النظرة إلى الإنسان بوصفه حيواناً سياسياً^(٢) (مديني) Political وأصبح الإنسان حيواناً عالمياً Cosmopolitan ، فقد كان محور الفكر السياسي لدى الإغريق هو نظام دولة المدينة Polis ، الذي يعيش في كنفه الإنسان الحر ، ويعمل على المحافظة عليه ، أما بعد عصر الإسكندر فإن الإنسان أصبح ينشئ إلى العالم Cosmos . وقد أعلن الإسكندر في المأدبة التي أقامها في مدينة أوبس Opis على نهر دجلة ، أنه يرغب في أن تتحد القلوب ، وأن يلتئم الفرس والمقدونيون في دولة واحدة ، ترتفع فوق مستوى القومية^(٣) .

(١) Grant, M; op. cit. introd .

(٢) انظر الترجمة العربية لكتاب السياسة لأرسطو : كدب السياسة لأرسطو ، ترجمة الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٩ . الباب الأول ، الفصل الأول الفقرة التاسعة .

(٣) تاون . المرجع السابق ، ص ٨٩ .

وأخذت الفلسفة الرواقية تعمل على تدعيم هذه الفكرة ، ويبدو هذا واضحاً في كتاب المدينة الفاضلة للفيلسوف زينون^(١) . وأخذت تتشكل ما يسمى بالترعة العالمية Cosmo-politicism ، وسادت لغة مشتركة Koine ، وهي اللغة الإغريقية باللهجة الأتيكية ، وهي اللهجة التي كانت سائدة في أوساط المثقفين . ويقول الخطيب المشهور إيسوقراط Isocrates ، أن الذي يميز الفرد الإغريقي هو التعليم ، وليس الأصل ، وأن أي شخص يتعلم على الطريقة الإغريقية فهو هليني^(٢) . وطبقاً لهذا المفهوم فإن الشعوب الشرقية التي تشربت الثقافة الإغريقية ، تصبح جزءاً من الأمة الإغريقية .

ومن علامات التوحيد بين شعوب العالم الهلينيستي : انتشار ديانات بعينها بين شعوب هذا العالم ، مثل عبادة الربة المصرية إيزيس ، والإله سيراپيس Sarapis ، وعبادة الربة الأم ، التي كان موطنها الأصلي في آسيا الصغرى ، والإله السوري أدونيس ، والإله الفارسي ميثرا . كما وجد الإغريق في تراث الشرق الفلسفي ضالته المنشودة ؛ لذا فقد راجت الأفكار التي تبشر بالمحبة ، وتحقيق السكينة للنفس البشرية^(٣) .

والحقيقة إننا لا نستطيع أن نفهم طبيعة العصر الهلينيستي دون التعرف على الدور الذي قامت به المدن في هذا العصر . فعلى الرغم من أن الدور السياسي للمدن قد توارى ، وذلك بعد أن أصبحت الأهمية السياسية محورها الدول الكبرى ؛ فإن الدور الحضاري للمدن ظل على درجة كبرى من الأهمية . وعلينا أن نضع في الحسبان الدور الذي لعبته المدن التي أقيمت في العصر الهلينيستي ، وحملت أسماء الملوك والملكات ، مثل مدن الإسكندرية وأنطاكية وسلوقيا وأباميا ولاوديكية وستراتونيكيا^(٤) . فقد شكلت هذه المدن مراكز جذب حضاري عظيمة ، وعلى وجه الخصوص مدينة الإسكندرية عاصمة مصر الرائعة .

(١) زينون هو فيلسوف فينيقي الأصل عاش في قبرص حوالي عام ٣٠٠ ق.م. وكان يرى أن الفلسفة الرواقية هي علاج لأزمات العصر ، وهي فلسفة تدعو إلى المساواة بين البشر ، وإلى الرشد في الدنيا ، وكبح جماح النفس وعدم التكالب على الماديات انظر : يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢٢٣ .

(2) Jouguet, P; op.cit. introd. XIII

(٣) سيد الناصري : المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٤) فيما يتعلق بالمدن في العصر الهلينيستي انظر على سبيل المثال : جلاتيل داوي . أنطاكية القديمة ، ترجمة إبراهيم نصحي ، القاهرة ١٩٦٧ ؛ P.M.Fraser, Ptolemaic Alexandria. Oxford. 1984. Grainger. John. D; The Cities of the Seleukid Syria. Oxford. 1990

وأصبح التعاون والتآخي بين المدن المختلفة أمراً شائعاً ، وراحت المدن تمنح مواطنيها الشرفية لمواطني مدن أخرى . وترتب على ذلك أن العلماء والشعراء راحوا يتنقلون بحرية ، ويقيمون في مدن أخرى غير مواطنهم ، حيث يمارسون عطاءهم في مجال الفكر والتعليم (١) . ومن ملامح العصر الهلنستى أيضاً انتشار النوادي الاجتماعية ، والجمعيات العلمية التي لا شأن لها بالسياسة . وأصبحت معاهد الجمنازيوم من أهم مراكز العلم ، وهي معاهد لها وظائف اجتماعية ، وكان يرأس كل واحد منها شخص يتمتع بمكانة سامية في المجتمع (٢) . كما عرف العالم الجامعات ، وكانت أشهر الجامعات آنذاك تلك التي وجدت في الإسكندرية وبرجامة (٣) .

كما شهد العصر الهلنستى انتشار المكتبات ، وربما عرف العالم من قبل مكتبات شهيرة ، مثل تلك المكتبة التي أقامها أرسطو في أثينا . إلا أن العصر الهلنستى شهد قيام مكتبات أخرى كثيرة . مثل مكتبات أنطاكية وبرجامة ورودى وأزمير ، وثكن أعظم مكتبات العالم القديم ، هي تلك المكتبة التي أقامها بطليموس الأول في الإسكندرية (٤) ، وما لبث البطالمة أن أقاموا مكتبة أخرى في سيرايوم الإسكندرية ارتبطت بالمكتبة الأم . وساهمت هذه المكتبة بالإضافة إلى نشاط علماء مدرسة الإسكندرية في جعل هذه المدينة عاصمة للعلم والثقافة في العالم ، وتفوقت على مدينة أثينا العريقة . فيما عدا في مجال الفلسفة ، حيث احتفظت أثينا بمكانتها المعروفة في هذا المجال .

ومن العلامات البارزة في العصر الهلنستى ، ازدياد أهمية المكانة التي تمتعت بها المرأة . ويتضح هذا بشكل جلي من خلال المكانة التي حظيت بها الأميرات المقدونيات (٥) . اللائي كن يقمن بكافة المهام التي كان يقوم بها الرجال في المجال السياسي ، بل وفي قيادة

(١) عن الحياة الثقافية في هذا العصر بشكل عام انظر : Moses Hadas; Hellenistic Culture New York 1972 .

(٢) تارن : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٨ .

(٣) Jouguet, P; op. cit. intr. XIII .

(٤) عن مكتبة الإسكندرية انظر : مصطفى المبادئ . المرجع السابق ، ص ١٥١ - ٢٠٥ .

(٥) تارن : المرجع السابق ص ١٠٩ .

الجيش أيضاً ولدينا أمثلة بارزة في شخصيات مثل أرسينوى الثانية ، زوجة بطليموس الثانى ، وكليوباترة الثالثة وكليوباترة السابعة ، آخر ملكات الأسرة البطلمية (١) . وبما لا شك فيه أن تلك الحرية التى تمتعت بها الأميرات والملكات ، صارت حافزاً للنساء الأخريات نحو مزيد من الانطلاق . وبخاصة بعد أن نالت النساء قسطاً أكبر من التعليم ، فعادت المرأة إلى الظهور كشاعرة أو أديبة ، ولعبت دوراً أكبر في الحياة الاجتماعية ، من خلال الأندية والجمعيات .

وفى ظل الحضارة الهلنستية لم تعد بلاد الإغريق تمثل مركز الثقل الحضارى ، بل انتقل هذا المركز إلى بلدان الشرق الأدنى ، مهد الحضارات العريقة ، وأخذ الإغريق يتدفقون على بلدان الشرق الأدنى ، وقد حرص خلفاء الإسكندر الذين أقاموا ممالك في الشرق الأدنى على تشجيع الإغريق على الهجرة إلى الممالك الجديدة . لأنهم كانوا يهدفون على إضفاء الطابع الإغريقى على دولهم (٢) .

تلك إطلاقة سريعة على أهم الملامح الحضارية للعصر الهلنستى ، أما الملامح السياسية لهذا العصر فهى قيام العديد من الدول ، أكبرها مملكة البطالمة فى مصر ، ومملكة السلوقيين التى تركزت مملكتها فى سوريا وبلاد الرافدين ، بالإضافة إلى مملكة مقدونيا ، وسوف ينصب اهتمامنا فى الصفحات التالية ، على دراسة دولتى البطالمة والسلوقيين ، لأن هدف هذا الكتاب هو دراسة تاريخ الشرق الأدنى فقط . أما دولة مقدونيا فإننا سوف نعرض لها فى إطار حديثنا عن تاريخ الدولتين السابقتين .

(١) عن الدور الذى لعبته الأميرات والملكات اللاتى حملن اسم كليوباترة انظر :

Whiteborne, J; Cleopatras, London and New York, 1994 .

(٢) سيد الناصرى : المرجع السابق ص ١٠٤ .

الفصل الثانى دولة البطالمة

مؤتمر بابل :

كانت المشكلة التى واجهت القادة المقدونيين فى بابل بعد وفاة الإسكندر (١) ، هى ولاية العرش . فقد مات الإسكندر دون وريث . وكانت زوجته روكسانا لم تضع جنينها بعد ، وكان له أخ غير شقيق ، يدعى أرهيديابوس Arrhidaeus ، كان مريضاً بالصرع . ويقال أن الإسكندر حين سأل على فراش الموت لمن يؤول العرش ؟ قال " للأقوى " (٢) . وهى إجابة غامضة أوقعت القادة المقدونيين فى كثير من الحيرة . وطبقاً للتقاليد المقدونية فإن إعلان الملك الجديد هو شأن من شئون الجيش .

اختلفت قادة الجيش حول هذا الأمر ، وما هو جدير بالذكر أن رجال الفرسان الذين كانوا قد تشبعوا بفكر الإسكندر ، حول المساواة بين البشر ، تحمسوا لفكرة الانتظار حتى تضع روكسانا جنينها ، والمناداة به ملكاً فى حال كونه ذكراً ، أما المشاة المتعصبون ذوى النظرة الضيقة ، فقد رأوا أن أرهيديابوس أحق بالعرش ، لكونه مقدونيا خالصاً ، على الرغم من مرضه ، وكاد الاشتباك أن يقع بين الفرق المختلفة فى بابل ، وقد سارع يومينيس Eumenesسكرتير الإسكندر بتقديم اقتراح ، ما لبث أن لقي قبولاً لدى الأطراف المختلفة ، ويقضى هذا الاقتراح بأن يتولى أرهيديابوس العرش تحت اسم فيليب ، على يكون من حق جنين روكسانا مشاركته العرش إذا كان ذكراً (٣) .

(١) عن مؤتمر ومشكلة وراثية العرش انظر : إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٩ .

(2) Diod. XVII. 117 .

(3) Walbank, F.W. The Hellenistic World. London, 1992. P. 48 .

كما تقرر في مؤتمر بابل تعيين برديكاس Perdicas وصيا على العرش . وبما هو جدير بالذكر أن الإسكندر وهر يحضر . أعطى برديكاس خاتم الملك لكي يختم به الأوامر الملكية ، لذلك كان هذا القائد يرى أنه أعلى مرتبة من باقي القادة (١) . وقد اتخذ برديكاس من بابل مقراً له . أما ولايات الإمبراطورية فقد تقرر تقسيمها بين كبار قادة الجيش ليقيموا بادراتها باسم البيت المالكة ، فتولى بطليموس بن لاجوس ولاية مصر . وعين أنتيجونوس Antigonos مشرقاً على آسيا الصغرى ، ولاوميدون Laomedonos على سوريا . وأسند إلى أنتيباتروس Antipatros مهمة الإشراف على بلاد اليونان ، بالإضافة إلى القادة الآخرين الذين أسندت إليهم ولايات أخرى . وقيل أن يبارح القادة بابل ، وضعت روكسانا ذكراً ، أطلق عليه اسم الإسكندر الرابع ، وتقرر أن يشارك فيليب أرهدايرس في العرش (٢) .

دولة البطالمة - عصر القوة :

بطليموس الأول (سوتير) ٣٢٣ - ٢٨٤ ق.م :

ينتمي بطليموس إلى إحدى العائلات المقدونية التبيلة (٣) ، وكان أكبر من الإسكندر ببضعة أعوام ، وبعد من أصدقائه المقربين ، فقد لازمه في المنفى في أبيروس حين تعرض الإسكندر وأمه أوليمبياس لغضب فيليب . وتقرر نفيهما من مقدونيا . وعاد بطليموس إلى الوطن مع الإسكندر بعد انتهاء النفي ، ولازم الإسكندر منذ ذلك الحين ، وقد أهلكه حسداً في كل المعارك التي خاضها ، بما أهله لكي يصبح عضواً في مجلس الحرب الأعلى ، وقد حرص بطليموس على تسجيل مذكراته ، في أثناء مشاركته في حملات الإسكندر ، وعلى الرغم من عدم وصول هذه المذكرات إلينا ، إلا أننا عرفنا محتوياتها من خلال مصادر أخرى (٤) .

(1) Diod. XVIII.4 .

(٢) سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) عن بطليموس بشكل عام أنظر : Walter M. Ellis. : Ptolemy of Egypt. London. New York.

(٤) اعتمد عليها أريان في كتابه من حملة الإسكندر Anabasis

ومن الواضح أن بطليميوس كان يطمح إلى الحصول على ولاية مصر ، وهذا ما يبدو من خلال التفاصيل التي أوردها عن هذا البلد في مذكراته ، فقد أدرك يقطيته أن مصر سوف تكون بمنأى عن الصراعات التي ستدور بين قادة جيش الإسكندر ، كما أنها تتمتع بخيرات تمكنه من إقامة دولة وطيدة الأركان .

وصل بطليميوس إلى مصر بعد خمسة شهور من وفاة الإسكندر . فوجد كليومينيس النقراطي الذي كان الإسكندر قد عينه مشرقاً على الشئون المالية ، وقد انفرد بالسلطة على البلاد . مما أثار حفيظة بطليميوس ، لأنه يعرف بأمر الصداقة التي تربط ما بين برديكاس وهذا الرجل ، فأخذ يتحين الفرصة للتخلص منه . وقد وافته تلك الفرصة عندما راح يتلقى شكاوى من الأهالي من الإجراءات المالية التي طبقها كليومينيس ، فأمر بإعدامه ، ومصادرة ممتلكاته^(١) .

بعد أن تخلص بطليميوس من تلك العنقة الكأداء ، والتي كانت تتمثل في كليومينيس النقراطي ، راح يعمل على تدعيم مكانته في مصر ، وتأمين حدود الولاية ، وفي هذا الإطار استجاب لطلب قورني ، وهي مستوطنة إغريقية تقع على حدود مصر الغربية (في ليبيا الحالية) . وكانت قد استنجدت به من أجل وضع حد للاضطرابات التي كانت تعاني منها . فبادر بإرسال قوة تمكنت من الاستيلاء على هذه الولاية ، وضمها لمصر في عام ٣٢٢ ق.م. راح برديكاس الوصي على العرش المقدوني ، يراقب سلوك الولاة بكثيرة من الشك والريبة ، فقد أخذت النزاع الاستقلالية لديهم تطل برأسها . وبدأ سلوك بطليميوس اتجاهاً واضحاً نحو الاستقلال ، وبخاصة بعد قيامه بإعدام كليومينيس النقراطي ، وتوسيع حدود ولايته غرباً . ومن ناحية أخرى ، لم يكن الولاة أقل توجساً في نظرهم إلى برديكاس^(٢) . وفسروا الكثير من تصرفاته على أنها رغبة منه في الاستحواذ على العرش المقدوني . وكان معروفاً عنه رغبته في الزواج من كليوباترة شقيقة الإسكندر ، فسارعوا إلى عقد محاولة ضده ، وشارك بطليميوس في هذا الحلف .

(١) عن موقف بطليميوس من برديكاس راجع : لطفى عبد الرهاب ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(2) Walbank. op. cit. p. 49 .

لم يلبث بطلميوس أن أقدم على خطوة أخرى ، أدت إلى زيادة شكوك برديكاس ومخاوفه منه ، وكان قد تقرر في مؤتمر باهل تحنيط جثمان الإسكندر على يد أطباء مصريين ، على أن يرسل بعد ذلك إلى مقدونيا لدفنه هناك . وحاول بطلميوس آنذاك إقناع باقي القادة بأن الإسكندر كان يرغب في أن يدفن في واحة سيوة ، في مصر في رحاب معبد الإله آمون . إلا أن القادة رفضوا الاستماع إلى هذه الفكرة . لكن بطلميوس بيت النية على تنفيذ فكرته ، فقام بالاتفاق مع الضابط الذي أسندت إليه مهمة قيادة جنازة الإسكندر ، وتنفيذاً لهذا الاتفاق قام هذا الضابط بتغيير خط سير الجنازة ، فأنجبه بها إلى جنوب سوريا حيث سلم الجثمان إلى رجال بطلميوس . وتم دفن الجثمان في منف في البداية ثم نقل إلى الإسكندرية بعد ذلك . وكان بطلميوس يرمى من وراء هذه الخطوة إلى جعل مصر عاصمة للإمبراطورية المقدونية ، لأنها الولاية التي تحوى قبر مؤسس هذه الإمبراطورية . الذي ارتفع في نظر الإغريق إلى مرتبة التقديس (١) .

أكدت هذه الخطوة شكوك برديكاس تجاه بطلميوس ، فقرر أن يضع حداً لطموح هذا الوالى ، وفي ربيع عام ٣٢١ ق.م. سار على رأس قواته قاصداً مصر . إلا أنه فشل في عبور القصر البلوؤى لنهر النيل (٢) ، وكان مكروهاً من جنوده ، فشاروا عليه وقتلوه . وبعد مقتل برديكاس اجتمع القادة المقدونيون في تريباراديسوس Triparadisos لإعادة تنظيم الإمبراطورية المقدونية (٣) . وعققت الاتفاق الذى وقع عليه القادة ، تم تعيين أنتيباتروس خلفاً لبرديكاس ، في منصب الوصاية على العرش المقدونى ، على أن يتخذ من مقدونيا مقراً له ، فأنجبه إلى مقاره مصطعباً فيليب أرهيدايرس والإسكندر الرابع ، واستمر أنتيجونس والياً على فريجيا (في آسيا الصغرى) ، وكذلك الحال بالنسبة للوسيمachus الذى ظل في منصبه ،

(١) يمكننا أن نتفهم أهمية هذه الخطوة التي أقدم عليها بطلميوس إذا ما عرفنا أن يوسينس استولى على خيمة الإسكندر ، واحتفظ بها كتمويلية لجلب له الحظ ، وادعى أن روح الإسكندر ما تزال كامنة في هذه الخيمة ، انظر : آيديرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ترجمة عبد اللطيف أحمد على . بيروت ١٩٨٨ ، ص ٤٧ - ٤٣ .

(2) Bowman. A.K; Egypt after the Pharaohs. London. 1986. P. 22 .

(3) Preaux. C; op. cit. p. 130 , Errington. R.M, From Babylon to Triparadeisos 323 - 320 B.C. J.H.S. 90. 1970. pp. 49-77

والتي على تراقيا ، كما تم الاعتراف بمكانة بطلميوس في مصر وبقوة (قوريني) . أما سلوقس الضابط الذي أقدم على قتل برديكاس فقد منع ولاية بابل .

عقب وفاة أنتيباتروس في عام ٣١٩ ق.م. تقفروا إسماع مناصب الوصاية على العرش إلى قائد آخر من رجال الإسكندر . ويدعى بوليبرخون Polyperchon . مما أثار حفيظة كاستندروس Casandros ابن أنتيباتروس ، الذي كان يرى أنه الأحق بهذا المنصب ، فراح يشير القتل في وجه الوصي الجديد ، وتكن من الحصول على تعاطف كل من أنتيجونوس و بطلميوس . وكان هذا الأخير بطمع في الاستيلاء على الجزء الجنوبي من سوريا ، وهو الإقليم الذي يعرف باسم جوف سوريا Coel Syria ، ويشمل فلسطين وجنوب سوريا وفينيقييا^(١) . نظراً للأهمية التي يمثلها هذا الإقليم ، من الناحية الاستراتيجية لمصر . فضلاً عما يحتويه من موارد خام ، كانت ضرورية لتحقيق رغبة بطلميوس في بناء أسطول بحري ، يمكنه من جعل مصر تلعب دوراً فعالاً في منطقة بحر إيجه . كما كان هذا الإقليم يتحكم في طرق التجارة التي تأتي من الشرق ، وتصب في البحر المتوسط .

أخذ بطلميوس بخطط للاستيلاء على إقليم جوف سوريا ، وانتهاز فرصة وفاة أنتيباتروس (الوصي على الإمبراطورية) ، والاضطرابات التي أعقبت هذه الوفاة ، وقام بالانقضاض على هذا الإقليم ، وضمه إلى مصر ، ومن ناحية أخرى فإن أنتيجونوس كان يسعى إلى فرض هيمنته على سائر أنحاء آسيا الصغرى ، لذا سارع بإرسال قوات لمساعدة كاستندروس ابن أنتيباتروس ، في صراعه مع بوليبرخون ، الذي خلف أنتيباتروس في منصب الوصاية .

لم تكن عائلة الإسكندر بمنأى عن هذه الصراعات ، فقد انحاز فيليب أرهيداوس وزوجته الطموحة يورديكى Eurydike ، إلى كاستندروس بسبب كراهيتهم لإوليمبياس أم الإسكندر ، التي كانت تؤيد بوليبرخون ، مما دفعها إلى التآمر عليهما ، وقتلهما في عام ٣١٧ ق.م. أما روكسانا وابنها الإسكندر الرابع فقد أصبحا في قبضة كاستندروس ، الذي لجح في السيطرة على مقدونيا بعد فرار بوليبرخون^(٢) . وفي الشرق تمكن أنتيجونوس من اجتياح آسيا الصغرى ، وأخذ يحلم بإحياء إمبراطورية الإسكندر ، واتجه إلى بابل حيث كان سلوقس يشغل

(١) مصطفى المبادئ : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(2) Jouguet. P; op. cit. p. 142 .

منصب الوالى ، وأخذ يعامله كما لو كان أحد أتباعه ، وأطلق على نفسه لقب ملك آسيا . فاضطر سلوقس إلى الهرب إلى بطلميوس فى مصر ، لكى يطلب مساعدته فى استعادة مكانته فى بابل (١) ، وقد أبدى بطلميوس استعداداً طيباً لمساعدة سلوقس ، وعينه قائداً لأسطول مصر فى البحر المتوسط ، مما أدى إلى إثارة غضب أنتيجونس ، فقام بالهجوم على إقليم جوف سوريا فى عام ٣١٥ ق.م. واضطر بطلميوس إلى الانسحاب من هذا الإقليم .

واصل أنتيجونس زحفه على ساحل سوريا ، فوصل حتى مدينة غزة ، وفى تلك الأثناء استولى بطلميوس على جزيرة قبرص ، لكى يتخذ منها قاعدة قوته من الهجوم على قوات أنتيجونس فى سوريا . وقد أثار سلوك أنتيجونس وطموحاته المخاوف لدى باقى القادة ، لذلك فقد سعوا إلى إقامة حلف ضم كل من بطلميوس ولوسسيماخوس وكاسندروس ووجهوا إنذاراً إلى أنتيجونس مطالبين إياه بالتنازل عن الأراضى التى استولى عليها مؤخراً ، وإعادة سلوقس إلى مقر ولايته فى بابل ، والانسحاب من جوف سوريا ، والاعتراف بسلطة كاسندروس فى بلاد اليونان ومقدونيا ، ولكن أنتيجونس رفض هذا الإنذار ، وأخذ يعمل على تحريض المدن اليونانية ضد كاسندروس ، وأعلن أنه يسعى إلى منح هذه المدن حريتها واستقلالها .

وفى عام ٣١٢ ق.م. توجه بطلميوس على رأس قواته لاستعادة إقليم جوف سوريا ، الذى كان يتولى إدارته ديمتريوس Demetrios ابن أنتيجونس . ولجئ بطلميوس فى مهمته ، ولحق الهزيمة بديمتريوس (٢) ، ولعب سلوقس دوراً بارزاً فى تحقيق هذا الانتصار ، فكافأه بطلميوس بأن زوده بقوة لكى يتمكن من استعادة مركزه فى بابل . ولكن فى عام ٣١١ ق.م. هاد ديمتريوس لكى يثار لهزمته ، ولحق به أبوه ، مما اضطر بطلميوس إلى الانسحاب مرة أخرى . وفى هذا العام أيضاً شق أوفيلاس Ophellias حاكم قرينى عصا الطاعة ، وأعلن استقلاله بهذا الإقليم .

وعندما ضاق القادة ذرعاً بهذه الحروب المتوالية ، قرروا أن يضعوا حداً لها ، وجدوا أنه من الأفضل الإذعان لمطالب أنتيجونس وولده ديمتريوس . وفى المقابل وافق أنتيجونس على بقاء كاسندروس حاكماً على مقدونيا ، ولوسسيماخوس حاكماً على تراقيا ، وأن يظل بطلميوس

(1) Jouguet,P; op. cit. p. 147

(2) Jouguet,P; op. cit. p. 149 .

حاكمًا على مصر ، بشرط تخليه عن جوف سوريا ، وساحل قينيقيا . واضطر بطلميوس إلى الرضوخ لهذا الاتفاق على مضض . وما يستلفت النظر أن هؤلاء القادة ، وقموا اتفاقهم باسم الملك الطفل الإسكندر الرابع ، الذي نص الاتفاق أيضًا ، على أن يتولى عرش مقدونيا ، بعد أن يبلغ سن الرشد . غير أن كاسندروس بادر بقتل هذا الطفل قبل مضي عام من توقيع الاتفاق ، خوفاً من أن يضطر إلى التنازل عن سلطاته للإسكندر الرابع^(١) . وكان قد سبق له تسليم أولمبياس أم الإسكندر إلى أعدائها الذين قاموا بالإجهاز عليها .

أخذ بطلميوس يعمل على بناء قوته البحرية ، وتدعيم مكانته ، فقام في عام ٣٠٩ ق.م. بالاستيلاء على منطقة ليكيا Lycia . في آسيا الصغرى ، وجزيرة كوس Cos في بحر إيجه ، وفي العام التالي قام بالاستيلاء على مجموعة جزر الكيكلاديس Cyclades ، التي تتمتع بموقع مهم في مدخل بحر إيجه ، وذلك تحت دعوى تحريرها من أنتيجونس ، وراح يتدخل في شئون بلاد اليونان ، ويات تدخله في هذه المنطقة يشكل تهديداً لنفوذ كاسندروس . وفي هذا العام نجح ماجاس Magas ابن زوجة بطلميوس في استعادة قوريني ، وعينه بطلميوس نائباً له في هذه الولاية .

ولكن في عام ٣٠٦ ق.م. تلقى بطلميوس طعنة قاسية ، بالقرب من قبرص ، على يد ديمتريوس الذي تمكن من إلحاق هزيمة ثقيلة ببطلميوس . وما هو جدير بالذكر أن خلفاء الإسكندر بعد هذه الواقعة اتحدوا لأنفسهم لقب ملك ، وكان البادى بالإقدام على هذه الخطوة هو أنتيجونس ، ولم يلبث بطلميوس أن حذا حذوه^(٢) . وتبعه الآخرون .

ولم يكتف أنتيجونس بهذا الانتصار العسكري الذي أحرزه على بطلميوس ، بل أخذ يسعى إلى شن حرب اقتصادية ضده ، فطلب من جزيرة رودس أن تقطع علاقاتها الاقتصادية مع الإسكندرية ، إلا أن رودس التي كانت تعتبر مصر من أقوى عملائها التجاريين^(٣) ، رفضت هذا الطلب ، فسارع بإرسال ابنه ديمتريوس لحصارها ، وتمكنت الجزيرة من الصمود أمام

(١) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(2) Walbank. op. cit. p 55.

(3) Rostovtzeff, M.; The Social and Economic History of the Hellenistic World. Oxford, 1941, p. 15 .

الحصار بفضل مساعدة بطلميوس لها ، واعترافاً منها بهذا الفضل ، قررت رودس رفع بطلميوس إلى مصاف الآلهة . وأطلقت عليه لقب الإله المتخذ Soter في عام ٣٠٥ ق.م. وهو اللقب الذي عرف به بطلميوس فيما بعد^(١) .

وفي عام ٣٠٣ ق.م. عاد القادة من جديد إلى إقامة تحالف ضد أنتيجونوس ، واستغل بطلميوس إشغال القادة في ترتيب حساباتهم ، فزحف بقواته بهدف استعادة جوف سوريا ، ولكن سرعان ما سرت شائعة مؤداها أن أنتيجونوس نجح في سحق أعدائه ، وأنه في طريقه إلى سوريا ، فأسرع بطلميوس بالانسحاب من جوف سوريا . ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك تماماً ، فقد نجح الحلفاء في إلحاق هزيمة منكرة بأنتيجونوس في موقعه إيسوس Ipsos في عام ٣٠١ ق.م. وكانت آسيا الصغرى هي المسرح الذي شهد أحداث هذه المعركة . وفي هذه الموقعة خسر أنتيجونوس صريحا ، وفر ابنه ديمتريوس^(٢) .

وهكذا وضعت معركة إيسوس نهاية لآخر محاولة لإحياء إمبراطورية الإسكندر . وجلس القادة المنتصرون لإعادة تقسيم الإمبراطورية ، فقرروا تثبيت مكانة كاسندروس في مقدونيا وبلاد اليونان ، وأصبحت آسيا الصغرى من نصيب لوسيماخوس ، وسوريا وبابل من نصيب سلوقس ، أما بطلميوس فقد قرروا الاعتراف بملكائه في مصر فقط ، على أن يتم انتزاع جوف سوريا منه ، وضمها إلى ممتلكات سلوقس عقاباً له على مرقفه المتخاذل إبان حربه مع أنتيجونوس ، لأنه لم يبادر بتقديم المساعدة لهم ، بل استغل إنهماكهم في الحرب لتحقيق مكاسب شخصية . وقد رفض بطلميوس هذا القرار ، وتمسك بسيادته على جوف سوريا ، وهو الأمر الذي سيفض إلى قيام نزاعات طويلة الأمد بين دولة البطالمة في مصر ، والدولة السلوقية في سوريا وبابل ، ولم يشأ سلوقس أن يدخل في نزاع مع بطلميوس لأنه كان ما يزال يشعر بالعرفان تجاهه ، نظراً للمساعدة التي قدمها له لاستعادة مركزه في بابل .

وعلى الرغم من فرار ديمتريوس بعد هزيمة إيسوس ، إلا أنه أثر ألا يستبعد عن مسرح الأحداث ، وعندما توفي كاسندروس ، نجح ديمتريوس في الاستيلاء على عرشه في مقدونيا ، بما أثار حنق القادة الآخرين، فسارع لوسيماخوس باقتحام مقدونيا في عام ٢٨٨ - ٢٨٥ ق.م.

(1) Prieux.C; op. cit. p. 133 .

(2) Jouguet.P; op. cit. p. 158 .

وفي نفس الوقت تمكن سلوقس من إلقاء القبض على ديمتريوس في عام ٢٨٥ ق.م. ، وبقي في الأسر حتى مات في عام ٢٨٣ ق.م. ثم تلى ذلك قيام صراع بين لوسيياخوس وسلوقس ، وقد حسم سلوقس الموقف لصالحه .

أخذ سلوقس يحلم بارتقاء عرش مقدونيا ، موطنه الأصلي ، غير أن الأيام حملت له مفاجأة لم تكن في الحسبان . وكان بطلميوس هو مصدر هذه المفاجأة ، فقد قام بطلميوس باستبعاد ابنه الأكبر بطلميوس الصاعقة Keraunos ، من وراثة العرش ، ووقع اختياره على الابن الثاني ، لكي يكون ولي عهده ، ويادر بإشراكه معه في الحكم ، وقد انفرد هذا الابن بالعرش في عام ٢٨٤ - ٢٨٣ ق.م. بعد وفاة أبيه . وقد استشاط بطلميوس الصاعقة غضباً ، وفر إلى بلاد اليونان في البداية ، ثم لجأ إلى سلوقس لكي يساعده^(١) .

أبدى سلوقس استعداداً طيباً لمعاونة بطلميوس الصاعقة ، وتمكن من الانتصار على لوسيياخوس ، وأخذ يستعد لإعلان نفسه ملكاً على مقدونيا ، إلا أن بطلميوس الصاعقة تنكر له ، ودبر مؤامرة أودت بحياته ، وراح يتطلع إلى تولي عرش مقدونيا^(٢) . وقبل الجنود هذا الأمر ونادوا ببطلميوس الصاعقة ملكاً على مقدونيا ، بينما خلف سلوقس على العرش ابنه أنطيوخوس الأول .

لم يهنأ بطلميوس الصاعقة على عرش مقدونيا ، لفترة طويلة ، إذ تعرضت حدود المملكة إلى هجوم القبائل الكلتية ، وفقد حياته وهو يدافع عن حدود مملكته الشمالية . واضطرت أحوال العرش المقدوني لبعض الوقت ، حتى لاح في الأفق أنتيجونس ابن ديمتريوس ، ومجالف مع أنطيوخوس الملك السلوقي ، وتمكن الاثنان من هزيمة القبائل الكلتية في آسيا الصغرى ، ثم اتجه أنتيجونس بعد ذلك إلى مقدونيا وأعلن نفسه ملكاً في عام ٢٧٧ ق.م.

وهكذا أسفرت الحروب الكثيرة ، التي شهدتها عالم ما بعد الإسكندر ، عن ظهور ثلاث ممالك كبيرة على رأس كل منها ملك قوي . ففي الدولة السلوقية في بابل وسوريا كان على العرش الملك أنطيوخوس الأول ، وفي مقدونيا أنتيجونس الثاني الذي عرف باسم جوناتاس Gonatas . وفي مصر كان يجلس على العرش بطلميوس الثاني فيلادلفوس^(٣) .

(١) إبراهيم نصفي : المرجع السابق ج ١ ، ص ٩٧ .

(2) Preaux, C; op. cit. p. 136 .

(3) Preaux, C; op. cit. p. 136 .

بطلميوس الثانى فيلادلفوس ٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م. :

هو ابن بطلميوس الأول من زوجته الثالثة . وتجدد الإشارة إلى أن بطلميوس الأول كان تزوج فى المرة الأولى ، من سيدة فارسية ، نزولاً عن رغبة الإسكندر ، ثم طلقها وتزوج بورديكى Eurydike ، ابنة القائد لوسيماخوس ، التى ألحج منها ابنة بطلميوس الصاعدة أما الزوجة الثالثة فهى برنيكى Berenike ، التى أحبها وترك من أجلها زوجته السابقة وهى التى ألحجبت له ولداً وابنة^(١) . وقد أشرك معه الابن فى العرش ، كما سلك القول ، أ. الابنة فهى أرسينوى الثانية .

تولى بطلميوس الثانى العرش بعد وفاة أبيه ، وكان فى الخامسة والعشرين ، ولم يك بطلميوس جندياً كما كان الحال بالنسبة لوالده ، بل نشأ محباً للترف والحياة الناعمة ، وك يحب العلم والثقافة إلى حد كبير ، وقد تزوج من أرسينوى الأولى Arsinoe ، ابنة القائد أنتيباتروس ، وألحج منها ولدين وابنة واحدة . والابن الأكبر هو سيجلس على العرش بعد أبيه، أى بطلميوس الثالث . أما أرسينوى شقيقه بطلميوس الثانى فإنها كانت قد تزوجت القائد لوسيماخوس ، وبعد وفاة زوجها ، تزوجت من أخيهما غير الشقيق ، بطلميوس الصاعدة، بعد أن صار ملكاً على مقدونيا ، إلا أنه غرر بها ، وقام بقتل أبنائها لوسيماخوس . فسارعت بالفرار إلى الإسكندرية ، لكنى تحتمى بشقيقها بطلميوس الثانى ملك مصر الذى استقبلها هو وزوجته أرسينوى الأولى . إلا أنها أخذت تعمل على الإيقاع بـ شقيقها وزوجته ، ولحجت مساعيها ، فقام بطلميوس بنفى زوجته إلى مدينة قفط optos فى صعيد مصر^(٢) . وعلى الرغم من أن شقيقته أرسينوى الثانية كانت أكبر منه سناً ، إلا أنه تزوجها ، وعرفا معا باسم الإلهين الآخرين Adelphoi ، وعلى الرغم من أن زواج الأخوة كان أمراً مكروهاً لدى الإغريق ، فإن بطلميوس برر إقدامه على هذه الخطوة ، بأنه باعتباره حاكماً لمصر ، فإنه يسير على نهج الفراعنة ، الذين درجوا على الزواج من شقيقاتهم .

وبعد وفاة أرسينوى الثانية ، تقرر رفعها إلى مصاف الآلهة ، وإقامة عبادة خاصة بها باسم الربة المحبة لأخيها " فيلادلفوس " Philadelphos ، وهو ذات اللقب الذى عرف به

1) Walter M. Ellis, op. cit. p

2) C.A.H. VII. p. 703 .

بطلميوس الثاني فيما بعد ، كما هو لو كان مقدراً لهذا الرجل أن يظل أسيراً لشقيقته حتى بعد وفاتها ، وإمعاناً في تكريم أرسينوى أطلق اسمها على إقليم الفيوم (١) .

وقد احتفل بطلميوس بجلوسه على العرش في مهرجان ضخم ، حضرته وفود من كافة أرجاء العالم الهلينيستى . وبعد عهد بطلميوس فيلادلفوس بحق أزهى فترات تاريخ مصر في مصر البطالمة . ويعزى إلى هذا الملك غالبية النظم الإدارية ، التي سارت عليها مصر في العهود التالية (٢) . كما بلغت مدينة الإسكندرية أوج عظمتها ، فقام فنار الإسكندرية الشهير شامخاً ، على جزيرة بالقرب من جزيرة فاروس ، وازدهرت دار العلم Mousion ، التي حرص بطلميوس فيلادلفوس على أن يجلب لها العلماء والفلاسفة من كافة أرجاء العالم ، كما حظيت مكتبة الإسكندرية العظيمة باهتمام بالغ ، وجرى تزويدها بالكتب من كافة أرجاء المعمورة ، ولم يكتب علماء الإسكندرية بتجميع الكتب فحسب ؛ بل نشطت حركة ترجمة الكتب غير اليونانية ، ومن أشهر ما تم ترجمته في عهد فيلادلفوس ، التوراة ، وهي الترجمة المعروفة باسم الترجمة السبعينية Septuagint ، ويقال أن السبب في هذه التسمية هو قيام حوالي سبعين من رجال الدين اليهود بترجمتها (٣) . وإلى جانب ذلك فقد حرص الملك على إقامة حديقة للحيوان ، وضع فيها كل ما هو غريب من الطيور والحيوانات ، وهي أمور تعكس كلها حب فيلادلفوس للعلم ، وعلى وجه الخصوص علم الجغرافيا والتاريخ الطبيعي .

وإذا ما عدنا إلى إلقاء نظرة على الأحوال السياسية ، في العالم الهلينيستى ، فإننا نجد تعارضاً واضحاً في أهداف الدول الكبرى الثلاث . وكانت مملكة البطالمة في مصر ، هي أقوى تلك الدول ، تليها مملكة السلوقيين التي شملت بلاد ما بين النهرين ، ولايات الشرق البعيدة ، وسوريا فيما عدا إقليم جوف سوريا ، ثم تأتي بعد ذلك دولة مقدونيا ، التي كانت تبسط سيطرتها على بلاد اليونان بالإضافة إلى مقدونيا ذاتها .

(١) ظل اسم أرسينوى يطلق على إقليم الفيوم خلال العصر الرومانى والبيزنطى ، أيضاً C.A.H. VII. p. 703 .

(2) Grant. *loc. cit.* p. 40 .

(٣) انظر : مصطفى العبادى . المرجع السابق ص ١٦٢ .

وإذا ما عدنا بالذاكرة قليلاً فإننا نجد أن الهدف الأول الذى وضعه بطلميوس الأول ، مؤسس الدولة ، نصب عينيه ، هو المحافظة على استقلال مصر ، وأن تكون قادرة على أن تلعب الدور الأول فى سياسات العالم الهلينيستى . وكان السبيل إلى تحقيق هذا الهدف يكمن فى السيطرة على بحر إيجه . باعتباره مركز الثقل السياسى والحضارى ، فى العالم آنذاك ، وفى هذا الإطار حرص بطلميوس الأول على السيطرة على جزر الكيكلاديس فى مدخل بحر إيجه . وسارع بتقديم المساعدة إلى جزيرة رودس ، واستمراراً لهذه السياسة حرص فيلادلفوس على تدعيم مكانة مصر فى جزر بحر إيجه . غير أن ذلك لم يكن كافياً ، لذا فقد سعى إلى الاستيلاء على بعض الشواطئ الجنوبية والغربية لآسيا الصغرى ، كما أخذ يعمل على تقوية وجود مصر فى المراكز التجارية الهامة ، التى تقع شمال بحر إيجه ، وعمل على حرمان مملكة مقدونيا من السيطرة على مرأى بحر إيجه ، حتى يحد من سيطرتها على تجارة هذا البحر . وأدت هذه السياسة إلى إغضاب دولة مقدونيا . أما الدولة السلوقية ، فإنها كانت تضرر الكراهية لمصر ، منذ أن قام بطلميوس الأول بالاستيلاء على إقليم جوف سوريا ، وهو الإقليم الذى ظل السلوقيون ينظرون إليه على الدوام باعتباره من أملاكهم الخاصة .

وفى إطار حرص بطلميوس الثانى على التدخل فى بلاد اليونان ، وربما كان ذلك أيضاً بتأثير من شقيقته وزوجته أرسينوى ، التى راحت تدس أنفها فى السياسة الخارجية للدولة ، فإنه راح يشجع المذن الإغريقية على الثورة ضد الوجود المقدونى . فقد كانت مصر ترى على الدوام أن وجود دولة قوية فى مقدونيا يشكل تهديداً لمكانتها فى بحر إيجه ، لذلك كان هدف السياسة البطلمية دائماً ، هو خلق المشاكل لمقدونيا فى بلاد اليونان (١) .

قامت مصر بعقد تحالف مع مدينتى أثينا وأسبرطة ، وقد استجابت هاتان الدولتان لتحريض مصر ، وبدأتا فى التمرد على مقدونيا فى عام ٢٦٦ ق.م. وكان الإغريق يعولون كثيراً على مساعدة الأسطول المصرى . إلا أن مصر خذلتهم ، وتمكن أنتيجونس جوناتاس ، ملك مقدونيا ، من سحق هذا التمرد ، واستسلمت أثينا فى عام ٢٦١ ق.م. ، وخسر ملك أسبرطة صريعاً فى ميدان القتال ، وتمكنت مقدونيا من استعادة مكانتها فى بلاد اليونان ، مما شكل فشلاً ذريعاً للسياسة البطلمية .

(1) C.A.H. VII, p. 699 .

وفيما يتصل بعلاقة مصر بالدولة السلوقية ، فقد ظلت هذه العلاقة متوترة بسبب إقليم جوف سوريا . وقد ادعى البطالمة على الدوام أن سلوقس الأول اعترف بسيادة مصر ، على فينيقيا وجنوب سوريا ، اعترافاً منه بفضلها عليه ، من خلال موقفها إبان الحرب بينه وبين لوسيماخوس^(١) . وقد رفضت الدولة السلوقية هذا التبرير ، واستمر التوتر في العلاقة بين الطرفين ، وأدى ذلك إلى قيام الحرب بين الدولتين في عام ٢٧٦ ق.م. ، وهي التي عرفت بالحرب السورية الأولى ، والتي لا نعرف عن أحداثها إلا التدرج البسيط ، فقد ذكرت المصادر أن القوات البطلمية احتلت مدينة دمشق . إلا أن الملك السلوقي تمكن من استخلاص دمشق ، ورد القوات البطلمية على أعقابها . ولكن مصر ظلت على الرغم من ذلك تحتفظ بسيطرتها على جنوب سوريا وفلسطين وساحل فينيقيا^(٢) .

وفي عام ٢٦٢ ق.م. توفي أنطيوخس الأول ، وخلفه على العرش ابنه أنطيوخس الثاني ، الذي قرر الانتقام من فيلادلفوس لقيامه بمساعدة دولة برجامه (في آسيا الصغرى) في حربها ضد والده ، فشن حرباً ضد مصر وهي المعروفة بالحرب السورية الثانية^(٣) . وكانت آسيا الصغرى هي مسرح هذه الحرب ، ولم تكن الظروف في صالح مصر ، فقد تحالف جوناتاس ملك مقدونيا ، مع أنطيوخس ، ولحقت بالأسطول المصري هزيمة منكرة عند جزيرة كوس ، في عام ٢٥٨ أو ٢٥٦ ق.م. ولجئ الملك السلوقي في طرد القوات البطلمية من آسيا الصغرى فيما عدا إقليم كاريا ، كما فقدت مصر ممتلكاتها في جزر الكيكلاديس فيما عدا جزيرة ثيرا Thyra .

أدرك فيلادلفوس أن التحالف بين أنطيوخس الثاني وجوناتاس ، هو الذي جر عليه كل هذه النكبات ، فسعى إلى ضرب هذا التحالف عن طريق استمالة أنطيوخس إلى جانبه ، فقام بتوقيع معاهدة معه ، وتزوج أنطيوخس من ابنة فيلادلفوس الأميرة برنيكي ، وأبعد زوجته وأم أبنائه التي تدعى لاوديكي Laodike ، ويبدو أن برنيكي حملت معها مهراً ضخماً إلى زوجها ، لذا أطلق عليها لقب " حاملة المهر " Phernephoros . ومن الجدير بالذكر أنه طبقاً

(1) C.A.H. VII. p. 700 .

(٢) انظر : إبراهيم نصفي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١١ .

(3) Preaux. C; op. cit. p. 141 .

للتقاليد الإغريقية ، فإن العروس هي التي تدفع المهر إلى زوجها (١) ، وربما كان الهدف الذي يرمى إليه فيلادلفوس ، هو ربط الدولة السلوقية بمصر . من خلال هذا الزواج ، الذي قد يسفر عن مولد وريث للعرش السلوقي .

وعلى الحدود الغربية قام ماجاس . الأخ غير الشقيق لفيلادلفوس ، الذي كان نائباً لبطلميوس الأول في ولاية قوريني ، بإعلان استقلاله بهذه الولاية فور تولي فيلادلفوس العرش (٢) . ولكن بعد وفاة ماجاس في عام ٢٥٩ ق.م. تزوجت ابنته من ابن فيلادلفوس ، الذي سيصبح ملكاً على مصر بعد والده ، فعادت قوريني إلى مصر مرة أخرى .

فيلادلفوس وبلاد العرب :

أشرنا من قبل إلى اهتمام الإسكندر الأكبر ببلاد العرب (٣) ، ورغبته في فتح هذه البلاد ، وقد وُثِّق البطالة هذا الاهتمام ، فقام بطليميوس الأول بإرسال حملة بقيادة ضابط يدعى فيلون Philon ، وقد وصلت هذه الحملة حتى مروى في أفريقيا ، وجزيرة في البحر الأحمر تسمى توبازوس . Topazos (٤) .

وفي عهد بطليميوس فيلادلفوس ، تواصلت الحملات الكشفية ، وكانت إحداها بقيادة شخص يدعى أريستون Ariston ، وكان هدف هذه الحملة استكشاف شواطئ بلاد العرب (٥) . وقام فيلادلفوس بإنشاء مستعمرة في بلاد العرب تدعى أمبيلوني Ampelone ، كما أعد أحد الملاحين في عهد هذا الملك كتاباً عن موانئ البحرين الأحمر والمتوسط .

وقد تحدث أريستون عن سكان بلاد العرب ، وذكر أن أهم القبائل هي قبيلة تمود ، التي كانت تسكن في منطقة الحجاز الحالية تقريباً . بالإضافة إلى قبائل أخرى كانت تسكن إلى

(١) ظلت هذه الأميرة البطلمية لا تشرب إلا من مياه النيل لذلك كانت ترسل إليها هذه المياه بشكل

مستمر : . Bowman.op.cit., p. 179

(2) C.A.H. VII. p. 704 .

(٣) انظر : أهرام مصر لفرح . حملات الإسكندر الأكبر وتطوير المعلومات الجغرافية عند الإغريق - حريات

كلية الآداب ، جامعة عين شمس العدد ٢٧ ج ١٩٩٩ ، ص ٥٣ - ٥٥ .

(4) Fraser. P.M, op. cit. p. 176 .

(5) Tam.W W, Ptolemy II and Arabia.J.E.A. vol.14 1928. p. 251 .

الجنوب منها . كما تحدث عن ممالك اليمن^(١) . وقد تأثر الأنباط بالنشاط البحري للبطلمية ، في البحر الأحمر ، فأخذوا في ممارسة القرصنة ضد السفن المصرية ، مما جعل فيلادلفوس يقرر القيام بحملات لردعهم ، وتأمين تجارة مصر الشرقية ، فقام بحملة ضد الأنباط في عام ٢٧٨ ق.م. وأعقبها بحملة أخرى في عام ٢٧٧ ق.م. مما جعل الأنباط يحملون الكراهية لدولة البطلمية حتى آخر أيامها .

ومما هو جدير بالذكر أن أهداف فيلادلفوس تجاه الجزيرة العربية ، كانت أهدافاً تجارية محضة ، فقد أراد أن يحكم سيطرة مصر على طرق التجارة الشرقية . وكان الأنباط منذ أيام الإمبراطورية الفارسية ، يتحكمون في هذه التجارة عن طريق اتصالهم المباشر ما بين الممالك العربية في الجنوب ، ومدن ساحل فينيقيا ، ولكن منذ أن تمكن البطلمية من الاستيلاء على فينيقيا ، فقد الأنباط تلك الميزة التي يستعملون بها . وقد أراد فيلادلفوس من نشاطه في بلاد العرب أن يتم تبادل السلع الشرقية مباشرة مع السبئيين ، دون الحاجة إلى وساطة الأنباط .

وقد ازدادت علاقة مصر بالجزيرة العربية توثقاً ، بعد حملات فيلادلفوس وأخذ التجار العرب يمارسون أعمالهم في مصر ، وبلغ بعض العرب المقيمين في مصر درجة عالية من الثراء ، وهو ما يدل عليه تابوت عشر عليه في الفيوم لرجل معينى يدعى " زيدأيل " . من المرجح أن تاريخه يرجع إلى عهد بطلمبوس فيلادلفوس^(٢) .

وإذا أردنا أن نقيم سياسة بطلمبوس فيلادلفوس الخارجية ، فإنه يمكننا القول بأن سار على خطى والده ، فعمل على تدعيم مكانة مصر الخارجية ، وبخاصة في منطقة بحر إيجة . بل إنه قطع شوطاً أطول في علاقة مصر الخارجية ، عندما سعى إلى الاتصال بدولة ناشئة في غرب البحر المتوسط ، وهي الجمهورية الرومانية ، وأرسل إليها سفارة في عام ٢٧٣ ق.م.^(٤) ،

(١) انظر : مليحة الزهراني : المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١٤ .

(2) Rostovtzeff, M, op. cit. p. 387 .

انظر أيضاً : نورة النعيم الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي ص ٥٦ .

(٣) سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ١٥٦

(4) Bowman, A.K, op. cit. p. 32

وحافظ على صلاته الطيبة بهذه الدولة ، حيثما أثر ألا يتورط في الحرب التي شنتها ضدها دولة قرطاجة . وهي الحروب التي تعرف باسم الحروب اليونية . كما عمل على تنشيط تجارة مصر الشرقية ، وكسر احتكار الأتباط لهذه التجارة . واهتم بإرسال الحملات إلى أثيوبيا ، ربما تحقيقاً لهوايته في اقتناء الحيوانات النادرة .

وفي عام ٢٤٧ ق.م. أشرك معه في الحكم ابنه الأكبر من أرسينوى الأولى ، وفي العام التالي ، توفي بطلميوس فيلادلفوس ، بعد حكم دام حوالي أربعين عاماً ، يعد بحق من أزهى سنوات تاريخ مصر في عصر البطالمة ^(١) .

بطلميوس الثالث (يورجيتيس) ٢٤٦ - ٢٢١ ق . م :

خلف بطلميوس الثالث والده ، على عرش مصر في يناير ٢٤٦ ق.م. ، ويبدو أنه كان يتمتع بصفات حميدة ، ربما كانت السبب وراء إطلاق لقب يورجيتيس Euergetes عليه ، وهو لقب يعنى الصالح أو الخير ، لأنه أمر بإسقاط الضرائب المفروضة على الأهالي تقديراً منه لظروف المجاعة التي مرت بها البلاد ^(٢) .

وكان بطلميوس الثالث مثل أبيه ميالاً للعلم والثقافة ، فكانت تربطه صداقة حميمة بالعالم والجغرافي الشهير إراتوستينس Eratosthenes . إلا أنه تميز عن والده بما كان يتمتع به من خلق رفيع ، فلم يكن له سوى زوجة واحدة هي الملكة برنيكي Bernike ، لم يتخذ لنفسه محظيات ، كما كان الحال مع أبيه .

وما أن تولى بطلميوس الثالث العرش ، حتى وجد نفسه مضطراً إلى خوض غمار حرب شرسة ، وهي التي عرفت باسم الحرب السورية الثالثة ^(٣) ، وكانت هذه الحرب أمراً متوقعاً كنتيجة للمصاهرة التي تمت من قبل بين أنطيوخوس الثاني و بطلميوس فيلادلفوس ، وعندما مات أنطيوخوس الثاني في ظروف غامضة ، في إقيسوس (بآسيا الصغرى ، حيث كانت

(١) ظهرت هذه الفكرة بوضوح في أعمال شعراء الإسكندرية . فقال ثيوكريتوس أن فيلادلفوس هو أعظم الملوك وأغناهم . وأنه حكم ١٣.٣٣٣ مدينة أما كاليماخوس فقال أن فيلادلفوس حكم العالم من المشرق إلى المغرب . : C.A.H. VII. p. 704 - 705 .

(2) C.A.H. VII. p. 726

(3) Preaux. C, op. cit. 142 .

توجد زوجته الأولى لاوديكي (Laodike) ، أشارت أصابع الاتهام إلى هذه الزوجة ، وذكرت الشائعات أنها أقدمت على هذا العمل حتى تؤمن العرش لابنها ، بدلاً من ابن الزوجة الجديدة ، الأميرة البطلمية برنيكي . وسارعت بإعلان ابنها ملكاً على الدولة السلوقية ، تحت اسم سلوقس الثاني ، تيمناً باسم جده سلوقس الأول مؤسس الدولة (١) .

لم يكن أمام برنيكي سوى أن تطلب العون من شقيقها ، بطليموس الثالث ، ملك مصر ، فتقدم بطليموس على الفور طلباً نداء شقيقته ، واستطاع أن يجتاح سوريا السلوقية ، وأرسل إلى مصر تقارير عن انتصاراته ، وتمكن من دخول أنطاكية ، عاصمة الدولة السلوقية ، ثم عبر نهر الفرات إلى بلاد ما بين النهرين ، وتذكر بعض الروايات أن برنيكي وابنها قتلوا قبل وصول بطليموس الثالث . وأنه علم بهذا الخبر وأخفاه حتى يوجد لنفسه مبرراً للاستمرار في الحملة ، تحت إدعاء الرغبة في إقامة ابن شقيقته على العرش ، والحقيقة أنه بعد تلك الانتصارات التي أحرزها بطليموس ، كان بمقدوره القضاء على الدولة السلوقية قضاء مبرماً (٢) .

ولكن في نهاية عام ٢٤٥ ق.م. اضطر بطليموس يورجيتيس إلى العودة إلى مصر ، فقد جاءت الأنباء من مصر ، بأن فيضان النيل في هذا العام ، جاء منخفضاً ، مما سبب القحط والمجاعة (٣) ، وأدى إلى حدوث حالة من الاضطراب في البلاد . وقد انتهز سلوقس الثاني الفرصة ، وقام في عام ٢٤٦ ق.م. باستعادة كل ما استولى عليه بطليموس يورجيتيس ، ولكن بقيت في حوزة مصر سوريا الجنوبية ، وتشمل فلسطين وساحل قينيقيا . ولم يتمكن سلوقس الثاني من الاستمرار في الحرب ، بسبب الصراع الذي نشب بينه وبين شقيقه الأصغر الذي يدعى أنطيوخس هيراكس Hierax ، وهو الصراع الذي سمي بحرب الأخوين ، وانتهت الحرب السورية الثالثة . بتوقيع معاهدة بين مصر وسوريا في عام ٢٤١ ق.م. وبما هو جدير بالملاحظة أن بطليموس الثالث استخدم سلاح الدبلوماسية في توطيد مكانة مصر الخارجية ، فراح يعمل على إزكاء نار الخلافات الداخلية في الدولة السلوقية ، وبذلك أمن من تدخل هذه الدولة في مسألة جوف سوريا ، كما تمكن من تدعيم نفوذه في آسيا الصغرى ، وامتد هذا

(1) Jouguet. P. op. cit.p. 193 .

(2) Jouguet. P. op. cit.pp. 193-195

(٣) ورده ذكر لهذه المجاعة في قرأوا كاثوب ، انظر O.G.I.S. 56. 18 ff.

النفوذ إلى بلاد اليونان ، وراح يساند المدن الإغريقية في تطلعها إلى التخلص من نير الهيمنة المقدونية . ويمكن القول بأن هذا الملك تمكن عن طريق الدبلوماسية من تحقيق قدر أكبر من القوة لحصر ، مما مكنتها من الاحتفاظ بامتلاكاتها في قورينى وجنوب سوريا ، وبعض مناطق آسيا الصغرى ، وقبرص .

وعلى صعيد السياسة الداخلية ، نجح بطلميوس الثالث في إقامة علاقات طيبة مع الكهنة ، وحظى بحب المصريين عندما أعفى الأهالي من الضرائب المقررة عليهم . ولم يكتف بذلك ، بل سارع باستيراد كميات من الفلال ، لإنقاذ البلاد من المجاعة . واعتراقاً بهذا الفضل قام الكهنة في عام ٢٣٧ ق.م. بإصدار قرار عرف بقرار كانوب^(١) (نسبة إلى البلدة التى عقد فيها الاجتماع الذى صدر خلاله هذا القرار) ، قدموا فيه الشكر للملك لمظاهر العطف التى أسبغها على شعبه ، ومنحوه لقب " فاعل الخير " ، وهو فى الأصل من ألقاب الإله المحبوب أوزيريس . وترجم فى اللغة اليونانية إلى يورجيتيس Euergetes . وقد أولى بطلميوس الثالث اهتماماً كبيراً للديانة المصرية . فأقام صرحاً فى معبد الكرنك ، كما شرع فى بناء معبد فى مدينة إدفو ، وخصص هذا المعبد لعبادة الإله حورس الذى شبهه الإغريق بالههم أبولو Apollo .

وعلى الرغم من الأعمال المجيدة التى قام بها هذا الملك ، فإن النقد الذى يمكن أن يوجه إليه ، هو أنه أهمل الجيش والأسطول ، وذلك فى إطار ميله الواضح إلى انتهاج طريق العمل الدبلوماسى . وكان مطمئناً إلى أن أعداءه التقليديين ، أى مملكة مقدونيا ، ومملكة السلوقيين تعانيان من مشاكل داخلية . إلى أن جاء عام ٢٢٦ ق.م. حين ارتقى عرش الدولة السلوقية ، واحد من أقوى ملوك هذه الدولة ، وهو أنطيوخس الثالث . فأخذ يعمل على استعادة المناطق التى فقدتها دولته فى آسيا الصغرى . ونجح فى كبح جماح أتالوس Atalos ملك برجامة . مما دفع مصر إلى مهادنة مقدونيا ، وأدى إلى توثق العلاقة بين الدولتين . وفى عام ٢٢١ ق.م. توفى بطلميوس يورجيتيس وانتقل العرش إلى ابنه بطلميوس الرابع .

(١) انظر ترجمة هذا القرار : مصطفى المهادى : المرجع السابق . ص ٦٩ .

بطلميوس الرابع فيلوباتور ٢٢١ - ٢٠٥ ق.م :

يعتبر عهد بطلميوس الرابع بداية لمرحلة من التدهور ، فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، فقد تولى هذا الملك العرش ، وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وأراد أن يتقرب من رعاياه ، فاتخذ لنفسه لقب " المحب لأبيه " فيلوباتور Philopator ، لمعرفته بمدى حب الناس لوالده . إلا أن هذا الابن كان على النقيض من والده ، فقد كان مستهتراً . أغرق نفسه فى حياة اللهو والمجون ^(١) ، وتحمس لعبادة الإله ديونيسيوس Dionysos إله الخمر عند الإغريق ، وحاول أن يفرض هذه العبادة على كافة رعاياه ، مما أدى إلى صداه باليهود الذين رفضوا الانصياع إلى رغبتهم . وعرف عن هذا الملك أيضاً شدة اهتمامه بالأدب والفلسفة ، ويقال أنه كتب قصيدة من الشعر . وسار فيلوباتور على نهج جده فيلادلفوس ، فتزوج من شقيقته أرسينوى الثالثة .

وقد وقع بطلميوس فيلوباتور تحت تأثير مجموعة فاسدة من رجال البلاط ، من أمثال أجاثوكليس Agathocles وسوسيبيوس Sosibios ، وقام هذا الأخير بتحريض الملك ضد أفراد عائلته ، فقتل والدته برتيكى ، ثم أقدم على قتل عمه وأخيه ، وعدد آخر من أصدقائه ، حتى يخلو الجو لهذا الرجل فيحكم السيطرة على الملك ، ويدير دفة البلاد دون تدخل من أحد.

وبينما كان يجلس على عرش مصر هذا الملك الضعيف ، كان على عرش الدولة السلوقية أقوى ملوكها ، وهو أنطيوخس الثالث . وفى مقدونيا أيضاً كان يتربع على العرش فيليب Philippe الخامس ، الذى لم يكن يقل قوة وطموحاً عن مثيله فى سوريا . وقام هذان الملكان بمقد تحالف ضد الدولة البطلمية ، هدفه اقتسام ممتلكات هذه الدولة . وفى ذلك الوقت كانت روما ، الدولة الناهضة فى الغرب ، سائرال مشتبكة فى الحروب البونية التى كانت تخوضها ضد دولة قرطاجة ، تحت قيادة القائد العسكرى الشهير هانيبال Hanibal ، وقد إنحاز كل من الملك السلوقى والمقدونى إلى جانب هانيبال ، لخشيتهما من تزايد النفوذ الرومانى فى الشرق ، أما مصر وبرجامة ورودى فقد أثرت أن تقف على الحياد .

ولما كان الملك السلوقى يتحرق شوقاً إلى استعادة إقليم جوف سوريا ، فقد انتهاز فرصة وفاة بطلميوس يورجيتيس ، وقام بغزو هذا الإقليم فى عام ٢٢١ ق.م . ، إلا أن القائد البطلمى

(1) C.A.H.VII. p. 727 .

فى هذا الإقليم ، تصدى له مما وقف حائلاً دون تحقيق رغبة الملك السلوقى . وقبل أن يفكر فى إعادة الكرة ، اضطر أنطيوخس الثالث إلى مواجهة ثورة ضده فى بابل ، فاستغل سوسيببوس هذه الفرصة . وراح يعمل على بث القلاقل فى أرجاء الدولة السلوقية ، وأدخل فى دوع أنطيوخس أنه يمكنه استعادة جوف سوريا عن طريق التفاوض ، بينما راح يعمل بهمة على إعداد الجيش ، الذى كان يعاني حالة من الاسترخاء ، وكانت المشكلة التى واجهت سوسيببوس آنذاك ، هى صعوبة الحصول على أعداد من المرتزقة الإغريق ، لذا فقد قرر الإقدام على خطوة جريئة ، وهى إشراك المصريين فى الجيش ، وكان المصريون قد انقطعوا عن المشاركة فى الجيش البطلمى منذ موقعة غزة فى عام ٣٢١ ق.م. (١) ، فقام بتدريب عشرين ألفاً من المصريين ، على أساليب القتال المقدونية ، وقد جرى ذلك فى طى الكتمان .

أما أنطيوخس الثالث ، فبعد أن فرغ من تسوية مشاكله الداخلية ، راح يتطلع إلى عودة جوف سوريا إليه ، إلا أن اليأس بدأ يتسرب إلى نفسه ، فى إمكانية تحقيق هذا الهدف عن طريق المفاوضات ، فقرر تحقيقه عن طريق القوة ، فأنجبه على رأس قواته إلى جنوب سوريا ، واستولى على فينيقيا ، ثم واصل تقدمه واستولى على غزة ، وفى تلك الأثناء كان الجيش البطلمى قد أكمل استعداداته ، فخرج للقاء الجيش السلوقى ، وكان بطليموس فيلوماتور يتولى القيادة العامة ، بينما كان سوسيببوس يتولى قيادة الفرق المصرية المشاركة فى الجيش

موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م :

زحف أنطيوخس الثالث بقواته ، حتى تجاوز مدينة رفح ، والتقى بالجيش البطلمى الذى كان يعسكر بالقرب من هذه المدينة ، وكان أنطيوخس يقود جيشاً جراراً ، مزوداً بعند كبير من الفيلة الهندية ، وتولى بطليموس الرابع قيادة جيشه ، وكان فى صحبته شقيقته أرسيتوى الثالثة ، وعندما بدأ التلاحم تمكن أنطيوخس الثالث ، الذى كان يتولى بنفسه قيادة ميمنة جيشه ، من اجتياح فرسان الجيش البطلمى فى الميسرة ، التى كان يقودها الملك البطلمى ، الذى ولى الأدبار . إلا أن المعركة لم تقف عند هذه الجولة ، فقد استمر القتال بين المشاة على الجانبين ، وتوجىء الجميع باندفاع الجنود المصريين إلى أتون المعركة ، وأثار هؤلاء الجنود

(1) C.A.H.VII. p. 728 .

من الجدير بالذكر أن مشاركة المصريين فى هذه المعركة اقتضت على الأعمال المساعدة .

دهشة الجميع ، بما أظهروه من بسالة منقطعة النظير . واستطاعوا أن يقلبوا ميزان المعركة لصالحهم ، وتحولت الهزيمة على أيديهم إلى انتصار باهر ، فجعلوا جنود الجيش السلوقي يفرون من ساحة القتال (١) .

اضطر أنطيوخس الثالث إلى طلب الصلح ، ورحب فيلوباتور بهذا الطلب وتم توقيع معاهدة بين الطرفين . فكتبت مصر بمقتضاها من استرداد إقليم جوف سوريا ، الذي سبق أن استولى عليه أنطيوخس الثالث . وعاد بطلميوس فيلوباتور إلى مصر ، وقد انتشى بما أحرزه من انتصار ، فألقى بنفسه مرة أخرى في مستنقع المجون . وتزوج من شقيقته أرسينوى الثالثة ، وكانت على جانب كبير من الأدب ، والخلق الرفيع ، ولكنها كانت عاجزة حيال تلك الطغمة الفاسدة ، التي سيطرت على البلاط . والواقع أنه لا يوجد في الشطر المتبقي من عهد فيلوباتور أحداث تستحق الذكر ، حتى وفاته في عام ٢٠٣ ق.م.

عصر الضعف :

كانت موقعة رفح نقطة تحول ، في تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ويميل المؤرخون إلى اعتبار عام ٢١٧ ق.م. ، الذي جرت فيه أحداث هذه الموقعة ، بداية لمرحلة جديدة في تاريخ مصر ، جرت فيها تحولات كثيرة على الصعيد الداخلي والخارجي . ويمكن اعتبار الشطر الأول من عصر البطالمة ، الذي بدأ بانفراد بطلميوس الأول بالسلطة في مصر ، وحتى عام ٢١٧ ق.م. ، عهد القوة والازدهار ، أما الشطر الثاني ، منذ ذلك التاريخ وحتى سقوط الدولة ، فهو عهد الضعف والانحلال ، الذي شهد تدهور أحوال البلاد في الداخل ، وضياح هيبة الدولة في الخارج (٢) .

ففي الشطر الثاني ، تكاثفت مجموعة من العوامل ، لكي تأخذ بخناق الدولة ، منها ما هو داخلي ، وما هو خارجي ، ويمكن إجمال العناصر الداخلية في ثلاثة عوامل ، هي ثورات المصريين ، وضعف السلطة المركزية ، والنزاعات على العرش . أما العوامل الخارجية فإنها تكمن في ظهور ثلاث قوى قومية ، راحت تترصد بدولة البطالمة ، وتعمل على إضعافها : وهي أنطيوخس الثالث ملك سوريا ، وغيليب الخامس ملك مقدونيا ، ودولة روما .

(١) قدم بوليبيوس وصفاً دقيقاً لهذه المعركة أنظر : - Polyb V 107; Jouguet, P. op. cit. pp. 214 -

(٢) عن الآثار التي ترتب على هذه الموقعة راجع : إبراهيم نصحي : المرجع السابق ج١ ، ص ١٥٨ .

ولتنصيل ذلك ، فباته فيما يتعلق بالعامل الأول ، فإن سوقعة رفح التي شارك فيها المصريون لأول مرة كجنود مقاتلين ، أيقظت في أنفسهم الروح القومية ، فراحوا يتذكرون أمجاد أجدادهم ، وتولدت فيهم الثقة في النفس ، باعتبارهم أصحاب الفضل في تحقيق النصر . بينما أندحر الجنود الإغريق ، وفروا من ميدان القتال . وحينما عادوا إلى قراهم تلتحت عيونهم ، على الظلم الذي يعيشون فيه (١) .

قارن المصريون بين أحوالهم المزرية ، والامتيازات التي يتمتع بها الإغريق ، وسائر الأجانب الآخرين ، وهي تفرقة بدت لعيونهم ليس لها ما يسرها . فاستششت بينهم روح التحدي للأجانب . وتحولت مدينة طيبة ، عاصمة مصر الخالدة ، إلى بؤرة للثورة (٢) ، وأخذ كهنة الإله آمون في طيبة ينفخون في النار ، ويروجون التيارات التي تبشر المصريين بقرب ظهور البطل الوطني ، الذي سيقضي على الأجانب ، وما هو جدير بالذكر أن الكهنة انتهزوا فرصة فوران الشعور الوطني المصري ، في اجتماعهم لتكريم الملك ، فلم يرد ذكر الملك البطلمي باعتباره ملكاً إغريقياً فقط ، بل أضيفت إلى اسمه الألقاب الفرعونية المصرية كاملة (٣) . وانفجرت الثورات وراحت تشو إلى (٤) . مما أقض مضاجع البطالمة ، فبذلوا جهوداً جبارة لإخمادها ، استنزفت مواردهم ، وأضعفت مكانتهم في الخارج .

ويعتدل ضعف السلطة المركزية ، في تولي ملوك ضعاف عرش البلاد ، وقد رأينا نموذجاً لهؤلاء الملوك في بطليموس الرابع ، الذي ألقى القدر في حجره نصراً لم يكن يستحقه على الإطلاق ، وبعد عهد بطليموس الرابع تولي العرش في الأغلب ملوك صغار ، خضعوا لتسلط الأوصياء على العرش ، الذين كانوا في الغالب لا هم لهم سوى الاستئثار بالسلطة .

أما ثالث العوامل الداخلية ، فهو الخلافات على العرش التي نشبت بين الأخوة ، وكان لها أروغم العواقب ، حيث انقسمت البلاد بين الأخوة المختلفين ، وانفتح الباب على مصراعيه ، أمام التدخل الخارجي .

(1) Rostovtzeff, M., op. cit. p. 710

(2) Bowman, A. K., op. cit. p. 30 .

(3) C.A.H. VII. p. 731 .

(٤) يمكن القول بأن منطقة طيبة ، في بعض الفترات قد استقلت استقلالاً كاملاً عن السلطة المركزية للدولة . بل = المرجع السابق ص ٨٣ .

وإذا ما أردنا أن نفصل الحديث عن العوامل الخارجية ، فإننا ذكرنا من قبل أنها تكمن في وجود ثلاث قوى راحت تعمل على إضعاف دولة البطالة ، وأولى هذه القوى هي دولة روما التي قامت ، على ضفاف نهر التاير Tiber في وسط شبه الجزيرة الإيطالية . وما لبثت أن توسعت وراحت تلتهم باقي القوى في إيطاليا . مما جعلها في شغل شاغل عما كان يجري في شرق البحر المتوسط . وبلاد اليونان ، وبدأ اهتمام روما ببلاد اليونان ، حينما أرادت أن تحصى سواحل إيطاليا الجنوبية ، من غارات القراصنة ، الذين كانوا يستمتعون بحماية دولة إليريا Illyria ، التي تقع على الشواطئ الغربية لبلاد اليونان ، مما اضطر الرومان إلى محاربة هذه الدولة ، وفرض سيطرتهم على الطريق الرئيسى للمواصلات بين إيطاليا وبلاد اليونان (١) .

أدت أحداث الصراع مع إليريا ، إلى استيلاء الرومان على مناطق بالقرب من حدود دولة مقدونيا . وعندما تولى فيليب الخامس عرش هذه الدولة في عام ٢٢٠ ق.م. أدرك مدى الخطر الذي تتعرض له بلاده من الوجود الروماني في البلقان ، فانتهاز فرصة نشوب الحرب بين روما ودولة قرطاجة ، وتحالف مع هانيبال Hanibal ، القائد القرطاجي ، وعدو روما اللدود (٢) . فردت روما على هذه الخطوة بالتحالف مع أعداء فيليب ، في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، الذين شنوا حرباً ضد فيليب ، عرفت باسم الحرب المقدونية الأولى (٢١٤ - ٢٠٦ ق.م) . ولكنهم اضطروا في النهاية إلى توقيع معاهدة مع مقدونيا .

خرج فيليب من هذه الحرب أكثر قوة ، فانتعشت آصاله في إقامة إمبراطورية كبرى ، وتحقيق السيادة على بحر إيجه . وكانت هذه الرغبة تتعارض مع مصالح بعض القوى الأخرى . مثل رودس ودولة برجامة ، وكذلك أنطيوخس الثالث ، ملك سوريا القوي .

وبعد هذا الأخير هو ثالث العوامل التي أثرت على دولة البطالة في الشطر الثاني ، فإنه لم يستكن للهزيمة التي لقيها في رفع . فراح يعمل على تقوية دولته ، وتمكن من استرداد ممتلكاته التي كان قد فقدتها في آسيا الصغرى ، كما أعاد إلى حظيرة الدولة بعض الولايات الشرقية ، التي كانت قد شقت عصا الطاعة . وراح يشحذ أسلحته ، قهيداً للثأر من هزيمته في رفع ، واسترداد إقليم جوف سوريا .

وبينما كان العالم يضطرم بهذه التطورات ، سيطر التحول على السياسة الخارجية لمصر ، فلم يعد لمصر نشاط يذكر في مجال السياسة الدولية ، والأمر الوحيد الذي يستلفت الانتباه .

(1) C.A.H VII. p. 831 ff

(٢) عن حروب هانيبال في إيطاليا انظر :

Cary M., Scullard. H. H., A History of Rome. p. 127 .

هو سريان الدفء في العلاقات بين مصر وروما . فقد شعر الرومان بأهمية المساعدات التي قدمتها مصر ، عندما قام هانيبال بتدمير حقول القمح في إيطاليا ، ويمكننا أن ندرك مدى إحساس الرومان بهذه الأهمية ، من خلال الوفود التي أخذت تتقاطر على مصر في عهد فيلوياتور ، ما بين عامي ٢١٥ - ٢١٠ ق.م.^(١) وبعد انتصار الرومان على قرطاجة في سوقسة Zama في عام ٢٠٢ ق.م. تحققت لهم السيادة الكاملة على غرب البحر المتوسط.

أما مصر فإنها عندما تبين لها أن أنطيوخس بدأ يكشر عن أنيابه ، أخذت في التقرب إلى مقدونيا وتذكر الروايات أن فيليب الخامس عرض على فيلوياتور مساعدته في إخضاع ثورات المصريين ، إلا أن الملك البطلمي رفض هذا العرض ، لما يتطوى عليه من إتاحة الفرصة لمقدونيا، للتدخل في شئون مصر الداخلية .

وتجدر الإشارة إلى أن أنطيوخس الثالث ، قد تقدم بالعرض ذاته ، مما يدل بحلاء على أن هذين الملكين لم يتركا فرصة للتدخل في شئون مصر الداخلية ، إلا وعلا على انتهازها .

بطلميوس الخامس (إيفانيس) ٢٠٣ - ١٨٠ ق.م :

توفي بطلميوس الرابع في عام ٢٠٣ ق.م . وترك طفلاً لم يتجاوز عمره السابعة ، وكان من المقرر أن تتولى الوصاية عليه ، أمه الملكة أرسينوى الثالثة . إلا أن سوسيبوس وأجاثوكليس دبرا مؤامرة ، أودت بحياة هذه الملكة ، وأعلنا توليهما الوصاية على الملك الطفل ، وأدعيا أن هذه وصية الملك الراحل . وهي وصية يرى الكثيرون أنها موضع شك^(٢) .

وبعد وفاة سوسيبوس انفرد أجاثوكليس بالوصاية على الملك الصغير ، وتولى توجيه دفة السياسة الخارجية للدولة . فأرسل سفارة إلى روما طالباً منها التوسط بين مصر وأنطيوخس الثالث ، إلا أن الرومان لم يظهروا حساساً إلى إجابة هذا الطلب ، لأن بقاء الخلافات بين مصر وسوريا في مصلحة روما . ومن ناحية أخرى فقد تابع أجاثوكليس سياسة التقرب إلى دولة مقدونيا .

والواقع أن كلا من فيليب الخامس ، ملك مقدونيا ، وأنطيوخس الثالث الملك السلوقي ، ظلت تراوده أحلام الاستيلاء على ممتلكات مصر الخارجية ، وعلى الرغم من التعارض الواضح

(١) سبب الناصري ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(2) Polyb. XV. 25. 3 - 11 .

فى أهداف هذين الملكين ، فقد اتفقا فى هذا الأمر . وجرت مقاضات سرية بين الطرفين ، أسفرت عن توقيع معاهدة . ولا نعرف على وجه التحديد فحواها ، ولكن من المرجح أنه جرى الاتفاق على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، بين الطرفين . أما رأى الذى يقول بأن الاتفاق شمل مصر ذاتها ، فإنه لا يلقى قبولا لدى الدارسين (١) .

ويعتضى هذا الاتفاق ، تقرر أن يستولى كل طرف على الممتلكات المصرية ، القريبة من مملكته . فسيأخذ فيليب ما تبقى لمصر ، فى جزر الكيكلاديس ، وممتلكاتها فى تراقيا والدردييل . أما أنطيوخس فإنه يأخذ إقليم جوف سوريا ، وما تبقى لمصر من ممتلكات فى آسيا الصغرى .

وفى داخل مصر ، ضاق السكندريون ذرعا بممارسات أجاثوكليس ، ولم يغب عن بالهم ، الجريمة النكراء التى ارتكبها فى حق الملكة أوسيفوى الثالثة ، وسرى الإحساس بالسخط فى الجيش ، فأعلن تلبوليموس Telpolemos ، قائد حامية بيلوزيون التمرد ، وانضمت إليه حامية الإسكندرية ، وعم الاضطراب العاصمة ، وأحاطت الجماهير بالقلعة الملكى ، واقتحم الثوار القصر ، وأخرجوا الملك الصغير ، وطالبوه بإنزال العقاب بالمفسدين ، فوافق صاغرا على طلب الجماهير . وقامت الحشود العاضية بسحل أجاثوكليس وأسرت فى شوارع الإسكندرية ، ثم تلففتهم الجماهير وقطعتهم إربا . وتولى تلبوليموس الوصاية على الملك الصغير ، إلا أنه أثبت فشله فى هذه المهمة ، وجرى عزله وتعيين وصى آخر ، هو أريستومينيس Aristomenes .

حيأت الأحداث فى الإسكندرية ، الفرصة أمام فيليب الخامس وأنطيوخس الثالث ، لوضع اتفاقهما موضع التنفيذ . فتقدم أنطيوخس الثالث واجتاح جوف سوريا وفينيقيها . وعلى الرغم من تصدى الجيش البطلى له ، إلا أنه تمكن من إنزال هزيمة قاسية بهذا الجيش ، عند بانيون Panion ، بالقرب من نهر الأردن ، فى عام ٢٠٠ ق.م (٢) . وفقدت مصر هذا الإقليم إلى الأبد ، كما فقدت قبل ذلك ممتلكاتها فى آسيا الصغرى .

(1) Magle. D, The Agreement between Philip V and Antiochos III for Partition of the Egyptian Empire. J.H.S. 29, 1939, pp. 32 ff.

(2) Polyb XVI 18-19 ; Grant. M, op. cit. p. 47



حجر رشید

أما فيليب فإن لم يتوان عن تنفيذ ما يخصه في الاتفاق ، فقام بالاتقضاء على ما تبقى لمصر من ممتلكات ، في جزر الكيكلاديس ، وعند مضيق البسفور . وفي منطقة تراشيا (شمال بحر إيجه) ويمكن القول بأن مصر قد فقدت ممتلكاتها الخارجية بحلول عام ٢٠٠ ق.م . ولم يعد في حوزتها سوى قبرص وقوريني (١) .

أدى نشاط فيليب الخامس في بحر إيجه ، إلى الاصطدام بجزيرة رودس ، ومملكة برجامة ، مما دفع هاتين الدولتين إلى طلب حماية الرومان (٢) ، وكانت روما من قاهيتها تراقب بكثير من الشك تحركات فيليب ، وتتطلع إلى الفرصة التي تمكنها من التدخل لوقف نشاطه . فتلقت بحساس طلب رودس وبرجامة . ومن ناحية أخرى ، كانت روما تحرص أشد الحرص على المحافظة على توازن القوى ، في شرق البحر المتوسط . فخشيت من أن يؤدي تعاظم قوة أنطيوخس وفيليب ، إلى تفكيرهما في الاستيلاء على مصر ذاتها .

والحقيقة أن شخصية فيليب الخامس ، أعادت إلى الأذهان صورة الإسكندر الأكبر ، الذي انطلق أيضاً من مقدونيا ، وأقام إمبراطورية عظيمة في الشرق . ولكن فيليب كان يرنو إلى الغرب ، ويتطلع إلى إقامة إمبراطورية مقدونية ، على غرار إمبراطورية الإسكندر . وكانت روم هي القوة التي كانت تقف حائلاً أمام تحقيق طموحاته . لذا فإنه وجد في هانيبال الذي قام بغزو إيطاليا خير من معاونه على إزاحة هذا الحائل .

خرجت روما منتصرة ، من الحرب البونيه الثانية ، وأخذت تتطلع إلى ما يحدث في شرق البحر المتوسط . وفي عام ٢٠٠ ق.م. أرسل مجلس الشيوخ الروماني (السناتو) بعثة . كان هدفها الظاهر العمل على التوفيق بين بطلميوس الخامس ، وأنطيوخس الثالث ، أما هدفها الحقيقي فكان الوقوف على أحوال المنطقة ، والتأكد من وقوف أنطيوخس على الحياد ، في حال وقوع الصدام بين روما وفيليب . وأخذ الرومان يعملون على تأليب المدن الإغريقية ضد فيليب ، ثم وجهوا إليه إنذاراً بالكف عن التدخل في شؤون المدن الإغريقية . إلا أن فيليب لم يأبه بهذا الإنذار وواصل سياسته ضد هذه المدن ، ولم يلبث الرومان أن وجهوا إلى فيليب إنذاراً أشد قسوة ، وطالبوه بدفع تعويضات لجزيرة رودس ، وعدم المساس بممتلكات مصر .

(1) Bowman, A. K., op. cit. p. 29

(2) Cary, M., op. cit. p. 151 ff.

وفى هذه المرة أيضاً ، رفض فيليب الإنذار الرومانى ، وأبلغ البعثة الرومانية بأنه سيدافع عن نفسه بمساعدة الآلهة (١) .

أدى رفض فيليب للإنذار الرومانى ، إلى نشوب الحرب المقدونية الثانية ، واستطاعت روما أن تحرز نصراً باهراً على فيليب ، فى موقعة كينوس كيبالاي Kynos Kepalae ، أى رؤوس الكلاب ، فى عام ١٩٧ ق.م (٢) . مما جعلها تحتل مكاناً سامياً فى العالم ، وأن تقلم أظافر فيليب ، وأتبعت ذلك بإعلان حرية المدن الإغريقية .

فى أثناء حربيها مع فيليب ، كانت روما على استعداد لأن تخمض عينيها عن نشاط أنطيوخس الثالث ضد مصر ، حتى يتلهى عن التدخل فى هذه الحرب ، فمضى أنطيوخس فى تحقيق مشروعاته ، وهو مطسئن البال ، فاستولى على جوف سوريا ، كما سلف الذكر ، واستغل إتهامك روما وفيليب فى صراعهما ، فاستولى على الممتلكات البطلمية فى آسيا الصغرى - وأخذت روما تراقب سلوك أنطيوخس الثالث بكثير من الريبة ، وظنت أنه يتقدم إلى آسيا الصغرى لتقديم العون إلى فيليب (٣) . إلا أن أنطيوخس مضى إلى شوط بعيد ، فى تحقيق أحلامه . فاستولى على بعض ممتلكات فيليب ، فى تراقيا وبلاد اليونان . وما هو جدير بالذكر ، أن الرومان منذ انتصارهم على فيليب ، كان يعتبرون بلاد اليونان ، منطقة خاضعة لنفوذهم ، ومن ثم فقد رأوا أن وصول أنطيوخس إلى هذا المدى ، يشكل تهديداً لمصالحهم ، وقد حاولوا إقناعه بالتخلى عما استولى عليه ، إلا أنه رفض ، بل أمعن فى تحدى الرومان بتعاونه مع العناصر المناوئة لهم .

وعلى الرغم من حرص الرومان ، على إبقاء مصر خارج دائرة الصراع ، فإن الملك البطلمى خضع لتأثير الحزب المعادى للرومان داخل البلاط السكندرى ، فسعى إلى التقارب مع أنطيوخس الثالث . وجرى مفاوضات بين الطرفين فى عام ١٩٥ ق.م. وكانت إحدى النتائج التى أسفر عنها هذا الاتفاق ، زواج بطليموس الخامس من كليوباتره ابنة أنطيوخس . وتم الاحتفال بهذا الزواج فى رفع (٤) . ومن الغريب أن يتم اختيار رفع لكى تكون المكان الذى

(1) C.A.H. VIII. p. 165

(2) Preaux. C. op. cit. pp. 156 - 157 .

(3) Preaux. C. op. cit. p. 159 - 160

(4) Whiteborne. I, op. cit. p. 80 .

يشهد حفل الزواج ، وهي التي سبق لها أن شهدت من قبل هزيمة أنطيوخس الثالث على يد فيلبواتور في عام ٢١٧ ق.م. ويذهب البعض إلى القول بأن المهر الذي قدمته العروس إلى زوجها ، كان إقليم جوف سوريا ، إلا أن هذا الرأي لا يبدو مقبولاً في ضوء ما نعرفه من استماتة أنطيوخس في الاستيلاء على هذا الإقليم . ولكن أغلب الظن أن هدبة كليوباتره إلى زوجها ، كانت دخل هذا الإقليم فقط . فقد ذكر المؤرخ جوزيفوس أن دخل بعض مناطق جوف سوريا ، كان يدفع مناصفة لكل من كليوباتره وزوجها (١).

وما هو جدير بالذكر أنه كان لدى أنطيوخس ثلاث بنات ، وكان يخطط للاستفادة من هؤلاء الفتيات ، في تحقيق مكاسب سياسية ، في إطار صراعه المرتقب مع الرومان ، فتزوجت الأولى بطلميوس الخامس ، وتزوجت الثانية التي كانت تدعى أنطيوخيس Antiochis من أريارثيس Ariarathes ، ملك كبادوكيا (في آسيا الصغرى) ، أما الثالثة فقد أرسلها لتكون عروساً لبومينيس الثاني Eumenes II ، ملك برجامة ، الذي رفض هذه الزيجة ، لأنه كان يتوقع نشوب الحرب بين روما وأنطيوخس . وانتصار الرومان فيها ، فلم بشأ توريط نفسه بالارتباط مع أنطيوخس .

لم تتحقق آمال الملك السلوقي ، في دعم مكانته في مصر ، فصرعان ما تغير الوصي على الملك البطلمي وحل محله آخر كان أكثر ميلاً للرومان ، وقد رأى الوصي الجديد أن اتباع سياسة موالية للرومان ، تعد أفضل وسيلة لاستعادة ممتلكات مصر الخارجية ، لذلك نفّض بطلميوس الخامس يديه من المعاهدة التي سبق له أن أبرمها مع صهره ، وأرسل يعرض على الرومان المساعدة ، في صد هجوم أنطيوخس على بلاد اليونان في عام ١٩٢ ق.م (٢). ورفضت روما هذا العرض تعبيراً عن استيائها من قيام بطلميوس بتوقيع معاهدة من قبل مع أنطيوخس . دون استشارتها . واستمرت على موقفها على الرغم من محاولات بطلميوس المتكررة لاسترضائها . وفي عام ١٨٩ ق.م. اشتبك الرومان مع أنطيوخس الثالث في معركة ماجنيسيا Magnesia ، وأدفعوا به هزيمة منكرة ، حيث طرد من بلاد اليونان شر طردة ، وأصبحت هذه البلاد خاضعة للسيطرة الرومانية ، بالإضافة إلى آسيا الصغرى .

(1) Josephos, Ant. 12. 154 .

(2) Livy 36. 4. 1- 4 .

بعد الانتصار فرض الرومان على أنطيوخس ، أن يوقع معهم صلح مهين ، وهو الذى يعرف بصلح أباميا Apamia (عام ١٨٨ ق.م.) . وتم حرمان أنطيوخس من ممتلكاته ، التى تقع شمال وغرب جبال طوروس^(١) ، وأعلنت روما حرية المدن الإغريقية ، وقسمت ممتلكات أنطيوخس السابقة فى آسيا الصغرى ، بين حليفتيها رودس وبرجامة . أما مصر فقد أصرت روما على الاستمرار فى معاملتها بجفاء ، فلم تعد إليها ممتلكاتها السابقة .

أدى صلح أباميا إلى تغيير خريطة القوى السياسية فى العالم الهلينيستى ، وصارت لروما الكلمة العليا ، فى شئون شرق البحر المتوسط ، وضاعت الإمبراطورية البطلمية ، وأنكشئت ممتلكات مصر ، وهكذا نرى أنه فى عهد بطلميوس الخامس تكالبت القوى على مصر ، وراحت تنهش فى أوصالها ، دون أن تستطيع أن تحرك ساكناً .

وعلى صعيد الأوضاع الداخلية فى مصر ، نلاحظ أن بطلميوس الخامس ، أخذ يعمل على اكتساب ود الكهنة المصريين ، وابعكس ذلك بجلاء فى نص القرار الذى أصدره الكهنة عقب اجتماعهم فى منف عام ١٩٦ ق.م. ، وعبروا عن شعورهم بالامتنان وقد كتب هذا القرار باللغة المصرية ، بخطيها الهيروغليفى والديموطيقى ، ثم باللغة اليونانية . وعشر عليه مدوناً على حجر من البازلت الأسود ، فى أيام الحملة الفرنسية على مصر ، فى عام ١٧٩٩ ، بالقرب من مدينة وشيد ، لذا فإنه يعرف بحجر وشيد . وتمكن العالم الفرنسى شامليون من فك رموز الكتابة الهيروغليفية ، من خلال هذا النص ، وفتح آفاقاً واسعة لمعرفة الحضارة المصرية القديمة^(٢) .

وفى صعيد مصر ، اندلعت فى مدينة طيبة ثورات عنيفة ، قام بها المصريون ضد الحكم البطلمى ، وتطلب إخماد هذه الثورات جهوداً جبارة من الدولة ، ووجد العرش البطلمى نفسه بين شقى الرحى . أطماع الرومان فى الخارج ، وثورات المصريين فى الداخل . وفى عام ١٨٠ ق.م. توفى بطلميوس الخامس إبيفانيس تاركاً ولدين وابنة واحدة ، من زوجته السورية كليوباترة الأولى ، وكان أكبر الأولاد يبلغ من العمر سبعة أعوام .

(1) Mac Donelad. A.H. The Treaty of Apamia (188 B.C.) J.H.S. 57. 1967. pp. 1-8 .

(٢) انظر ترجمة هذا النص : سليم حسن : مصر القديمة ج ١٦ من عهد بطلميوس الخامس إلى نهاية بطلميوس السابع ص ٤٥ - ٧٣ .

بطليموس السادس فيلوميتور ١٨٠ - ١٤٥ ق.م. :

تولى بطليموس السادس العرش ، تحت وصاية أمه الملكة كليوباترة الأولى و ، لذلك حمل لقب المحب لإمه " فيلوميتور " Philometor ، وقد ظلت العلاقات بين مصر وسوريا طيبة ، خلال وصاية الملكة كليوباترة ، ولكن بعد وفاة هذه الملكة آلت الوصاية على الملك الصغير ، إلى اثنين من عبيد القصر المعتقين ، هما يولايوس Eulaeus ولينا يوس Leneus ، اللذان استأنفا سياسة العداء للدولة السلوقية ، أملاً في استعادة جوف سوريا (١) . وعندما بلغ الملك الصغير سن الخامسة عشرة ، تم تنويجه في منف في عام ١٧٢ ق.م. وكان قد سبق له الزواج من شقيقته كليوباترة الثانية (٢) : التي كانت أكبر منه سناً .

وفي سوريا كان يتبرع على العرش أنطيوخس الرابع ، الذي انشغل بالصراع مع اليهود (٣) ، ورأى رجال البلاط في الإسكندرية ، أن الفرصة سانحة أمامهم لاستعادة جوف سوريا ، وأخذوا في إعداد الجيش لهذا الغرض ، وأصبحت الحرب السورية السادسة على الأبواب ، ويادر كل طرف بإرسال بعثة إلى روما ، لتبوير وجهة نظره ، وإلقاء اللوم على الطرف الآخر ولم تكن روما من جانبها حريصة على حل الخلاف بين الطرفين ، لأنها كانت تتأهب لخوض الحرب المقدونية الثالثة ، وكان يهمها أن تشغل الأطراف الأخرى بشاغلها ، حتى لا يفكر أحدها في المشاركة في الحرب .

في عام ١٧٠ ق.م. ، زحف أنطيوخس الرابع ، في اتجاه الحدود المصرية ، فالتقى بالجيش البطلمي وتمكن من هزمته ، واستولى على بيلوزيون ، وتقدم نحو منف ، وتقول بعض الآراء أنه ترج في منف فرعوناً ، كما فعل الإسكندر الأكبر من قبل (٤) . ومن منف أرسل في استدعاء الملك البطلمي ، وأرغمه على توقيع اتفاق يقبل فيه حماية أنطيوخس الرابع . ولما تناهت هذه الأنباء إلى السكندريين ثاروا ثورة عارمة على الوزيرين يولايوس ولينا يوس ،

(1) C.A.H. VIII p. 283 .

(2) Whieborne. I op. cit Cleopatra II. p. 89 .

(٣) عن صراع هذا الملك مع اليهود انظر :

Fcherikover, V, Hellenistic Civilization and the Jews. New York. 1979 pp. 175 ff .

(4) Bowman. A.K, op. cit. p. 31 .

وأعلنوا الشقيق الأصغر لفيلوميتور ملكاً على مصر ، وأخذوا يتأهبون للتصدي للملك أنطيوخس الرابع ، إذا ما تقدم صوب الإسكندرية .

عندما علم أنطيوخس الرابع بما جرى في الإسكندرية ، قرر أن يتجه إلى هذه المدينة لإعادة فيلوميتور إلى العرش ، ورفض قبول وساطة بعض سفراء المدن الإغريقية ، الذين تصادف وجودهم في مصر ، ولكن تآتى الرياح بما لا تشتهي السفن ، فقد قام اليهود بشورة في فلسطين ، بقيادة باسون^(١) ، مما اضطر أنطيوخس إلى العدول عن خطته والانسحاب من مصر والاتجاه إلى فلسطين . وبذلك أصبح في مصر ملكان ، الأول هو بطلموس فيلوميتور الذي كان في منف ، والثاني شقيقه الأصغر الذي أقامه الشعب الإسكندري . ولكن نجحت الجهود في التوفيق بين الآخرين ، واتفقا على أن يشتركا في الحكم سوريا بمشاركة شقيقتيها كليوباترة الثانية^(٢) ، بغرض تفويت الفرصة على أنطيوخس في التدخل في شئون مصر .

بعد أن فرغ أنطيوخس الرابع من قمع ثورة اليهود ، عاود غزو مصر في عام ١٦٨ ق.م. مندفعاً بالرغبة في المحافظة على حقوق فيلوميتور ، وقام بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، ثم تقدم نحو مصر ، وعلى الرغم من أنه تلقى من الآخرين في مصر ما يفيد اتفاقهما ، وعدم وجود ما يدعو إلى تدخله في شئون العرش البطلمي ، فإنه أصر على موقفه . وتقدم نحو الإسكندرية وحاصرها ، وحاول الأخوان التفاهم مع أنطيوخس بشتى الطرق ، إلا أنه عرض عليهما مطالب ، لم يكن في وسعهما القبول بها . مما دفعهما إلى طلب التدخل من روما ، وفي واقع الأمر ، فإن روما لم تكن تنتظر دعوة للتدخل ، وكانت تراقب الموقف عن كثب ، ولم تكن على استعداد لترك الملك السلوقي يتلع مصر ، وكانت قد خرجت منتصرة من الحرب المقدونية الثالثة .

قامت روما بإرسال بعثة إلى أنطيوخس ، برئاسة التيبيل الروماني بوبليوس لايناس Popilius Laenas^(٣) ، وحملته رسالة من السناتور الروماني إلى الملك السلوقي ، يطلب منه

(1) Roth. C, A Short History of the Jewish People. London. 1953. p. 68 .

(2) Whieborne. J. op. cit. Cleopatra II. p. 89 .

(3) Preaux. C. op. cit. p. 169 .

الجلاء عن مصر فوراً ، إذا أراد المحافظة على صداقة الشعب الرومانى ، وفى حالة رفضه لهذا للطلب ، فإنه يصبح فى نظر الرومان عدواً ، مما يستوجب شن الحرب عليه . وقد جرت أحداث المقابلة المثيرة بين السفير الرومانى والملك السلوقى ، بالقرب من الإسكندرية ، فعندما سلم بوليوس الرسالة إلى أنطيوخس ، طلب الملك من السفير الرومانى إمهاله لبعض الوقت للتشاور . ولكن بوليوس باغته بتصرف فى غاية الجراءة ، إذ رسم بعصاه دائرة فى الأرض حول أنطيوخس ، وطلب منه ألا يخرج من هذه الدائرة قبل أن يعطيه رداً على الرسالة . وقد أخذ الملك السلوقى ، بجراءة السفير الرومانى ، إلا أنه لم يكن أمامه سوى الرضوخ ، فمد يده مصافحاً بوليوس ، إعلاناً عن رغبته فى أن يظل صديقاً للرومان ، وغادر مصر عائداً إلى بلاده (١) .

وصف أحد المؤرخين ما أقدم عليه السفير الرومانى بأنه دبلوماسية الغطرسة (٢) . وعلى أية حال ، فبإذا كانت دائرة بوليوس قد أنقذت مصر ، من الاحتلال السلوقى ، إلا أنها أوقعتها فى براثن التسلط الرومانى ، ومن الآن فصاعداً أخذ الرومان يدسون أنفهم فى كل كبيرة وصغيرة من شئون مصر ، وقد أدى التدخل الرومانى إلى إثارة شعب الإسكندرية . فقامت ثورة تزعمها أحد رجال القصر ويدعى بتوسراپيس Petoserapis ، وطالب بطرده فيلوميستور ، وانفراد شقيقه بالعرش ، وامتد لهيب الثورة إلى الوجه القبلى ، مما اضطر فيلوميستور إلى التوجه بقواته إلى الجنوب لقمع الاضطرابات . ولما عاد إلى الإسكندرية وجد أن شقيقه دبر مؤامرة لإبعاده عن العرش ، والانفراد بالسلطة ، فهرب إلى روما ، لى يناشد الرومان مساعدته فى استرداد حقوقه .

قرر السناتو الرومانى التدخل فى الخلاف على العرش البطلمى ، واقترح تقسيم المملكة بين الأخوين ، وأن يستمر فيلوميستور ملكاً على مصر وقبرص ، على أن يمنح الشقيق الأصغر ولاية برقة (قورنى) . لى تكون مملكة خاصة به . ولم يدخر الأخوان وسعاً لإثبات ولائهما للرومان ، ولا أدل على ذلك من تلك الوصية التى تركها بطلميوس الصغير ملك برقة ، والتى أوصى فيها بأن تؤول مملكته للرومان ، فى حالة وفاته دون وريث . وفى عام ١٥٣ - ١٥٢ ق.م. أشرك فيلوميستور ابنه الأكبر الذى يدعى يوباتور Eupator معه فى الحكم ، إلا أن هذا الابن توفى بعد فترة وجيزة .

(1) Polyb: XXIX. 27, 1. 2 .

(2) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 737 .

وربما يسأل سائل ، لماذا لم ينتهز أنطيوخس الرابع فرصة الخلافات داخل مصر ، ويقدم على غزوها مرة أخرى ، والحقيقة أن أنطيوخس كان غارقاً حتى أذنيه في مشاكله الداخلية ، وبخاصة صراعه مع اليهود ، بالإضافة إلى خوفه من الرومان . وبعد وفاة أنطيوخس الرابع حلت الفوضى بالعرش السلوقي ، وتدخل بطليميوس السادس في الصراع على العرش السلوقي ، ولجج في إقامة أحد الأمراء السلوقيين ويدعى الإسكندر بالاس Pallas في عام ١٤٥ ق.م. على عرش سوريا . وكان يحلم باستعادة إقليم جوف سوريا^(١) ، إلا أن سهماً أطاح بحياته وأحلامه معاً ، فقتل في ميدان القتال ، في عام ١٤٥ ق.م.

وكان فيلوميثور قد أشرك معه في الحكم ابنه الثاني ، وكان هابزال طفلاً . وبعد وفاة والده تولى العرش تحت اسم نيوس فيلوباتور Neos Philopator ، وتولت الوصاية عليه أمه الملكة كليوباترة الثانية . وكان الأمل في استمرار هذا الملك الطفل على العرش ضعيفاً ، في ظل وجود عمه ملك بركة . الذي كان يحظى بتأييد السكندريين ، إضافة إلى دعم الرومان له وبما هو جدير بالذكر أن الرومان صارت لهم السيطرة الكاملة على سياسات العالم آنذاك . فبعد وفاة فيليب الخامس ملك مقدونيا ، أراد ابنه برسيوس Perseus^(٢) الانتقام من الرومان ، إلا أنهم هزموه في موقعة بودنا Pydna عام ١٦٨ ق.م. وقاسوا بتقسيم مقدونيا إلى أربع جمهوريات ، تتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي ، ولكنهم اضطروا في عام ١٤٧ ق.م. ، إلى إلغاء هذا الوضع وتحويل مقدونيا إلى ولاية رومانية .

بطليميوس الثامن يورجيتيس الثاني (١٤٤ - ١١٦ ق.م.) :

عندما علم ملك بركة بوفاة شقيقه الأكبر بطليميوس فيلوميثور ، زحف على الإسكندرية لكي يستولي على العرش ، وعزل كليوباترة الثانية وابنها . وكادت البلاد أن تشهد حرباً أهلية ، لولا تدخل الرومان . الذين بادروا بالتدخل من أجل مساعدة صديقتهم . وقضوا بأحقية في العرش ، على أن يتزوج من شقيقته كليوباترة الثانية ، أرملة شقيقه . وتولى العرش تحت اسم يورجيتيس ، وهو ذات اللقب الذي حملته بطليميوس الثالث . ولكي شتان ما بين الاثنين . فقد كان هذا الأخير صورة مجسدة للشر^(٣) ، وبدأ عهده بانتزاع الطفل الصغير

(1) Diog. 29, 29 .

(2) C. A. H. VIII p pp 267 ff.

(3) Diog. XXXIII, 6 .

نينوس قيلولياتور من أحضان أمه ، وأمر بإعدامه وبلغ به الاستهتار أنه تزوج من ابنة أخيه كليوباترة الثالثة في عام ١٤٢ ق.م. على الرغم من أنه كان زوجاً لأُمها . مما أثار حق كليوباترة الثانية . فثارت عليه واستطاعت أن تكتسب عطف الكثيرين . فاندلعت الثورة في كافة أرجاء البلاد . واضطر بطلميوس الثامن إلى الهرب ، ولم يتمكن من إلى العودة إلا بمساعدة الرومان^(١) ، ويمكننا أن نلاحظ أن هذه المرحلة تمثل بداية لعهد جديد من التدخل الروماني في شئون مصر .

عندما عاد بطلميوس الثامن مؤيداً بالدعم الروماني . خاض حرباً ضد شقيقته كليوباترة الثانية : مما اضطرها إلى الهرب إلى أنطاكية ، عاصمة الدولة السلوقية ، ولكنها عادت إلى مصر مرة أخرى ، وتم التصالح بينها وبين بطلميوس الثامن ، وفي محاولة لإعادة الأحوال في البلاد إلى سيرها الطبيعي ، صدر قرار باسم الملك بطلميوس الثامن وكليوباترة الثانية وكليوباترة الثالثة ، في عام ١١٨ ق.م. ، والذي يعرف بقرار العفو . وحملته لنا ورقة بردية ، تعد من أهم النصوص البردية من عصر البطلمية^(٢) .

وفي عام ١١٦ ق.م. توفي بطلميوس الثامن يورجيتيس الثاني ، أما كليوباترة الثالثة فقد اختفى ذكورها ، وربما تكون قد لقيت حتفها ، بشكل غير طبيعي^(٣) . وانفردت كليوباترة الثالثة بشتون البلاد . لأن بطلميوس الثامن لم يحدد واحداً من ابنته في خلافة العرش ، وإذا ترك لكليوباترة الثالثة ، مهمة اختيار الأصح من بين الاثنين ، لتولي العرش . وارتكب بذلك خطأ جسيماً سوف يؤدي بالبلاد إلى متاعب لا حصر لها . ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا . من بين أخطاء هذا الرجل ، تلك الوصية الغريبة التي كتبها عندما كان ما يزال ملكاً على برقة ، والتي أوصى فيها بأن تؤول مملكته إلى الشعب الروماني ، في حالة وفاته دون وريث^(٤) . وعلى الرغم من أن هذه الوصية لم يتم تنفيذها آنذاك ، لأن العرش آل إلى أحد أبنائه غير الشرعيين ، ويدعى بطلميوس أبيون Apion ، إلا أن هذا الأخير كرر وصيته أبدياً ، وتم تنفيذ الوصية بعد ذلك ، وأصبحت برقة ولاية رومانية .

(١) Rostovtzeff, M, op. cit. p. 871 .

(2) P. Tebt. 5 .

(٣) إبراهيم نصحي: المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

(٤) حمل هذه الوصية نقش عشر عليه في بلدة قوريس انظر : S.E.G. IX No.7 .

بطلميوس التاسع « سوتير الثانى » ، بطلميوس العاشر « الإسكندر الأول » :

بعد وفاة بطلميوس الثامن ، تولى العرش ابنه بطلميوس التاسع ، وحمل لقب سوتير الثانى لاثوروس Lothoros ، وكان قد سبق له الزواج عن شقيقته كليوباترة الرابعة ، إلا أنه طلقها وتزوج من شقيقته الأخرى كليوباترة الخامسة ، التى كانت تعرف بكليوباترة القمر Selene^(١) . مما أثار كليوباترة الرابعة وجعلها تغادر مصر إلى سوريا ، حيث توفيت هناك . ولم تكن كليوباترة الثالثة راضية عن سلوك ابنها ، فحرضت عليه شعب الإسكندرية ، مما اضطره إلى الفرار إلى قبرص ، وقامت باستدعاء شقيقه الأصغر الذى ارتقى العرش تحت اسم بطلميوس العاشر الإسكندر الأول ، بالاشتراك مع والدته . ولكن بعد وفاة الأم فى عام ١٠١ ق.م. انفرد بالعرش . وتشكك بعض الروايات فى أن يكون بطلميوس العاشر ، هو الذى دبر مقتل والدته^(٢) ، حتى ينفرد بالحكم ، وظل هذا الملك متربعا على العرش ، حتى ثار عليه شعب الإسكندرية فى عام ٨٨ ق.م. فاضطر إلى الفرار إلى قبرص . حيث لقي حتفه .

بعد فرار بطلميوس العاشر الإسكندر الأول ، استدعى السكندريون شقيقه . بطلميوس التاسع سوتير الثانى ، لتولى العرش مرة أخرى . وبعد عودته تزوج من شقيقته برنيكى الثالثة ، على أمل أن يتجنب منها وريثا للعرش ، إلا أن هذه الرغبة لم تتحقق ، وتولى الملك فى عام ٨٩ ق.م. وتولت زوجته الحكم مفردة . وبما هو جدير بالذكر أن عهد سوتير الثانى يتسم بازدياد النفوذ الرومانى فى مصر . فقد راحت الوفود الرومانية تتقاطر على البلاد . وكان الهدف الحقيقى لهذه الزيارات هو الوقوف على أسرار مصر ، ومعرفة ثرواتها^(٣) . وعلى الصعيد الداخلى ، شهدت البلاد حالة من التدهور واقتوضى ، فقد تجددت ثورات المصريين فى عام ٨٨ ق.م. ، واستمرت حتى عام ٨٦ ق.م. على الرغم من محاولات الملك البطلمى التردد إلى المصريين ، عن طريق بناء المعابد . والتقرب إلى الكهنة .

(١) سيد الناصرى . المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(2) Rostovtzeff, M. op. cit. p 876

(٣) تحدثت إحدى البرديات التى بم العثور عليها فى منطقة الفيوم ، عن الترتيبات التى كانت تعد فى ذلك الموقف لاستقبال أحد أعضاء مجلس السناتور الرومانى ، الذى كان يقوم بزيارة مصر :

بطلميوس الحادى عشر « الإسكندر الثانى » :

بعد وفاة سوتير الثانى ، وانفراد برنيكى بالحكم ، أصبح من الضرورى البحث عن زوج لها . وأسفر البحث عن العثور على ابن للإسكندر الأول (بطلميوس العاشر) ، كان قد أنجبه من إحدى عشيقاته ، ويعيش فى روما ، فتحمس الرومان لتولية العرش البطلمى ، حتى يصبح عميلاً لهم . وسارعوا بإرساله إلى الإسكندرية ، حيث تزوج الملكة برنيكى الثالثة . وتولى العرش حاملاً لقب الإسكندر الثانى . غير أن هذا الملك سرعان ما تنكر لزوجته وقتلها ، وكانت هذه الملكة تتمتع بحب شعب الإسكندرية ، مما دفع الجماهير الغاضبة إلى الفتك بالملك القاتل فى عام ٨٠ ق.م. الذى دام حكمه لمدة عشرين يوماً فقط (١) . وهكذا اختفى آخر شخص من سلالة البطالمة الشرعيين .

دولة البطالمة فى مرحلة الاحتضار (٢)

كانت المشكلة التى واجهت رجال البلاط فى الإسكندرية ، هى البحث عن شخص من سلالة البطالمة لى يتولى العرش ، وقد وجدوا ضالّتهم المنشودة ، فى ولدين غير شرعيين لبطلميوس التاسع سوتير الثانى . كانا يعيشان خارج مصر ، فتم استدعاؤهما على الفور ، من أجل تفويت الفرصة على الرومان للتدخل فى مسألة شغل العرش البطلمى ، وحينما وصل هذان الابنان إلى مصر تقرر تعيين الأصغر ملكاً على قبرص ، أما الأكبر فقد تقرر أن يتولى عرش مصر فى عام ٨٠ ق.م.

بطلميوس الثانى عشر « نيوس ديونيسوس ٨٠ - ٥٩ ق.م :

تولى بطلميوس الثانى عشر العرش ، واتخذ لقب دينيسوس الجديد Neos Dionysos ، إلا أن أهل الإسكندرية أطلقوا عليه لقب الزمار Auletes ، لأنه يهوى العزف على الزمار . وتزوج من شفيقته كليوباترة السادسة . إلا أن الرومان رفضوا الاعتراف به ملكاً على مصر ، وأشاعوا بأن بطلميوس الحادى عشر ، أوصى بأن تؤزل مملكته للشعب الرومانى . ولما كان بطلميوس الزمار ملكاً ضعيفاً فقد سعى إلى الحصول على اعتراف الرومان ، بأى ثمن .

(١) يمكن للقارىء معرفة سوات حكم البطالمة بدقة من خلال القائمة التى أعدها برمان فى نهاية

كتابه الذى رجعنا إليه فى مواضع كثيرة من الصفحات الماضية ، انظر :

Bowman. A.K., op. cit. pp. 235-6

(٢) عن هذه المرحلة من تاريخ مصر ، وخطوات التشفغل الرومانى فى مصر . انظر : عبد اللطيف أحمد

على . مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البديرة - مقدمات الفتح الرومانى ، ص ٩ - ٢٠ .

وفى روما كان الصراع الحزبى على أشده . وانقسمت الساحة السياسية ، بين حزبين كبيرين ، هما الحزب الجمهورى ، والحزب الديقراطى ، وفى عام ٦٧ ق.م. تقرر منح بومبى Pompeius ، زعيم الحزب الجمهورى ، سلطات استثنائية ، للقيام ببعض التسويات فى الشرق ، وتمكن هذا القائد من إحراز الكثير من الانتصارات ، مما رفع اسمه فى روما ، وكانت سوريا من الساحات التى تمكن بومبى من تحقيق المكاسب فيها . وكانت الدولة السلوقية قد سقطت فى ثورة الصراعات على العرش ، وتردت إلى حالة من الفوضى ، حتى تمكن بومبى من تحويل سوريا إلى ولاية رومانية فى عام ٦٤ ق.م. وهكذا سقطت الدولة السلوقية إلى الأبد . وأراد خصوم بومبى فى روما القيام بأعمال تكسيبهم تأييد الجماهير ، فى مواجهة المكائنة التى تمتع بها بومبى ، فتقدم كراسوس Crassus ، أحد زعماء الحزب الديقراطى ، بمشروع لضم مصر إلى ممتلكات الدولة الرومانية ، واختار كراسوس شاباً ينتمى إلى إحدى العائلات النبيلة ، يدعى يوليوس قيصر Julius Caesar ، للقيام بهذه المهمة ^(١) . إلا أن هذا المشروع لم يقدر له النجاح . بسبب معارضة الحزب الجمهورى .

ولم تكن معارضة الحزب الجمهورى لمشروع ضم مصر ، نابعة من الحرص على استقلالها ، بل لشعور رجال هذا الحزب بأن نجاح هذا المشروع ، من شأنه أن يؤدى إلى تعزيز مكانة الحزب الديقراطى فى روما . وألقى الخطيب الرومانى المشهور شيشيرون ، خطبة فى مجلس السناتو ، دافع فيها دفاعاً حاراً عن بطلميوس الزمار ، مما كان له أكبر الأثر فى إفشال مشروع ضم مصر .

وفى عام ٥٩ ق.م. بينما كان يوليوس قيصر يشغل منصب القنصل فى روما ، قدم له بطلميوس الزمار رشوة كبيرة ، وعقد معه اتفاقاً يتضمن موافقة الرومان على الاعتراف بطلميوس الزمار ملكاً على مصر ، وصديقاً للشعب الرومانى . دون أن يتضمن القرار إشارة إلى قبرص . وفى العام التالى (٥٨ ق.م.) أعلنت روما رسمياً ضم جزيرة قبرص إلى ممتلكاتها ، مما أدى إلى انتحار ملك قبرص ، وهو شقيق بطلميوس الزمار فى نفس الوقت . ولم ينس بطلميوس الزمار بكلمة واحدة ضد ما فعله الرومان ، مما أدى إلى ثورة شعب الإسكندرية عليه ، وطرده من المدينة ^(٢) .

(1) Cary, H.H, op. cit. p. 245 .

(2) C.A.H. IX, p. 531

بعد طرده من مصر ، يم الزمار وجهه شطر روما ، لكي يطلب من الرومان إعادته إلى العرش . وراح يئس القادة الرومان بمكافآت سخية ، إذا عاد إلى العرش ، وكان يتزل في ضيافة بومبي زعيم الحزب الجمهوري ، وكان هذا الأخير يتطلع إلى القيام بمهمة إعادة بطلميوس الزمار . إلا أن السناتور في عام ٥٧ ق.م. أسند إلى متصل ذلك العام القيام بهذه المهمة . وأعقب ذلك وقوع حادث كان ينظر إليه على أنه نذير شؤم لدى الرومان ، وهو نزول صاعقة على تمثال الإله جوبيتر ، كبير الآلهة عند الرومان ، وحين طلب السناتور من العرافين تفسير هذا الحدث ، أفادوا بأنه لا ينبغي استخدام القوة لإعادة الزمار إلى العرش . لذا تقرر تشكيل بعثة للذهاب إلى الإسكندرية ، لإعادة الملك المخلوع بالطرق الدبلوماسية . واحتتم الخلاف مرة أخرى ، حول الشخصية التي ينبغي إسناد رئاسة البعثة إليها . ولا ضاق بطلميوس الزمار ذرعاً ، من طول الانتظار ، قرر أن يلجأ إلى والي سوريا ، التي أصبحت ولاية رومانية ، كما سلف القول ، وكان هذا الوالي من أتباع بومبي ، ووعده بمكافأة كبيرة ، إذا أعاده إلى العرش .

في عام ٥٥ ق.م. اندفع جابينيوس Gabinius ، والي سوريا الروماني ، في اتجاه الحدود المصرية . بعد أن حصل على الضوء الأخضر من بومبي^(١) ، ولم يعبأ بالحصول على إذن السناتور في روما . وقد ارتكب هذا الوالي خطأين ، مما يستوجب محاسبته ، أولهما هو شن الحرب بدون استئذان السناتور ، وثانيهما الإقدام على عمل سبق للسناتور أن حذر من القيام به. ويرر جابينيوس تصرفه بأنه كان في حالة دفاع عن النفس ، لأن قوات الملكة التي أقامها السكندريون ، بعد طرده الزمار ، كانت تتحرض بالقوات الرومانية .

عندما وصلت القوات الرومانية ، إلى بلوزيون ، بوابة مصر الشرقية ، قامت الحامية اليهودية التي تتولى مهمة الدفاع عن بلوزيون ، بتسليم المدينة إليهم ، فأصبح الطريق مفتوحاً إلى الإسكندرية ، وتمكنت القوات الرومانية من دخول الإسكندرية . وكان من الممكن أن يقوم الرومان آنذاك ، بإعلان مصر ولاية رومانية ، ولكن الخلافات الحزبية في روما ، هي التي حالت دون تنفيذ هذه الخطوة . وتمت إعادة بطلميوس الزمار إلى عرشه مرة أخرى^(٢) ، وعاد جابينيوس إلى سوريا ، بعد أن ترك حامية ، لكي تشد أزر بطلميوس الزمار .

(1) Bowman, A.K, op. cit. p. 33 .

(2) Rostovtzeff, M, op. cit. p. 876

تعد الفترة ما بين عامي ٥٥ - ٥١ ق.م. من أسوأ فترات تاريخ مصر في عصر البطالة . فقد أخذ بطلميوس في ملاحقة خصومه ، والتشكيل بهم ، وقام بإعدام الكثيرين منهم ، وأولهم ابنته التي عيستها الإسكندريون ملكة بعد طرده من مصر . وكانت الديون قد تراكمت على بطلميوس الزمار ، فأراد أن يطمئن دائنيه الرومان على أموالهم ، فقام بتعيين أحدهم ويدعى رابيروس Rabirius ، في منصب وزير المالية (١) ، وأطلق يده في شئون البلاد ، مما أدى إلى ثورة الإسكندريون ، وهروب رابيروس من مصر ، وفي عام ٥١ ق.م. مات بطلميوس الزمار تاركاً ولدين وابنتين ، وكان قد أوصى بأن تتزوج كبرى بناته ، وتدعى كليوباترة السابعة . من شقيقتها بطلميوس الثالث عشر ، وأن يحكما سوريا ، وأن يتولى الرومان تنفيذ هذه الوصية .

كليوباترة السابعة ٥١ - ٣٠ ق.م:

تولت كليوباترة العرش وعمرها سبعة عشر عاماً (٢) ، بينما كان عمر شقيقتها وزوجها وشريكها في العرش ، عشر سنوات ، وبعد ثلاث سنوات ضاقت كليوباترة ذرعاً من تسلط رجال البلاط ، وأرادت أن تمارس السلطة بشكل مستقل ، مما أدى إلى إثارة قلق رجال القصر . فأخذوا يحيكون الدسائس حولها ، متهمين إياها بالتآمر على حياة شقيقتها ، لكي تنفرد بالحكم ، وتحجوا في إثارة شعب الإسكندرية ضدها ، مما دفعها إلى الهرب من الإسكندرية ، خوفاً على حياتها ، وتوجهت إلى الحدود الشرقية . لكي تجمع قوات تمكنها من العودة إلى العرش . وأقنع رجال البلاط ملكهم الصغير بطلميوس الثالث عشر ، بضرورة التصدي لكليوباترة ، فزحف بقواته شرقاً ، وواظب بالقرب من بلوزيون ، استعداداً للدخول في معركة فاصلة مع شقيقته .

وإذا ما تركنا مصر ، وتوجهنا بأبصارنا إلى روما ، فإننا نجد أن المواجهة بين الحزب الجمهوري بقيادة بومبي ، والحزب الديمقراطي بقيادة يوليوس قيصر ، وصلت إلى ذروتها ، ووقعت بين الطرفين معركة فاصلة في بلاد اليونان ، هي معركة فارسالوس Pharsalos في عام ٤٨ ق.م. (٣) . التي أحرز فيها قيصر نصراً باهراً على خصمه ، وفر بومبي إلى مصر لكي

(1) C.A.H. IX. p. 621

(٢) عن هذه الملكة بشكل عام انظر ، زكي على ، كليوباترة - سيرتها وحكم التاريخ عليها .

(3) Cary. H.H., op cit. pp. 271 - 3 .

يطلب معاونة صديقه بطليميوس الزمار ، وحين علم بأمر الخلاف بين أبنائه ، توجه إلى الشرق ، لكي يلتبس ضيافة بطليميوس الثالث عشر . وعقد الأوصياء ، على الملك الصغير جلسة لبحث طلب بومبي . وأصبح مصير بومبي العظيم ، متوقفاً على ما يتخذه مجلس يضم بعض الخدم ، على حد تعبير المؤرخ بلوتارك^(١) .

يصف بلوتارك اللحظات الأخيرة من حياة بومبي بقدر كبير من التأثير ، فإن مجلس الأوصياء بعد مداوولات كثيرة ، قرر التخلص من بومبي ، حتى لا يعطى ذريعة لقيصر ، لاحتلال مصر ، وأسند المجلس إلى أخيلاس قائد الجيش البطلمي ، مهمة قتل بومبي ، فترجعه أخيلاس في قارب مصطحباً معه ثلاثة آخرين ، لإحضار بومبي من سفينته التي كانت ترابط بعيداً عن الشاطئ . وعندما اقترب القارب من السفينة ، حيا ركابه بومبي وطلبوا منه النزول ، فاستجاب لهم وقبل زوجته وابنه ، وراح يردد أبياتاً من الشعر للشاعر سوفوكليس ، يقول فيها إذا دخلت بيت طاغية ، أصبحت عبداً له ، وإن جئت إليه حراً . وعندما وصل القارب إلى الشاطئ ، هم بومبي بالنزول ، وأمسك بيد واحد من مرافقيه . وفي هذه اللحظة عاجله الياقون بطعناتهم من الخلف^(٢) ، ولم يفعل بومبي شيئاً ، بل جذب طرف عبائه ، وغطى به وجهه ، ومات في جلال يليق بقائد عظيم مثله . وقام القتلة بعد ذلك بقطع رأسه ، وألقوا جثته عارية على الشاطئ . وتتصادف مرور جندي روماني بعد ذلك ، فتقام بإحراق الجثمان حسب الطقوس الرومانية .

في يوم ٢ أكتوبر من عام ٤٨ ق.م. وصل يوليوس قيصر ، إلى الإسكندرية ، في أثر عدوه . وسارع رجال البلاط السكندري بعرض رأس بومبي وخاقه على قيصر^(٣) ، ظناً منهم أن هذا التصرف كفيل بإرضائه ، ولكن قيصر حزن ، وأغرورقت عيناه بالدموع ، عندما رأى رأس بومبي .

أخذ يوليوس قيصر ، يسير في شوارع الإسكندرية ، تحف به شارات السلطات التي كان يتمتع بها ، بوصفه دكتاتوراً في روما ، وقد استفز هذا المشهد سكان الإسكندرية ، الذين

(1) Plut. Pomp. 77 2 .

(٢) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

3) C.A.H. IX, p. 669

فاض بهم الكيل ، من التدخل الروماني في شئون بلادهم ، وبدأ لهم قيصر وكأته يتصرف كفاتح منتصر ، وليس مجرد زائر للمدينة ، كما اعتقد السكندريون أن قيصر جاء يطالب بديون روما ، على بطلمبوس الزمار ، مما يعنى فرض المزيد من الضرائب عليهم .

ومن ناحيته كان قيصر يردد أنه جاء إلى مصر ، لكي ينفذ وصية الزمار ، التي تقضى بوضع أبناء بطلمبوس تحت وصاية الرومان ^(١) ، وأرسل قيصر في استدعاء كليوباترة وشقيقها ، وبينما استجاب بطلمبوس الثالث عشر ، وحضر إلى الإسكندرية ، فإن كليوباترة خشيت على حياتها إذا حضرت جهاراً ، فاضطرت إلى الحضور متخفية ، بعد أن حملها أحد أعوانها في داخل سجادة ، وطلب مقابلة قيصر ، وعندما انفراد به فتح السجادة ، فخرجت كليوباترة ، التي استطاعت أن تؤثر على قيصر من اللحظة الأولى ، وأقنعت برجعة نظرها . وعندما حضر شقيقها إلى القصر في اليوم التالي ، أحس بانحياز قيصر إلى كليوباترة ، ثار ثورة عارمة لفت أنظار الجساحير التي كانت تحيط بالقصر ، وأخذت الجموع تلتف حول القصر . مما اضطر قيصر إلى الخروج لتهدئتهم ، وقرأ عليهم وصية بطلمبوس الزمار ، وفي محاولة منه لامتصاص ثورتهم ، وعدهم بإعادة قبرص إلى ممتلكات مصر .

على الرغم من نجاح قيصر بعد ذلك في التوفيق بين كليوباترة وشقيقها ، فإن الأوصياء على الملك الصغير ، ساءمهم أن يتم هذا التصالح ، فأخذوا في إثارة السكندريون ضد قيصر وجنوده ، وأصدروا الأوامر إلى الجيش الذي كان مرابطاً عند الحدود الشرقية في بلوزيون ، بأن يزحف إلى الإسكندرية ، وتخرج موقف قيصر الذي حوصر في الحى الملكى ، واضطر إلى إحراق سفنه التي كانت ترسو في الميناء ، حتى لا يستولى عليها أعداؤه ، مما تسبب في إحراق مكتبة الإسكندرية العظيمة ، التي كانت تقع بالقرب من الميناء .

وهكذا بدأت تلك الحرب المعروفة بحرب الإسكندرية ^(٢) ، وكاد قيصر أن يلقى الهزيمة ، لو لم تنقذه وصول الإمدادات من حلفائه في الشرق . وقد انتهت هذه الحرب في عام ٤٧ ق.م. بانتصار قيصر ، وموت بطلمبوس الثالث عشر غريقاً ، وحسم قيصر مسألة العرش البطلمي ، بأن أعلن كليوباترة ملكة على البلاد ، على أن تتزوج من شقيقها الصبي الصغير ، بطلمبوس

(١) C.A.H. IX. p. 670 .

(٢) عن حرب الإسكندرية ، انظر : Cary, M, op. cit. pp 273 - 5 .

الرابع عشر ، وقضى يوليوس قيصر الشتاء فى مصر ، مستمتعاً بصحبة كليوباترة ، وقاما معاً برحلة نيلية إلى صعيد مصر . ولما كانت الأحوال فى روما تتطلب عودة قيصر على وجه السرعة ، فإنه اضطر للرحيل تاركاً فى مصر ثلاث فرق لمساندة كليوباترة .

وفى صيف عام ٤٧ ق.م. أثمرت علاقة قيصر بكليوباترة ، حين أنجبت ابنًا أطلقت عليه بطلميوس قيصر ، إلا أن السكندريون سخروا من هذا الاسم وأطلقوا عليه قيصرون ، ومعناه قيصر الصغير ، وفى العام التالى أرسل قيصر إلى كليوباترة ، لى تلتحق به ، فذهبت إلى روما ومعها بطلميوس الرابع عشر وقيصرون ، ونزلت فى قصر يوليوس قيصر ، وحرصت على أن تحيط بنفسها بمظاهر الأبهة الشرقية . مما أثار استعاض الرومان ، الذين نظروا إليها باعتبارها محظية لقيصر ، وليست زوجة له ، لأن زوجته كانت على قيد الحياة .

وقد أثارت الحماوة التى قابل بها يوليوس قيصر كليوباترة ، ثائرة الرومان ، قراحوا بنسجون الأقاويل حول رغبة قيصر فى إقامة ملكية ، على الطراز الشرقى ، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى الإسكندرية بدلاً من روما^(١) . والحقيقة أن مصرفات قيصر وبعض أتباعه ، أدت إلى تعزيز تلك الأقاويل . وكان الرومان يتأهبون للثأر من البارثيين (فى بلاد الفرس) ، الذين قهروا جيشاً رومانياً ، وظهرت نبوءة مؤداها أن الرومان لن يهزموا البارثيين . إلا إذا كانوا تحت قيادة ملك . لذا فقد تقدم أنصار قيصر باقتراح يقضى بمنح قيصر لقب ملك على الولايات ، حتى يتسنى له هزيمة البارثيين ، وتقرر عقد جلسة لمجلس السناتو لمناقشة هذا الاقتراح ، فى يوم ١٥ مارس عام ٤٤ ق.م. إلا أن أنصار النظام الجمهورى ، الذين نفذ صبرهم من مصرفات يوليوس قيصر ، الذى كان يرمى فى اعتقادهم إلى تفويض النظام الجمهورى ، قاموا باغتياله وهو بهم بدخول قاعة السناتو قبل الجلسة^(٢) .

تبخرت الآمال التى كانت تعقدها كليوباترة ، ووجدت نفسها وحيدة فى روما ، فلم يكن أمامها غير الفرار . فعادت إلى مصر بعد الأحداث مباشرة ، فى أوائل شهر أبريل . وبعد وصولها بفترة تخلصت من شقيقها بطلميوس الرابع عشر ، وأشركت معها فى الحكم ابنها قيصرون ، الذى ادعت أنها أنجبتة من الإله آمون ، الذى تمثل لها فى شخص قيصر^(٣) .

(1) C.A.H. IX, p. 748 .

(2) Cary. M., op. cit. p. 281

(3) Bowman. A.K. op. cit. p. 35 .

وفى روما سادت الفوضى فى أعقاب مصرع قيصر ، وأصيب الناس بحالة من الوجدوم ، إلا أن القنصل ماركوس أنطونيوس M. Antonius ، تمكن من الإمساك بزمام الموقف . وقرأ وصية قيصر على الملأ ، ولعل أهم ما ورد فى هذه الوثيقة ، إعلان قيصر أنه تبنى أوكتافىوس Octavius ، حفيد شقيقته بوليا ، وأنه منحه اسمه وثروته . وكان هذا الشاب الصغير فى اليونان عندما تم اغتيال قيصر ، وعلى الفور شد الرجال إلى روما ، وعندما وصل إلى روما ، قال إنه جاء إلى المدينة لكي ينتقم لقيصر ، لا لكي يرثه ، وتجمع حوله أنصار قيصر ، وأخذت الأصوات تتعالى بضرورة القصاص من القتلة ، وتحالف أنطونيوس مع أوكتافيانوس ، ومضيا فى تعقب القتلة ، وعلى رأسهم كاسيوس Casius وبيروتس Brutus ، وفى عام ٤٢ ق.م. وضمت الحرب بين الطرفين أوزارها ، وتحقق النصر لرجال قيصر فى معركة فيليبى Philippi ، التى دارت رحاها ببلاد اليونان^(١).

اقتسم كل من أنطونيوس وأوكتافىوس العالم الرومانى ، فيما بينهما ، فتولى أنطونيوس الإشراف على الولايات الشرقية ، بينما كانت الولايات الغربية من نصيب أوكتافىوس ، أما إيطاليا فتم الاتفاق على أن تكون مشاعاً بين الاثنين . وعندما توجه أنطونيوس إلى الشرق ، أرسل إلى بعض القادة ، لكي يحضروا إليه لتوضيح موقفهم خلال الصراع بين قتلة قيصر وأنصاره ، ومنهم كليوباترة التى وقفت موقفاً متخاذلاً آنذاك ، فلم تعد المساعدة إلى رجال قيصر ، بل اكتفت بإرسال الفرق الرومانية ، التى كان قيصر قد تركها فى مصر . ويبدو أن تلك الملكة الذكية لم تشأ أن تزعج بنفسها فى حرب ، لم يكن معروفًا من سيكون الرابع فيها . وذهبت كليوباترة إلى أنطونيوس ، فى موكب أسهبت المصادر فى الحديث عن فخامته^(٢) ، ونجحت فى التأثير على أنطونيوس ، فقبل على الفور الميررات التى ساقتها أمامه . وغادرت أفيسوس عائدة إلى الإسكندرية ، بعد أن وجهت إلى القائد الرومانى دعوة لزيارة مصر ، وهى دعوة صادقت هوى فى نفس أنطونيوس .

ما أن قرغ أنطونيوس من تنظيم أحوال ولاية سوريا ، حتى بادر بالذهاب إلى الإسكندرية ، لكي يقضى فيها شتاء عام ٤١ - ٤٠ ق.م. وحتى ذلك الحين ، ظلت علاقته طيبة مع أوكتافيانوس . ولكن فى أثناء غياب أنطونيوس فى الشرق ، تمكن أوكتافيانوس من كشف

(1) Cary M, op. cit. pp. 288-90 .

(2) Plut. XXVI 1-4 .

مؤامرة ضده ، من تدمير زوجة أنطونيوس وشقيقه . وسيطر الشك على أوكتافيانوس حول ضلوع أنطونيوس في هذه المؤامرة ، مما أدى إلى تدهور العلاقة بين القائدين . وكادت الحرب أن تقع بينهما ، لولا المساعي التي بذلها أصدقاؤ الطرفين ، والتي كللت بالنجاح ، وبخاصة بعد وفاة زوجة أنطونيوس . وعقد الصلح بين الطرفين في عام ٤٠ ق.م. وهو الذي يعرف بصلح برنديزي Brundisium ، ومن أجل تدعيم هذا الصلح ، تم زواج أنطونيوس من أكتافيا ، شقيقة أوكتافيانوس (١) .

ولكن العلاقة ما لبثت أن تدهورت بين القائدين ، مرة أخرى ، بسبب شك كل منهما في نوايا الآخر ، وبما زاد الطين بلة ، قسام أنطونيوس باستئناف علاقته بكلبياترة ، وإعلانه الزواج منها ، واعترافه بالتوأم الذي أنجبته منها كإبنة شرعية له ، وقطع شرطاً أبعد في تحديه لأوكتافيانوس ، حين أعلن أن قيصرون هو الابن الشرعي ليووليوس قيصر . ومضى أنطونيوس في ارتكاب المزيد من الحماقات ، ومنها على سبيل المثال أنه في أعقاب النصر الذي أحرزه في أرمينيا في عام ٣٤ ق.م. ، خالف العرف الذي يقضى بإقامة مهرجان النصر في روما ، واحتفل في الإسكندرية ، وقام بتوزيع الولايات التي فتحها على كليوباترة وأبنائها ، واصفاً إياها بأنها الملكة أم الملوك ، كما أن إهماله لزوجته الوقية أوكتافيا ، كانت من العوامل التي أفقدته حب الرومان .

موقعة أكتيوم ونهاية دولة البطالة :

أخذت دعاية أوكتافيانوس ، تنفث سمومها ضد أنطونيوس ، ويمكن أوكتافيانوس من الحصول على صورة من وصية لأنطونيوس ، تتضمن رغبته في أن يدفن في الإسكندرية بعد وفاته ، وكانت هذه الوصية هي ثالثة الأثافي . مما زاد من سخط الرومان على أنطونيوس ، واستعدادهم للحرب ضده ، لأنه في نظرهم أصبح مجرد أداة طيعة في يد امرأة أجنبية ، كانوا يرون فيها نموذجاً مجسداً للفجور (٢) . وراح أوكتافيانوس يستعد للحرب ، وأخذت كليوباترة

(1) Cary M, op. cit. p. 291 .

(٢) صور شعراء الرومان هذا الصراع . على أنه صراع بين الشرق والغرب إذ يقول الشاعر پرويريوس Properius : المرأة المبتذلة حتى بين خدمها . التي طالبت زوجها الفاسق بأسوار روما نعم لقد اجترأت الملكة العاهرة . ملكة كابوب الدنسة ، على أن تواجه إلهنا جوبيتر بأنوبيس الذي ينبع كالكلب .

ترجمة هذه الأبيات عن عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

من ناحيتها تشجع أنطونيوس . وركز أوكتافيانوس دعايته على القول بأنه لا يحارب أنطونيوس ، المواطن الروماني ، ولكنه يحارب كليوباترة الملكة الأجنبية .

أعد الطرفان عدتهما للمعركة الفاصلة ، فوضع أنطونيوس قواته في منطقة اكتيوم Actium ، على الشواطئ الغربية لبلاد اليونان ، ونصح رجال أنطونيوس قائدهم بإبعاد كليوباترة عن الظهور في ميدان القتال ، وإرسالها إلى مصر ، غير أن كليوباترة كانت تخشى من نجاح أوكتافيا في التوفيق بين أنطونيوس (زوجها) وشقيقها أوكتافيانوس ، لذلك فقد أصرت على البقاء^(١) ، وقد أدى ظهور كليوباترة بهذا الشكل إلى تأكيد دعاية أوكتافيانوس ، مما كان له أكبر الأثر في خفض الروح المعنوية لدى جنود أنطونيوس ، وإلهاب مشاعر جنود أوكتافيانوس من ناحية أخرى . وفي خريف عام ٣١ ق.م. جرت أحداث موقعة أكتيوم ، حيث لقي أنطونيوس هزيمة ثقيلة ، أما كليوباترة فقد أخذت أسطولها وهربت من ميدان القتال ، في اتجاه مصر ، وعلى الفور ترك أنطونيوس جنوده في ميدان القتال ، وسار في أثرها^(٢) .

بحاوله المؤرخ بلوتارك إلقاء تبعه الهزيمة على كليوباترة ، لأنها هي التي أقنعت أنطونيوس بخوض معركة بحرية ، على الرغم من أنه كان متفوقاً في البر^(٣) . ويعتبر هذا المؤرخ في توجيه سهام الاتهام إلى كليوباترة ، فيقول إنها نظمت سفن الأسطول ، في شكل يجعلها قادرة على الفرار في أي لحظة^(٤) . إلا أنه لا يمكن قبول هذه الاتهامات على علاتها ، والقبول بمستولية كليوباترة عن الهزيمة .

حسنت موقعة أكتيوم الموقف لصالح أوكتافيانوس ، وأصبح الطريق إلى الإسكندرية ممهداً أمامه ، فقسم قواته إلى قسمين ، جعل القسم الأول منها تحت قيادة كورنيليوس جالوس Cornilius Gallus ، أما القسم الثاني فقد تولى قيادته بنفسه . وتقدم القسم الأول لدخول مصر من الغرب ، فاستولى على مدينة برايتونيون Paratonion (مرسى مطروح الحالية) ، وفي الوقت ذاته تقدم أكتافيانوس من الشرق ، فاستولى على بلوزيون ، وتقدم صوب

(1) Plut. LVI, 1-5 .

(٢) قمرقة تفاصيل هذه المعركة ، انظر ك إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ج ١ ، ص ٣٦٩ - ٣٦٦ .

(3) Plut. LXIV, 1 - 2 .

(4) Plut. LXIII, 5 .

الإسكندرية ، وعندما اقترب من المدينة خاض معه أنطونيوس معركة يائسة ، هزم فيها ، وانقض الكثيرون من حوله ، وانضموا إلى خصمه ، وسيطر عليه إحساس باليأس ، فقرر الانتحار ، وبخاصة عندما تسرب إليه نبأ بأن كليوباترة قد انتحرت ، ولكن عندما تبين له كذب هذه الإشاعة وهو في النزاع الأخير ، طلب أن يحمل حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديها ، وتم تلبية رغبته .

دخل أوكتافيانوس الإسكندرية مكللاً بالنصر ، وحاولت كليوباترة أن تتفاوض معه ، وعرضت عليه أن تتنازل عن العرش لأبنائها ، إلا أنه راح يماطل في قبول عرضها ، وكان قد وعد الرومان بأنه سوف يحضرها إلى روما ، لكي يسوقها في موكب النصر ، وحينما أدركت كليوباترة ما يرمى إليه القائد الروماني ، فضلت الانتحار على أن " تدخل في ثياب الذل روما ، وتعرض كالسبي على الرجال " .

وماتت بـلدغة الحية المقدسة ، وبعد ذلك أمر أوكتافيانوس بقتل قيصرين ، الذي كان يرى فيه منافساً خطيراً له ، أما أبناء كليوباترة من أنطونيوس ، فقد أخذهم معه إلى روما ، وأعطاهم إلى أوكتافيا ، لكي ترعاهم بصفتهم أبناء زوجها الراحل .

وهكذا سقطت دولة البطالمة إلى الأبد ، وتخلصت روما من هذا الكابوس ، الذي جثم على صدرها . والحقيقة أن كليوباترة تعد من أكثر الشخصيات إثارة للجدل ، فقد وصفها تارن Tarn ، وهو من أعظم الأساتذة المتخصصين في العصر الهلينيستي ، بأنها أعظم خلفاء الإسكندر^(١) ، وقد تأثر المؤرخون في حكمهم على كليوباترة بالدعاية الرومانية ، التي راحت تلصق بها كل ما هو مشين . ولكن كليوباترة كانت تتمتع بالذكاء وقوة الشخصية ، وكانت تتقن الكثير من اللغات ، حتى أنها لم تكن تحتاج إلى مترجمين ، وتعد الوحيدة من ملوك البطالمة التي تعلمت اللغة المصرية^(٢) . وكانت على دراية بالكثير من العلوم ، ولم تكن قدرتها على التأثير على الرجال تابعة من جمال خارق ، بل أن مظهرها كان عادياً ، ولكنها كانت تستمد قوتها من ذكائها ، وسعة معارفها . لقد استطاعت كليوباترة أن تنتزع كلمات الإعجاب حتى من أعدائها ، فنجد الشاعر الروماني هوراتيوس Horatus الذي هاجمها كثيراً يصف موتها بأنه كان مرقفاً نبيلًا^(٣) .

(1) C.A.H. X. p. 111 .

(2) Bowman. A.K., op. cit. p. 25

(3) Horatus. Odesi. 37 21 32 .

وقد ألهمت شخصية كليوباترة الكثيرين من الكتاب والشعراء ، على مر العصور ، فكتبوا عنها^(١) ، واختلفت نظرتهم إلى هذه الملكة ، ولكن عندما نضعها في ميزان التاريخ فإننا يجب أن ننصفها ، فقد تولت عرش مصر ، وهي دولة ضعيفة ، تكالبت عليها القوى الخارجية ، ومزقتها الصراعات الداخلية ، وحتى لو اختلفنا حول الوسائل التي اتبعتها للمحافظة على استقلال بلادها ، فقد كانت هي الوسيلة الوحيدة أمامها للوقوف أمام الغطرسية الرومانية ، ويختم الأستاذ زكي على كتابه عن كليوباترة بالكلمات التالية " إنها ملكة قسا عليها الدهر ، فأثخنها بالطعنات والجراح ، حتى خرت كليسة ، وهي أحوج ما تكون إلى كلمة عدل وإنصاف"^(٢) . ويمكن القول في خاتمة هذا الحديث ، أن عهد كليوباترة كان يمثل صحوة الموت لدولة البطالمة .

(١) أنظر : أحمد عثمان . كليوباترة وأتطونيوس ، دراسة في فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقي ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، كما لا يغيب عن بالنا العمل العظيم الذي كتبه أمير الشعراء أحمد شوقي وهو المسرحية الشعرية " مصرع كليوباترة " والتي كتب فيها دفاعاً حاراً عن هذه الملكة .

(٢) زكي على : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

الفصل الثالث

حضارة مصر فى عصر البطالة

الديانة :

تمثل العميدة الدينية جانباً مهماً فى حياة الناس ، وتنعكس بشكل واضح ، على كافة مظاهر الحياة اليومية . ويمكن القول بأن المصريين عُرِفوا منذ القدم بتمسكهم بعقائدهم . وقد أدرك البطالة هذه الحقيقة ، وعلى الرغم من أصلهم الإغريقى ، ورغبتهم فى الظهور أمام العالم الإغريقى ، فى مظهر الحريصين على المحافظة على الحضارة الإغريقية ، فإن سياستهم الدينية بشكل عام ، اتسمت بروح التسامح . وأولوا الديانة المصرية اهتماماً كبيراً ، فساروا على نهج الإسكندر ، الذى كان حريصاً على التأكيد على انتسابه للإله آمون . وحرص على أن يتزوج فى منف على نهج الفراعنة ، بل إنه حمل ثلاثة من ألقاب الفراعنة^(١) . ويبدو أن بطلميسوس الأول حمل لقبين من تلك الألقاب ، أما بطلميسوس الثانى ، فقد حمل الألقاب الفرعونية الخمسة كاملة ، وذهب إلى مدى أبعد فى التشبه بالفراعنة ، حينما تزوج شقيقته أرسينوى الثانية ، جرياً على عادة الفراعنة . وإذا كان البطالة الثلاثة الأوائل ، لم تتم مراسم تنويجهم فى منف كفراعة ، وهو أمر ربما كان مرده ، إلى اعتقادهم بأنه لا حاجة بهم إلى هذا الإجراء ، باعتبارهم خلفاء الإسكندر ، الذى تزوج فرعوناً فى منف . إلا أن بطلميسوس الرابع حرص على أن يتم تنويجه فى منف ، على نهج الفراعنة ، ودرج البطالة من بعده على أن يقوموا بهذا الطقس . ولا يفوتنا أن نتذكر أن كليوباترة السابعة كانت تحرص على التشبه بالربة إيزيس .

(١) الألقاب الثلاثة التى حملها الإسكندر هى : ١ - حورس ، ٢ - نسوت بيشى (أى ملك مصر العليا والسفلى) ، ٣ - سارع (أى أمين رع) . عن الآراء التى دارت حول تنويج الإسكندر راجع : إبراهيم نصحي : المرجع السابق ج ٢ ، ص ١٤ .

قد حرص البطالمة على إظهار احترامهم للديانة المصرية ، وكان الإسكندر الأكبر قد بأدر بتقديم القرابين للآلهة المصرية ، فور دخوله إلى مصر ^(١) . وحذا بطلميوس الأول حذوه ، فقدم القرابين للآلهة المصرية ، وقام بإعادة تآليل الآلهة المصرية ، التى كان الفرس قد استولوا عليها ، أثناء احتلالهم لمصر . واهتم البطالمة جميعاً بإنشاء المعابد المصرية ، التى ما يزال البعض منها شامخاً حتى يومنا هذا . مثل معبد الإله حورس فى إدفو ، ومعبد حورس وسبك فى كوم أمبر ، ومعبد إيزيس فى قيلة ^(٢) . وهى معابد تقع جميعها فى صعيد مصر . ومنحروا تلك المعابد العطايا والأراضى .

وقد تمتع الكهنة المصريون بمكانة رفيعة فى البلاد ، وعلى الرغم من حرص البطالمة منذ البداية على إظهار احترامهم لهؤلاء الكهنة ، إلا أنهم كانوا يخشون من ريادة نفوذهم ، لذلك حرصوا على أن ينحصر دور رجال الدين فى ممارسة الشعائر . وأن يكونوا تحت رقابة رجال الملك ، فقامت الدولة بتعيين موظفين مدنيين لمراقبة النشاط الاقتصادي فى المعابد . ومن ناحيتهم ، حرص الكهنة على إظهار ولائهم للملوك . فكانوا يعقدون اجتماعاً سنوياً ، يصدرون فى أعقابه مرسوم الولاء للملك . ومن أشهر تلك المراسيم ، قرار كانوب الذى أصدره الكهنة ، فى عهد الملك بطلميوس الثالث فى عام ٢٣٧ ق.م ^(٣) . وكذلك القرار الذى حفظه لنا حجر رشيد ، والذى أصدره الكهنة ، فى عهد الملك بطلميوس الخامس فى عام ١٩٧ ق.م .

وإذا كان البطالمة الأوائل ، قد تمكنوا من تحجيم دور الكهنة ، فإن الشطر الثانى من عصر البطالمة ، شهد حصول الكهنة على المزيد من المكاسب . كنتيجة لضعف السلطة المركزية ، وحرص البطالمة الأواخر على إرضاء الكهنة . وبأتى ذلك فى إطار ازدياد أهمية المصريين ، بعد النصر الذى أحرزوه فى رفع عام ٢١٧ ق.م . وانقسم الكهنة المصريون فى موقفهم إزاء البطالمة ، فبينما حافظ كهنة منف فى الشمال على علاقتهم الطيبة بالملوك ، نجد أن كهنة الإله آمون فى طيبة ، ناصبوهم العدا ، وراحوا يحرضون المصريين على الثورة ضدهم .

(١) إبراهيم نصحي ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٢) بالإضافة إلى هذه المعابد الكبرى ، تشير الدلائل إلى أن بعض القرى الصغرى ، كانت تحتوى على عدد كبير من المعابد الصغيرة ، للآلهة المعبدة ، فإن قرية كيركيوسيريس التى لم يكن يزيد عدد سكانها فى القرن الثانى ق.م. عن ١٥٠٠ نسمة . كان يوجد بها ١٣ معبداً صغيراً . انظر : P.Test, 88 .

(3) Bowman. A.K., op. cit. p. 169 .

يأتي الإغريق في المرتبة الثانية ، بعد المصريين من حيث العدد ، وإذا كان المصريون يألّفون نظام الحكم الفردي ، فإن الأمر يختلف مع الإغريق ، الذين ينتمى غالبيتهم إلى دويلات المدن ، التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي ، وربما كان يسيطر على الحكم في بعضها أنظمة ديمقراطية ، لذا فقد شعر بالبطالة بالحاجة إلى إضفاء شرعية على حكمهم ، أمام رعاياهم من الإغريق (١) . فاستندوا إلى بعض المعتقدات في التراث الإغريقي . وطبقاً لهذه المعتقدات ، فإن مؤسسى المدن كانوا يستحقون أن يرفعوا إلى مصاف الآلهة ، ولما كان الإسكندر ومن بعده بطلميوس الأول من مؤسسى المدن ، فإنهما استحقا هذه المرتبة (٢) . فقام بطلميوس الأول بتأليه الإسكندر ، أما خطوة تأليه بطلميوس الأول فقد جاءت من خارج مصر ، حين أعلنت رودس تأليه بطلميوس الأول عرفاناً بما قدمه لها من مساعدات ، وأطلقت عليه لقب الإله المنقذ Soter . وتلى ذلك إنشاء عبادة أسرة البطالة ، وجاءت الخطوة الأولى على يد بطلميوس الثانى فى عام ٢٧١ - ٢٧٠ ق.م. حين قرر رفع والد به إلى مصاف الآلهة ، وربط عبادتهما بعبادة الإسكندر (٣) . وأصبح كل ملك يرتقى العرش يتمتع بهذه المكانة ، ويحمل لقباً إلهياً . ومن ناحية أخرى جرى استخدام الفلسفة السياسية ، فى إضفاء الشرعية على حكم البطالة ، وتم التركيز على أفكار بعض الفلاسفة ، التي كانت ترى أن الحكم الملكى هو أفضل أنظمة الحكم ، وأكثرها استقراراً .

أما عن موقف البطالة من الديانة الإغريقية ، فقد اتسم أيضاً بروح التسامح . وكان الإغريق الذين وفدوا إلى مصر ، حريصين أشد الحرص على الحفاظ على مظاهر قوميتهم ، فأحضروا معهم عباداتهم ، وحرصوا على ممارسة شعائر العبادة كما ألفوها فى بلادهم الأصلية ، ولما كان البطالة بدورهم يعتزون بأصلهم الإغريقى ، فقد شجعوهم على هذا . فانتشرت المعابد الإغريقية فى شتى أرجاء البلاد (٤) . وحرص البطالة على إقسامه علاقات

(1) C.A.H. VII pp. 112 - 4

(2) Bowman, A.K, op. cit. p. 170

(3) Rostovtzeff, op. cit., p. 268

(٤) تسجيل إحدى وثائق اليردى من القرن الثانى ق.م. وهو عدد كبير من المعابد الإغريقية فى قرية كركيوسيريس على سبيل المثال انظر ، P. Tebt. 39. 14 .

قوية مع مراكز العبادة في بلاد اليونان ، مثل جزيرة ديلوس ، وكذلك دلفي مقر عبادة الإله أبوللو . وأقاموا المهرجانات الدينية ، التي تشبه تلك التي كانت تقام في بلاد اليونان ، وكانوا يدعون إليها ممثلي المدن الإغريقية ، وخير مثال على هذه المهرجانات ، عيد البطوليمايا Ptolemaea الذي أقامه بطليموس فيلادلفوس تكريمًا لوالده .

وقد تأثر إغريق مصر بالعبادات المصرية ، وأخذوا يشبهون الآلهة المصرية بالهتهم ، فربطوا بين الإله آمون والإله زيوس Zeus كبير الآلهة في الديانة الإغريقية ، وكذلك ربطوا ما بين الإله حورس والإله أبوللو ، والربة حتحور المصرية بالربة أفروديت ربة الجمال في ديانتهم (٣) . إلا أن الإغريق بشكل عام كانوا ينفرون من عبادة الحيوانات التي كان المصريون يمارسونها .

إلى جانب المصريين والإغريق ، عاش في مصر العديد من العناصر الأجنبية ، لعل أبرزهم اليهود (٤) ، الذين ازداد عددهم بعد قيام بطليموس الأول بضم فلسطين . فانتشروا في سائر أرجاء البلاد ، وكانوا يشغلون حيا بأعمالهم في الإسكندرية ، وهو الحى الرابع . وقد سمح البطالمة لليهود بحرية ممارسة شعائهم . بل إن بطليموس الثانى أمر بترجمة كتب اليهود المقدسة إلى اللغة اليونانية ، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية Septuagint . ولم يتعرض اليهود للاضطهاد إلا في حالات نادرة . فعلى سبيل المثال كان بطليموس الرابع ، متحمسًا لعبادة إله الخمر ديونيسوس ، وأراد أن يفرضها على رعاياه . ومنهم اليهود ، الذين رفضوا الانصياع إلى رغبته فاضطهدهم ، كما اتبع البطالمة سياسة التسامح الدينى مع العناصر الأخرى . مثل الفرس والسوريين والعرب .

وقد أدرك بطليموس الأول أهمية تحقيق الوئام ، بين أهم عنصرين في البلاد ، أى المصريين والإغريق ، ولما كانت الديانة هى البوابة التى لا بد منها من أجل تحقيق هذه الغرض ، فقد أمر بتشكيل لجنة ليبحث هذا الأمر من رجال الدين المصريين والإغريق ، وضمت هذه اللجنة من بين أعضائها الكاهن المصرى مانيثون ، واستقر الرأى على إيجاد ديانة جديدة يتعبد لها الطرفان ،

(١) Bowman, A.K., op. cit p. 176 .

(٢) عن اليهود في مصر ، انظر : مصطفى كمال عبد العليم ، اليهود في مصر في عصرى البطالمة والرومان . القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٧ - ١٢٦ .

يكون محورها ثالث يتألف من سيرابيس Sarapis وإيزيس وحاربوكراتيس Harpocrates ، وليس هناك شك في أن إيزيس وحاربوكراتيس كانا إلهين مصريين ، أما سيرابيس فهو من حيث اختصاصاته الإله المصرى أوووريس ، ولكن تمثال سيرابيس الذى قدم للناس كان يتخذ هيئة إغريقية (١) .

والحقيقة أن سيرابيس قدم للإغريق في صورة إله إغريقى ، أما المصريون فقد نظروا إليه باعتبار إلههم القديم أوزيريس أبيس . واهتمت الدولة اهتماماً كبيراً بالديانة الجديدة . وتم إنشاء معابد لهذا الإله ، عرفت باسم معابد السيرابيون Serapeum ، لعل من أشهرها المعبد الذى أقيم فى الإسكندرية . وانتشرت هذه الديانة فى مناطق كثيرة من العالم (٢) . ولكن على الرغم من هذا الانتشار فإنها فشلت فى تحقيق الهدف المنشود من وراء إقامتها ، وهو التقريب بين المصريين والإغريق . فقد ظل كل طرف يسامح مع الديانة الجديدة باعتبارها امتداداً لديانته القديمة .

النظم الاقتصادية :

قامت النظم الاقتصادية والمالية على أسس شرقية ، مع إضفاء مسحة إغريقية لكى تتلائم مع الأهداف التى يرمى إليها حكام البلاد ، ولما كانت أهم الأهداف التى وضعها بطلميوس الأول أمام عينيه ، هى إقامة دولة قوية قادرة على أن تلعب دوراً مؤثراً ، فى سياسات العالم الهلنستى ، فإن تنفيذ هذا الهدف تطلب إقامة جيش وأسطول قويين ، وهذا يستتبع بالضرورة إقامة اقتصاد راسخ .

وكان الأساس الذى استندت إليه هذه النظم هو اعتبار مصر ضيعة oikos خاصة للملك . وقد انطلق هذا المفهوم من اعتبار البطالمة أنفسهم فراعنة مصريين ، ومن ناحية أخرى فهم خلفاء الإسكندر ، الذى استولى على مصر بحد السيف ، كما تؤكد هذا المفهوم بعد انتصار بطلميوس الأول على برديكاس فى عام ٣١٢ ق.م : وطبقاً لهذا المفهوم فإن الملك هو الذى

(١) عن هذه الديانة والمناقشات التى دارت حول أصل سيرابيس ، انظر الآراء الكثيرة التى دارت حول هذا الأمر : إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٧ - ١٩٩ .

(٢) وصلت عبادة الإله سيرابيس حتى بريطانيا فى عصر الرومان ، انظر : بل . المرجع السابق ، ص ٥٥ .

يملك أرض مصر وما عليها . ومن حقه أن يسخر جهود البشر فيما يراه صالحاً للبلاد . وكانت خزانة الدولة تسمى خزانة الملك BasilKon^(١) ، كما كان وزير المالية يسمى dioiketes ، وهو لقب يعنى القائم على شئون الضيعة ، ويصدق هذا القول على ممثل وزير المالية فى كل مديرية، وكان يسمى أويكونوموس Oikonomos^(٢) .

الزراعة :

اهتم البطالمة بالزراعة باعتبارها الركيزة الأولى للاقتصاد المصرى ، فوجهوا اهتماماً كبيراً إلى إصلاح نظام الري وشق القنوات وإقامة الجسور ، وشهد إقليم الفيوم على وجه الخصوص نشاطاً ملحوظاً فى تحسين شبكة الري والصرف ، وجرى استصلاح مساحات شاسعة من الأرض ، وإقامة قرى جديدة من أجل استيعاب الأعداد الكبيرة التى وفدت إلى البلاد من الإغريق . ومن أشهر تلك القرى قرية فيلادلفيا Philadelphia . كما تم إدخال الميكنة فى الزراعة والري ، والعمل على تحسين الزراعة من خلال إدخال زراعات جديدة ، وشهدت الثروة الحيوانية أيضاً تطوراً ملحوظاً ، وتم استيراد سلالات جديدة لكى تتلاءم مع حاجات البلاد .

وفىما يتعلق باستغلال الأرض الزراعية ، فإننا نعرف من إحدى الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عام ١١٨ ق.م.^(٣) إنها كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، أولاهما يطلق عليه الأرض الملكية go Basilike ، وهى الأراضى التى كان الملك يقوم باستثمارها بشكل مباشر ، فيقوم موظفو الإدارة المالية بعرضها فى مزاد علنى فى كل عام يتقدم إليها من يجد فى نفسه القدرة على زراعة الأرض ، ومن يربح عليه المزايدة ، يقوم بتوقيع عقد مع رجال الملك يحدد فيه بدقة التزاماته . وعلى القروم من أن هؤلاء المزارعين كانوا من الرجال الأحرار ، فبأنهم كانوا يخضعون لرقابة صارمة من رجال الملك . ولم يكونوا أحراراً فى الانتقال من مكان إلى آخر ،

(١) مشتقة من كلمة Basileus ومعناها ملك باليونانية .

(٢) بعد هذا الموظف عماد نظام الإدارة المالية ، فهو الذى يقوم بالإشراف على كافة مصادر الدخل الملكى . انظر : أبو اليسر نوح : مهام الأديكروتومرس (عامل المالية) فى مصر فى عصر البطالمة ، دراسة وثائقية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٨٠ .

(3) P. Tebt. 5.

وبشكل خاص فى موسم العمل^(١) . ولم يكن مزاولوا الملك أحراراً فى اختيار المحاصيل التى يزرعونها فى الأرض المستأجرة ، بل كانت الدولة تلزمهم ب زراعة محاصيل طبقاً للامحة محددة، ولا يجوز لمزارع حصاد المحصول قبل حضور موظفى الملك ، من أجل تقدير قيمة المحصول ، لضمان تحصيل مستحقات الدولة .

وقد تأثرت الأراضى الزراعية بالتدهور الذى لحق بكافة مرافق البلاد ، فى الشطر الثانى من عصر البطالة ، فقد أدى إهمال وسائل الري إلى انخفاض انتاجية الأرض ، وعزوف الأهالى عن التقدم لاستئجار أرض الملك ، فلجأت الإدارة إلى إجبار الأهالى على استئجار الأرض الزراعية ، وفرضت عليهم فى غالبية الأحيان شروطاً جائرة ، مما كان يدفعهم إلى التعبير عن الإحساس بالظلم ، وترك أراضيتهم والتجوء إلى المعابد ، فيما يعرف بظاهرة الهروب Anachorests ، وهى أشبه بنظام الإضراب فى عصرنا الحالى^(٢) .

أما القسم الثانى من الأراضى الزراعية فهو ذلك القسم الذى يطلق عليه أرض العطاء أو أرض السماح ge en aphasis ، وهو الذى يشمل الأرض التى يسمح الملك للأخريين بأن يقوموا بزراعتها نظير شروط محددة . وينقسم هذا النوع بدوره إلى خمسة أقسام هى ، ١- الأرض المقدسة ، ٢ - أرض الإقطاعات العسكرية ، ٣ - أرض الهبات ، ٤ - أرض المدن ، ٥ - أرض الامتلاك الخاص .

١ - الأرض المقدسة ge iera :

وهى الأرض التى كان الملوك يتحنونها للمعابد^(٣) . وهو تقليد درج عليه ملوك مصر منذ العصور القديمة . والأرض المقدسة نوعان ، الأول منها مخصص للمكهنة لكى يقوموا بزراعتها ،

(١) أخذت الإدارة البطلمية والإدارة الرومانية فيما يعد بنظام الموطن idia ، وهو نظام يعضى بأن يكون لكل شخص موطن محدد لايجوز له مبارحته إلا بعد الحصول على إذن من رجال الإدارة فى موطنه . عن هذا النظام راجع : أهر اليسر مرج : الدولة والفرد فى مصر فى عصر الرومان ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص ٤١ - ٥٢ .

(٢) عن هذه الظاهرة راجع : أهر اليسر مرج ، المرجع السابق ، الفصل الأول : عن ظاهرة الهروب فى عصر البطالة ، ص ٥٣ - ٧٧ .

(3) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 280

ويكون دخلها بمثابة راتب لهم . أما القسم الثانى فكان يخصص دخله للإلتفاق على شؤون العبادة ، وكانت المعابد تتمتع بوفرة زراعية كبيرة ، لذا فقد حرصت الدولة على إبقاء ثروات المعابد تحت رقابتها^(١) . إلا أن الشطر الثانى من عصر البطالمة شهد ارتقاء قبضة الدولة على المعابد ، بسبب ضعف الملوك الذين حرصوا على استرضاء الكهنة .

٢ - أرض الإقطاعات العسكرية ge Klerouchia :

اعتمد البطالمة فى تكوين جيوشهم على الجنود المرتزقة من الإغريق ، وقاموا بإقطاعهم مساحات من الأرض يكون دخلها بمثابة راتب لهم^(٢) . وقد أرادت الدولة من هذا النظام أن تحقق عدة أهداف ، أولها تشجيع هؤلاء الجنود على البقاء فى مصر ، وثانيها استغلال جهودهم فى استزراع مساحات جديدة من الأرض . وقد تراوحت مساحات الأرض حسب رتبة الجنى أو الضابط ، وكانت أصغر المساحات هى تلك التى كانت تمنح للجنود المصريين ، وإلى جانب الأرض كانت الدولة تمنح الجنى مسكنًا . وقد تفسرت أوضاع أراضي الإقطاعات العسكرية فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، فى عدة مظاهر لعل أبرزها ازدياد المساحات المخصصة للمقاتلين المصريين .

٣ - أراضي الهبات ge en doreai :

وهى الأرض التى كان البطالمة يمنحونها لكبار موظفيهم^(٣) ، وهى منحة شخصية يجوز للملك أن يستردها فى حالة ترك صاحبها للمنصب الذى يشغله . وخير مثال لهذا النوع من الأرض هى تلك الضيعة التى منحها بطليموس الثانى لوزير ماليته المعروف أبولونيوس Apollonios ، فى قرية فيلادلفيا ، وكان يقوم بإدارتها زينون Zenon الذى عرفنا الكثير عن جرائب الحياة فى مصر خلال هذا العصر بفضل الوثائق البردية التى تركها لنا^(٤) .

(1) P Text 703

(2) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 284

(3) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 289.

(٤) عن هذه الضيعة وشخصية زينون ، انظر : Rostovtzeff. M , A Large Estate in Egypt in the third Century B.C. Madisan. 1922 .

٤ - أرض الامتلاك الخاص ge ktemata :

وهو نوع من الأرض يدور جدل كبير بين الباحثين بشأنه ، في ضوء ما نعرفه من أن الشخص الوحيد في مصر الذي كان يجوز له امتلاك الأرض ملكية خاصة هو الملك ، ولكن من المرجح أن الدولة أرادت تشجيع الأفراد على استثمار أموالهم في استصلاح الأرض البور ، فمنحتهم حق تملك هذه الأراضي في حالة قيامهم باستزراعها .

٥ - أراضي المدن ge politike :

وهي الأراضي التي كانت الدولة تخصصها للمدن التي كانت تتمتع بوضع المدينة الإغريقية Polis ، مثل الإسكندرية ، وبطلمية Ptolemais ، التي أقامها بطلميوس الأول في صعيد مصر ، وكان مواطنو هذه المدن يتمتعون بحق تملك هذه الأراضي .

الصناعة :

كانت مصر منذ القدم موطنًا للعديد من الصناعات الهامة ، وإذا كان الملك البطلمي قد اعتبر نفسه الزارع الأول في مجال الزراعة فقد ماوس السياسة ذاتها في مجال الصناعة ، فكان الملك هو الصانع الأول ، وانطلاقاً من هذه الفكرة مارست الدولة سياسة الاحتكار الكلي في بعض الصناعات ، بينما اكتفت بالتدخل المباشر في صناعات أخرى ^(١) . ومصدرنا الأساسي عن سياسة الاحتكار التي مارستها الدولة في مجال الصناعة ، هي وثيقة بردية تعد من أطول الوثائق البردية التي ترجع إلى عصر البطلمية ، وهي الوثيقة التي تتضمن القوانين المنظمة للدخل الملكي ، والتي يرجع تاريخها إلى عهد الملك بطلميوس فيلادلفوس ^(٢) .

وقد احتكرت الدولة بشكل كامل صناعة الزيوت ، وكانت تعد من أهم الصناعات ، حيث يجرى استخراج زيت الزيتون والسمن والقرطم والخروع . وهي مواد ضرورية لحياة الناس . وكانت الدولة تلجأ إلى وسطاء هم الملتزمون ، الذين كانوا يشترون حق إنتاج الزيت في كل مديرية ، وكان هذا الحق يباع في مزاد علني يعقد كل عام في عاصمة المديرية ، ويضمنون حصول الدولة على كافة مستحققاتها بدقة . وكان الملتزم يتابع هذه الصناعة في كافة مراحلها .

(1) Preaux, C, L' economie royal des Lagides, pp. 61, ff .

(2) Revenue Laws of Ptolemy Philadelphos, ed. by, B.P Grenfell, Oxford, 1896 .

ابتداء من عملية إلقاء البذور في التربة ، ونضوج المحصول ، وحتى استخراج الزيوت وبيعها في السوق . ولم يكن الملتزم يتمتع بالحرية الكاملة وإنما كان يخضع لرقابة صارمة من موظفي الدولة (١) . لضمان التزامه الكامل بشروط العقد .

كما اشتهرت مصر بصناعة المنسوجات ، وعلى رأسها نسيج الكتان ، وقد احتكرت الدولة صناعة نسيج الكتان احتكاراً كلياً ، ومارست رقابة صارمة على كافة مراحل إنتاج هذا النسيج (٢) . أما صناعة المنسوجات الصوفية فكانت تتمتع بقدر أكبر من الحرية ، فلم تحتكرها الدولة احتكاراً كاملاً ، بل سمحت للأفراد بإنتاج المنسوجات الصوفية ، في نظير التزامات يؤديونها للدولة ، بالإضافة إلى هاتين الصناعتين ازدهرت في مصر صناعات أخرى كثيرة . مثل صناعة الورق من نبات البردي ، وصناعة الفخار والزجاج والشمع والجمجمة والعطور والحلى والأحجار الكريمة (٣) .

التجارة :

طبق البطلمية في مجال التجارة المعايير ذاتها ، التي طبقتها في مجال الزراعة والصناعة والتي تقوم على تدخل الدولة في كافة أوجه النشاط الاقتصادي . ففي مجال التجارة الداخلية أحكمت الدولة رقابتها على الأسواق ، وتدخلت في تحديد أسعار السلع ، وبخاصة تلك التي كانت تخضع لسياسة الاحتكار ، إلا أنها سمحت في أحيان قليلة بالتداول الحر لبعض السلع ، حيث كان سعرها يتحدد حسب حالة السوق . وهناك بعض السلع ذات الأهمية القصوى التي حرصت الدولة على متابعة حركتها في السوق بدقة شديدة ، مثل القمح ، فقد كان الملك البطلمي يعد من أكبر تجار القمح في العالم ، وكان لابد من اتباع هذه السياسة حتى يتمكن من الرضاء بتعهداته في السوق العالمية (٤) .

(1) P. Tebt 703

(2) Rostovtzeff. M., Social and Economic History of the Hellenistic World. p. 302

(3) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 370 .

(4) Rostovtzeff M., op. cit. pp. 381. FF .

كما انتعشت تجارة مصر الخارجية ، وأصبحت الإسكندرية من أهم المراكز التجارية في العالم ، ولم تكن الإسكندرية هي المنفذ التجاري الوحيد ، بل وجدت أيضاً العديد من الموانئ على البحر الأحمر ، بالإضافة إلى المنافذ البرية على طول حدود مصر . وكانت الدولة تسمح للتجار باستيراد ما يحتاج إليه مصر من الخارج في مقابل دفع جمارك محددة . كما قامت مصر بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب ، فكانت تقوم باستيراد منتجات أفريقيا وآسيا ، ثم تعيد تصديرها إلى أوروبا .

الحياة الاجتماعية :

كان الهدف الذي يرمى إليه بطليموس الأول ، هو إقامة دولة تستند على أسس شرقية ، مع إضفاء الصبغة الإغريقية عليها ، وإذا كان البطالة قد حرصوا على الظهور أمام رعاياهم من المصريين في مظهر الحكام الوطنيين ، فإنهم في نفس الوقت كانوا حريصين على الاعتزاز بأصلهم الإغريقي ، والاحتفاظ بعلاقات قوية مع بلاد اليونان ، لأنهم كانوا بحاجة إلى الإغريق للاستعانة بهم في إقامة دولتهم ، في المجال العسكري والإداري .

فتح البطالة أبواب البلاد على مصراعيها أمام الأجانب ، وعلى وجه الخصوص الإغريق ، فشحجروهم على الاستقرار في مصر ، وأختصوهم بالوظائف العليا ، وأغدقوا عليهم الهبات السخية ^(١) . وحرصوا على تهيئة المناخ الملائم لحياتهم في مصر ، ولما كان الإغريق يألفون العيش في ظل نظام المدن الحرة ، فإن البطالة قاموا بتطوير مدينة الإسكندرية لكي تأخذ طابع المدينة الإغريقية ، وإلى جانب هذه المدينة قام بطليموس الأول بإنشاء مدينة بطلمية في صعيد مصر . وربما كان الهدف الأول من وراء اختيار منطقة الصعيد لإقامة مثل هذه المدينة هو أن تكون منافساً لمدينة طيبة ، التي تعد أهم قلاع الحضارة المصرية . كما استمرت مدينة نقراتيس Naucratis التي أقامها الإغريق في مصر منذ العصر الصاوي ^(٢) ، في التمتع بنظمها الإغريقية ، والقيام بدورها كمركز للحضارة الإغريقية في مصر .

(١) عن الإغريق في مصر بشكل عام ، انظر :

Lewis, N, Greeks in Ptolemaic Egypt, Oxford, 1986 .

وكذلك :

'Dreux, C. Les Grecs en Egypte d'après Les Archives de Zenon, Bruxelles 1947

(٢) عن هذه المدينة انظر الفصل الخامس عن العلاقات بين مصر والإغريق . أبو اليسر فرح : النيل في

المصادر الإغريقية ، ص ٩ - ٣٤ .

ولم يقتصر وجود الإغريق في مصر على المدن الإغريقية ، بل انطلقوا في كافة أرجاء مصر ، وأقيمت من أجلهم قرى جديدة في إقليم القيوم ، كما سكنوا المدن والقرى القديمة ، جنباً إلى جنب مع المصريين ^(١) . وحرص الإغريق على إقامة تجمعات تحمل اسم المواطن التي أتوا منها في شكل جاليات Politeuma ، لها قوانينها الخاصة ، كما حرصوا على إقامة معاهد الجسمنازيوم Gymnosion ، التي تعد من أهم مظاهر المجتمع الإغريقي ، وهي معاهد لها وظيفة ثقافية وتربوية ، ورياضية ، بالإضافة إلى الدور الاجتماعي الذي كانت تقوم به ^(٢) .

ونظراً للمكانة التي يتمتع بها الإغريق ، فإنهم كانوا يعاملون المصريين معاملة تتسم بالتمتعالي ، ولكن منذ عهد بطليموس الرابع تغير الوضع قليلاً ، وأخذت الدولة في إنساح المحال أمام المصريين لتتولى وظائف أعلى ، إلا أن ذلك لا يعنى تحقق المساواة بين الإغريق والمصريين ، ولكن يمكننا أن نلاحظ وجود قدر أكبر من التفارب بين الفريقين ، فقد أقيمت للمصريين على تعلم اللغة الإغريقية ، واكتسبوا سعة من الثقافة الإغريقية . وحمل الكثيرون منهم أسماء إغريقية ، كما تأثر الإغريق بالكثير من مظاهر الحياة المصرية ، فتعلموا اللغة المصرية ، وعبدوا للآلهة المصرية ، واتخذوا أسماء مصرية .

وقد أدى انقطاع قدوم الإغريق إلى مصر في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، إلى تحقيق المزيد من التقارب بين الإغريق والمصريين ، وليس أدل على ذلك من تزايد حالات الزواج بين الطرفين ، إلا أن ذلك لا يبدل على ذوبان الإغريق في الكتلة السكانية المصرية ، فقد ظل الإغريق يعتزون بأصلهم .

وعلى الرغم من توافد الإغريق إلى مصر في أعداد كبيرة ، فإن المصريين ظلوا يشكلون الغالبية باعتبارهم سكان البلاد الأصليين ، وفي بداية الفتح المقدوني كانت توجد طبقة أرستقراطية مصرية ، يشقها الدينى والمدنى ، ويشتمل الشق المدنى في بقايا الشريعة العليا من المجتمع المصرى من كبار الملاك . وفي ظل سياسة الاقتصاد الموجه التي مارسها البطالمة ،

(1) Bowman A.K., op. cit. p. 122

(٢) عن الأحوال الاجتماعية للإغريق بشكل عام انظر : Rostavzeff. M , op. cit. pp. 330 - 332 .

تمت مصادرة ممتلكات هذه الفئة مما أدى إلى تقليص دورها الاجتماعي ، أما الشق الديني في هذه الطبقة فإنها تتحمل في رجال الدين المصريين ، وقد ظلت هذه الطبقة تتمتع بمكانة هامة طوال عصر البطالة^(١) . وقد تعاظم نفوذ رجال الدين المصريين في الشطر الثاني من عصر البطالة . بسبب حرص الملوك على اكتساب ودهم .

وتلى هذه الطبقة طبقة المحاربين ، وهي طبقة فقدت مكانتها في عصر البطالة الأوائل ، بسبب اعتماد هؤلاء في تكوين جيوشهم على الجنود الأجانب ، وإسناد مهام ثانوية إلى الجنود المصريين ، لذا فقد حرم المقاتلون المصريون من الامتيازات التي أُغذت على سواهم من الأجانب ، ولكنهم حينما منحوا فرصة الاشتراك في القتال ، وأثبتوا جدوتهم في معركة رفح عام ٢١٧ ق.م. وتحسنت أحوالهم بعض الشيء .

ثم تأتي بعد ذلك فئة الموظفين المصريين ، وفي بداية عصر البطالة أُسندت الوظائف الكبرى إلى الإغريق ، وظل المصريون يشغلون الوظائف الدنيا في الجهاز الإداري مثل وظائف الكتبة . وهي وظائف كانت تدر عليهم دخلاً يكاد أن يكفي لسد الرق .

ويأتي في قاعدة الهرم الاجتماعي ملايين المصريين ، الذين كان يعمل غالبيتهم في مجال الزراعة ، بينما عمل البعض منهم في مجال الصناعة والتجارة ، وكان أفراد هذه الطبقة يرسفون في أغلال الظلم ، ويعانون شغل العيش ، فقد وقعت على رؤوسهم النظم الاقتصادية الجائرة التي طبقها البطالة . والتي كان هدفها الأكبر توفير أكبر قدر من الدخل للسلوك ، حتى يتمتع هو ورجال الحاشية بأكبر قدر من الرفاهية ، على حساب الغالبية المحرومة من الشعب^(٢) .

ولكن على الرغم من تلك الظروف القاهرة التي فرضت على المصريين ، فإنهم حافظوا على عاداتهم وقرائينهم ، وظلوا يعبدون آلهتهم القديمة ، واستمرت المعابد المصرية تؤدي دورها

(1) Rostavzeff M., op. cit. p. 322

(2) Westorman, W L, The Ptolemies and the welfare of their subjects. American Historical Review XLIII. 1938. pp. 277 ff.

كخطط الدفاع الأول عن القومية المصرية ، فكان يتم فى داخلها تعليم اللغة المصرية ، التى تمسك بها المصريون ، وحتى هؤلاء الذين تعلموا اللغة الإغريقية منهم ، فإن الثقافة الإغريقية ظلت بالنسبة لهم مجرد قشرة خارجية ، وطريقاً للحصول على الوظائف فى الإدارة البطلمية^(١).

وإذا كان التقارب بين الإغريق والمصريين قد بدأ فى الظاهر ، فإن النور ظل كامئاً فى الأعماق ، فقد ظل المصريون ينظرون إلى الإغريق نظرتهم إلى غرباء عن البلاد اغتصبوا حكمها ، فظهرت فى الأدب الشعبى نبوءات راحت تبشر باقتراب اليوم الذى سيتم فيه طرد الغرباء من البلاد^(٢). وإذا كان الإحساس بالظلم قد سيطر على المصريين منذ بداية حكم البطالمة ، فإن قدرتهم على التعبير عن سخطهم كانت مكيلة . بسبب ماكانت تحتج به الدولة من موه وجبروت ، ولكن بعد عام ٢١٧ ق.م. تفجرت مرائل الغضب لديهم ، بعد أن عادت إليهم ثقتهم فى أنفسهم عقب النصر الذى أحرزوه فى موقعة رفح ، فاشتعلت ثوراتهم فى عام ٢١٦ ق.م.^(٣) وازداد أوارها ، وراح الكهنة يتفخخون فى النار ، ويحرضون المصريين على المزيد من التمرد ، فشهدت البلاد ثورة عنيفة فى عهد بطلميوس الخامس فى عام ١٨٤ - ١٨٣ ق.م. وفى الإسكندرية قام أحد الزعماء المصريين ويدعى بتوسيرايس Ptoiserapis بتزعم ثورة فى عهد بطلميوس السادس فى عام ١٦٥ - ١٦٤ ق.م. وفى عام ٨٥ ق.م. قاد بطلميوس التاسع قواته ضد الثوار المصريين فى طيبة ، وتمكن من إخماد الثورة وانتقم من المصريين بتخريب مدينتهم الخالدة طيبة . وما لاشك فيه أن هذه الثورات على الرغم من أنها لم تحقق الهدف الذى قامت من أجله ، وهو القضاء على الحكم الأجنبي ، فإنها ساهمت إلى حد كبير فى إضعاف دولة البطالمة .

(١) Bowman, A.K., op. cit. p. 122 .

(٢) بل : المرجع السابق ، ص ٥ .

(٣) عن ثورات المصريين ، انظر : إبراهيم نصحي : المرجع السابق ص ١٧٩ - ٢٢٤ .

مدينة الإسكندرية :

خصص آلان بومان A. Bowman الأستاذ بجامعة أكسفورد ، فصلاً من كتاب له عنوانه "مصر ما بعد الفراعنة " ، عن مدينة الإسكندرية ، واصفاً إياها بملكة البحر المتوسط . التي تعد أعظم منجزات الإغريق في مصر ، فقد ظلت لمدة ستة قرون ونصف أعظم مدن شرق البحر المتوسط . كما استمرت تناطح مدينة القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية لمدة ثلاثة قرون أخرى (١).

وقد بلغ الإعجاب بأحد الخطباء حدا جعله يبالغ بالقول بأن مصر هي مجرد ملحق لمدينة الإسكندرية (٢) . كما وصف المؤرخ ديودور الصقلي الإسكندرية بأنها المدينة الأولى في العالم المتحضر ، لأنها تتفوق على سائر المدن في الفخامة والاتساع والغنى (٣) .

يرجع تاريخ إنشاء مدينة الإسكندرية إلى العام الأول للفتح المقدوني لمصر (٤) ، فقد قرر الإسكندر الأكبر بعد أن تم تشريجه في منف ، أن يتوجه إلى معبد الإله آمون في واحة سيوة . فأبحر في الفرع الكانوبي لنهر النيل ، وعند مدينة كانوب نزل مع مراقبيه ، وسار بمحاذاة شاطئ البحر ، قاصداً برايتونيون Paraetonion (مرسى مطروح الحالية) . ومرت في طريقه بقرية صغيرة يسكنها الصيادون المصريون تسمى راكوتيس Rhakotis (٥) . تقع قبالتها في البحر جزيرة صغيرة تسمى فاروس Pharos ، فأعجب بهذا الموقع وقرر اختياره لإقامة مدينة تحمل اسمه . ويقال أن الإسكندر أراد إقامة مدينة تستطيع أن تتنافس مع مدينة صور الفينيقية ، التي كانت تحتل المركز الأول في عالم التجارة في شرق البحر المتوسط (٦) .

(1) Bowman. A.K., Egypt After the Pharaohs. pp. 203 - 33 .

(2) Dio of Pruse, Or 32 . 36 .

(3) Diod 17 52. 5

(٤) يذكر بلوتارتك أن تاريخ إنشاء المدينة على وجه التحديد هو يوم ٧ أبريل عام ٣٣١ ق.م. : Plut . Life of Alexander .

(٥) في الواقع كان يوجد في هذا الموقع ١٦ قرية . ولكن راكوتيس كانت أكبرها انظر : Fraser, P.M. , Ptolemaic Alexandria. p. 5 .

(6) Bell, H.L., Alexandria. J.E.A. XIII 1927. p. 171

أسند الإسكندر إلى دينوكراتيس Dinocratus مهمة تخطيط المدينة ، وكان يعتبر من أعظم مهندسي عصره . وتم إقامة جسر يربط ما بين جزيرة فاروس وقرية راكوتيس ، أطلق عليه هيبستاديون Hiptastadion (أى سبع ستاديون وهى وحدة قياس إغريقية) (١) . ونتج عن إقامة هذا الجسر ميناءان ، أحدهما يقع إلى الشرق وهو الميناء الكبير Magas Limen ، والآخر إلى الغرب وقد أطلق عليه " بونوستوس " Eunostos ، ويعنى العسود الحميد ، وهو الميناء المستخدم فى عصرنا الراهن (٢) .

والواقع أن فكرتنا عن تخطيط الإسكندرية ومعالمها ، نستمدّها بشكل أساسى مما ذكره الجغرافى إسترابون الذى زار الإسكندرية فى عام ٢٤ ق.م (٣) . وقد قام دينوكراتيس بوضع تخطيط للمدينة فى الشريط الرملى الذى ينحصر ما بين بحيرة مريوط والبحر . ومن الجدير بالذكر أن بحيرة مريوط ترتبط بالفرع الكانوبى لقنيل من خلال قناة (٤) . مما كان يؤمن احتياجات المدينة للمياه العذبة ، ويوفر طريق ملاحى للاتصال برادى النيل .

وقد جرى تخطيط شوارع الإسكندرية بشكل مستقيم ، وأهم هذه الشوارع شارعان يتقاطعان عمودياً . ويزيد عرض كل منهما على ثلاثين ياردة ، وتوجد على جانبيهما دهاليز بها أعمدة نساء ليلاً ، ويجتاز أحد هذين الشارعين المدينة من الغرب بادتاً عند الجبانة الغربية (القبارى) ، ومنتهياً عند كانوب فى الشرق (٥) . أما الشارع الرئيسى الآخر فكان يبدأ عند بحيرة مريوط ، وربما كان ينتهى عند جسر الهيبستاديون . ومن المحتمل أنه كان يتقاطع فى

(١) يبلغ طول هذا الجسر حوالى ١٣٠٠ متر

(2) Fraser, P.M., op. cit, p. 21 .

(3) Strabo. 17 .

(٤) عن هذه القناة ، انظر : أهر اليسر فرح : النيل فى المصادر الإغريقية ، ص ١٦٩ .

(٥) يحدث إسترابون بأن مدينة كانوب ، كانت مكاناً شياً السمعة يرتاده طلاب المنفعة والمهر :

وسطه تقريباً مع الشارع الأول . وينتج عن هذا الالتقاء ميدان كبير ، وكانت باقى الشوارع بشكل عام موازية لهذين الشارعين^(١) .

والحقيقة أنه لم يكن يدور فى خلد الإسكندر عندما قرر إقامة مدينته الجديدة ، أن يجعل منها عاصمة لمصر . وكان الرجال الذين عينهم الإسكندر لإدارة البلاد يمارسون مهامهم من منف . وفى البداية اتخذ بطلميوس بن لاجوس منف عاصمة له ، ولكن فى عام ٣٢٠ ق.م. قرر نقل العاصمة إلى الإسكندرية ، وربما جاءت هذه الخطوة لكى تعكس تحملاً فى فكر بطلميوس ، الذى كان يشاع إلى الإسكندرية فى أفكاره حول المساواة بين الشعوب ، إلا أنه ما لبث أن ارتد عن هذه الأفكار ، وأخذ يتصرف كرجل إغريقى ، يؤمن بتفوق الإغريق على ماعداهم من الشعوب ، ومن ثم فقد قرر اتخاذ الإسكندرية المدينة الإغريقية عاصمة لمصر . بدلاً من منف ، المدينة المصرية^(٢) .

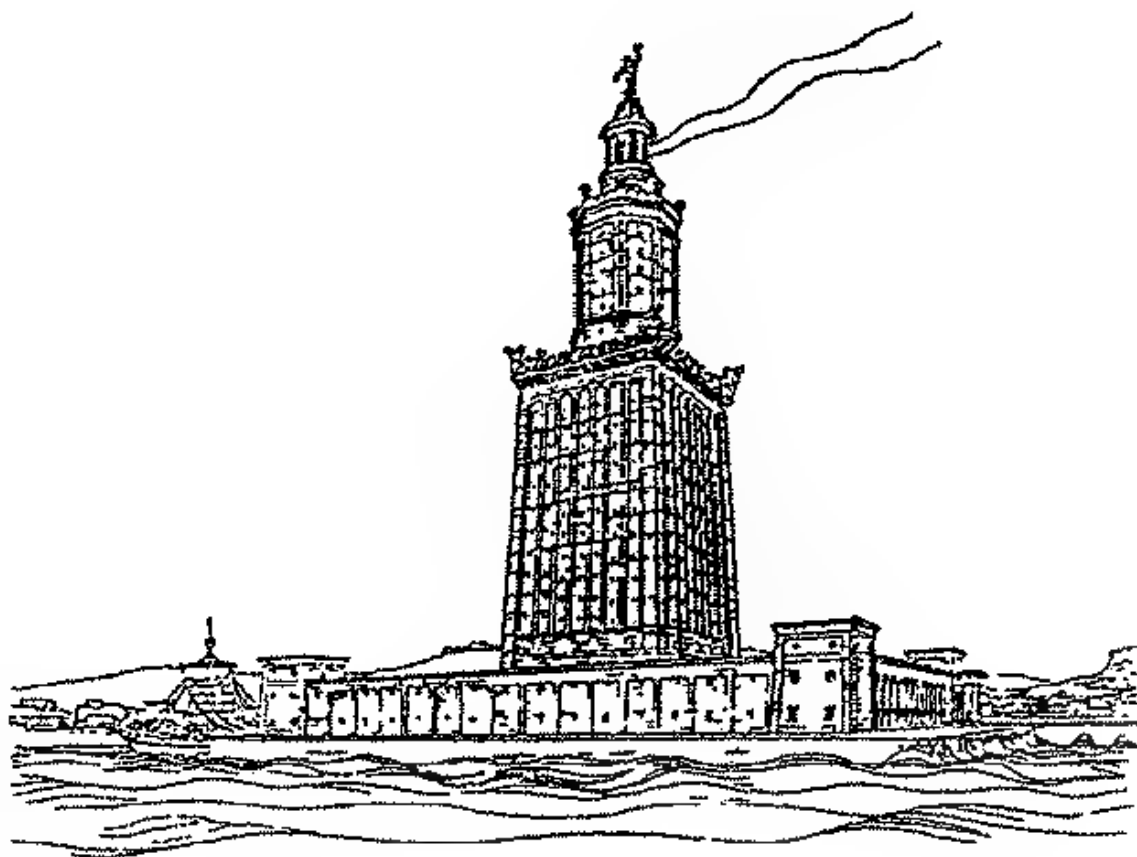
بعد نقل العاصمة إلى الإسكندرية ، أخذت المدينة تزدهر بشكل مضطرد . وفى جزيرة فاروس وقف شامخاً فنار الإسكندرية الشهير ، الذى كان يعد من عجائب الدنيا السبع . وينسب إنشاؤه إلى سوستراتوس من كيندوس Sostratos of Cnidus^(٣) . وقد اكتمل بناء الفئار فى أوائل عهد بطلميوس الثانى . وتم تكريسه إلى بطلميوس الأول وروجته " الآلهين المنقذين " . ويتألف من ثلاثة طوابق يصل ارتفاعها إلى ١٢٠ متراً ، وينبعث ضوء الفئار هادياً السفن فى البحر إلى مسافة ثلاثة أميال^(٤) .

(١) يذكر بلوتارك أنه لم تتوفر كميات من الجهر لوضع خطوط تحديد الشوارع ، فتم استخدام كميات من الحبوب المخصصة للجيش ، وقبأة ظهورت فى السما - أسراب ضخمة من الطيور ، من أجناء البحيرة . انقضت على الحبوب ولم تبق على شيء منها . فاضطرب الإسكندر لهذا المشهد ، ولكن مستشاروه أخبروه بأن هذا فآل حسن ، وأن هذا معناه أن المدينة ستكون مصدر خير عظيم ، وأنها سوف تجتذب إليها الناس من جميع أجناء العالم ، انظر : Plut. The life of Alexander .

(2) Bell, H.I., op. cit. p. 172 .

(٣) يرى البعض أن سوستراتوس هو الشخص الذى كان يتولى رعاية هذا المشروع ، وليس المهندس الذى وضع تصميمه كما هو شائع أنظر : Bowman, op. cit. p. 206 .

(٤) من فنار الإسكندرية . انظر : Fraser, P.M., op. cit. p. 17-21 .



فنار الإسكندرية

وتجدر الإشارة إلى أن مدينة الإسكندرية قسمت إلى خمسة أحياء ، وأول هذه الأحياء هو الحي الملكي الذي عرف باسم " بروخيون " Bruchion ، ويقع إلى الشرق من الميناء الكبير ، وتوجد فيه قصور البطالمة ، التي أخذ الملوك يضيفون إليها تباعاً ، حتى اتسعت رقعتها ، وأصبح الحي يشغل ربع مساحة المدينة ، أو الثلث كما يذكر البعض^(١) . ويضم الحي الملكي المنطقة التي تحوى مقبرة الإسكندر ومقابر البطالمة ، ويطلق عليها " السيمما " Sema^(٢) . ويحتوى الحي الملكي أيضاً على دار العلم Mousion ، التي كانت في الأصل معبدًا لربات الفن Musae ، وانحلت بها المكتبة الكبرى .

كما يوجد في الحي الملكي المعبد الذي أطلق عليه Caesarum ، الذي أقامته الملكة كليوباترة السابعة ، من أجل يوليوس قيصر أو أنطونيوس ، واستكمل بناؤه بعد الفتح الروماني ، وأصبح مخصصاً لعبادة الإمبراطور أوغسطس ، وهو بناء فخم . توجد أمامه مسلتان^(٣) . وقد ظل هذا المبنى يتمتع بمكانة هامة في الإسكندرية لفترة طويلة^(٤) .

ومن المنشآت العامة في مدينة الإسكندرية معبد السيرابيوم Serapeum ، الذي أقيم في موقع قرية راكوتيس القديمة ، وخصص من أجل العبادة الجديدة ، التي قرر إقامتها بطلميوس الأول ، مما جعل البعض يعتقد أن بطلميوس الأول هو الذي أقامه^(٥) . إلا أن الشواهد الأثرية

(١) حول تفاصيل هذا الحي راجع : Fraser, P.M., op. cit., pp. 1411 .

(٢) عن الجدل الذي يدور حول مقبرة الإسكندر وما تعرضت له انظر .

Fraser, P.M., op. cit. pp 15-17

(٣) ظلت هاتان المسلتان في مكانتهما حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم نقلت إحداهما إلى لندن والأخرى إلى نيويورك .

(٤) قرر الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) تحويله إلى كنيسة ، وهي كنيسة القديس ميخائيل وفي منتصف القرن الرابع ، أصبح المقر الرسمي لبطريرك الإسكندرية . وتعرض للتدمير خلال الاضطرابات التي وقعت بين أتباع المسيحية والوثنية في عام ٣٦٨ م . وفي عام ٤١٥ م شهد هذا المبنى العمل الوحشي الذي قام به بعض المتعصبين من المسيحيين ضد العائلة والفيلسوفة هيباثيا Hypatia . حيث جردت من ملابسها وتم سحلها في شوارع الإسكندرية حتى الموت : انظر : Bowman, A.K., op. cit. p. 207 .

(٥) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١٩٤ ؛ يوجد في منطقة عمود السواري ، حيث يوجد العمود الذي يطلق عليه خطأ عمود هرمي . الذي أقيم في عام ٢٩٩ م . تكرماً للإمبراطور دقنديانوس .

تؤكد أن بطليموس الثالث هو الذى أقام معبد السيرابيوم ، والحقت بهذا المعبد مكتبة الإسكندرية الصغرى .

وبالإضافة إلى المؤسسات السابقة ، وجدت مؤسسات أخرى مثل معهد التربية "الجمنازيوم" Gymnasium ، وساحة الألعاب الرياضية Stadion ، وحلبة سباق الخيل Hippodromos ، والمسرح . وخارج أسوار الإسكندرية ، كانت توجد المدافن Necropolis ، وانتشرت فى أرجاء المدينة الحدائق والمتنزهات العامة ، التى تزدان بالتقاويرات الجميلة ، فقد توسطت إحدى هذه المتنزهات نافورة ضخمة ، يعلوها تماثيل فيلادلفوس وأرسينوى الثانية ، اللذان أهديت إليهما النافورة (١) .

وبعد وفاة أرسينوى الثانية ، أعاد بطليموس الثانى تسمية الكثير من شوارع الإسكندرية ، لإضفاء مظاهر التكريم على شقيقته الراحلة ، حيث تم الربط بين اسم أرسينوى وبعض الرباط الإغريقيات مثل ديمتر وهيراو أفرودينى (٢) . ووجدت تحت سطح المدينة شبكة دقيقة من القنوات ، لإمداد المنازل بحاجتها من مياه الشرب ، ومن المرجح أن ساحة السوق العامة Agora كانت توجد فى وسط المدينة .

أما عن سكان الإسكندرية ، فيذكر ديودور الصقلى أن عدد السكان الأحرار بلغ ٣٠٠ ألف نسمة (٣) ، وهذا يعنى أن إجمالى عدد السكان قد يصل إلى نصف مليون (٤) . ويشكون النسيج السكانى فى المدينة من خليط من البشر ، على رأسهم الملك ورجال الحاشية ، والجيش وكبار الموظفين والقضاة والكهنة ، وكذلك العلماء والفلاسفة وطلاب العلم ، وتلاميذ المدارس من الفتيان والفتيات . ورجال الأعمال من أهل البلاد والأجانب ، والبقالون ، والحرفسون ، والباعة الجائلون ، والرجال الذين كانت مهمتهم إنارة الشوارع ، وعمال السفن والميناء والبحارة ، والمبيد ، ويمكن للمرء أن يستمع إلى العديد من اللغات ، ولكن الغلبة كانت للغة الإغريقية بلهجاتها المختلفة ، ولكن اللغة المصرية كانت هى السائدة فى الحى المصرى ، بينما

(1) Rostovizeff M. op. cit. p. 417

(2) Bell. I., op. cit., P. 175 .

(3) Diod. 17 52

(4) Bowman. A.K., op. cit. 208 .

كانت اللغة العبرية والآرامية تستخدم في الحى اليهودى . ويمكن للمرء أن يستمع إلى اللغة الهندية أيضاً في شوارع الإسكندرية (١).

وبما هو جدير بالذكر أن أحياء الإسكندرية الخمسة حملت أسماء الحروف الأولى للأبجدية اليونانية (٢). وكان أولها هى الحى الملكى كما أسلفنا ، وسكن الإغريق الحى الثانى والثالث، واليهود فى الحى الرابع ، أما المصريون فقد أقاموا فى الحى الخامس ، وهو موقع قرية راكوتيس القديمة .

شكل المقدونيون الذين أقاموا فى المدينة من البداية ، الشريحة العليا من السكان . وتشكلت منهم هيئة المواطنين Politai ، التى كانت لها الحق فى تسمية الملك من الناحية النظرية . ثم يأتى بعد ذلك الغالبية الباقية من السكان الذين وفدوا من مختلف أنحاء بلاد اليونان . وكانت الغالبية العظمى منهم تتمتع بحقوق المواطنة السكندرية . إلا أن بعض سكان الإسكندرية من الإغريق لم يكونوا يتمتعون بحقوق المواطنة (٣) ، ويتم تسجيل مواطنو الإسكندرية فى قبائل Phylae ، تنقسم بدورها إلى أحياء deme ، وتنقسم الأحياء إلى وحدات أصغر تسمى Phratri . وكان كل مواطن يضيف إلى اسمه اسم الحى الذى يقيم فيه ، دلالة على تمتعه بحقوق المواطنة ، أما النساء اللاتى ينتمين إلى هذه الطبقة ، فإنهن لم يكن يضمن اسم الحى إلى أسمائهن ، إلا أنهن كن يوصفن بلقب سكندريات .

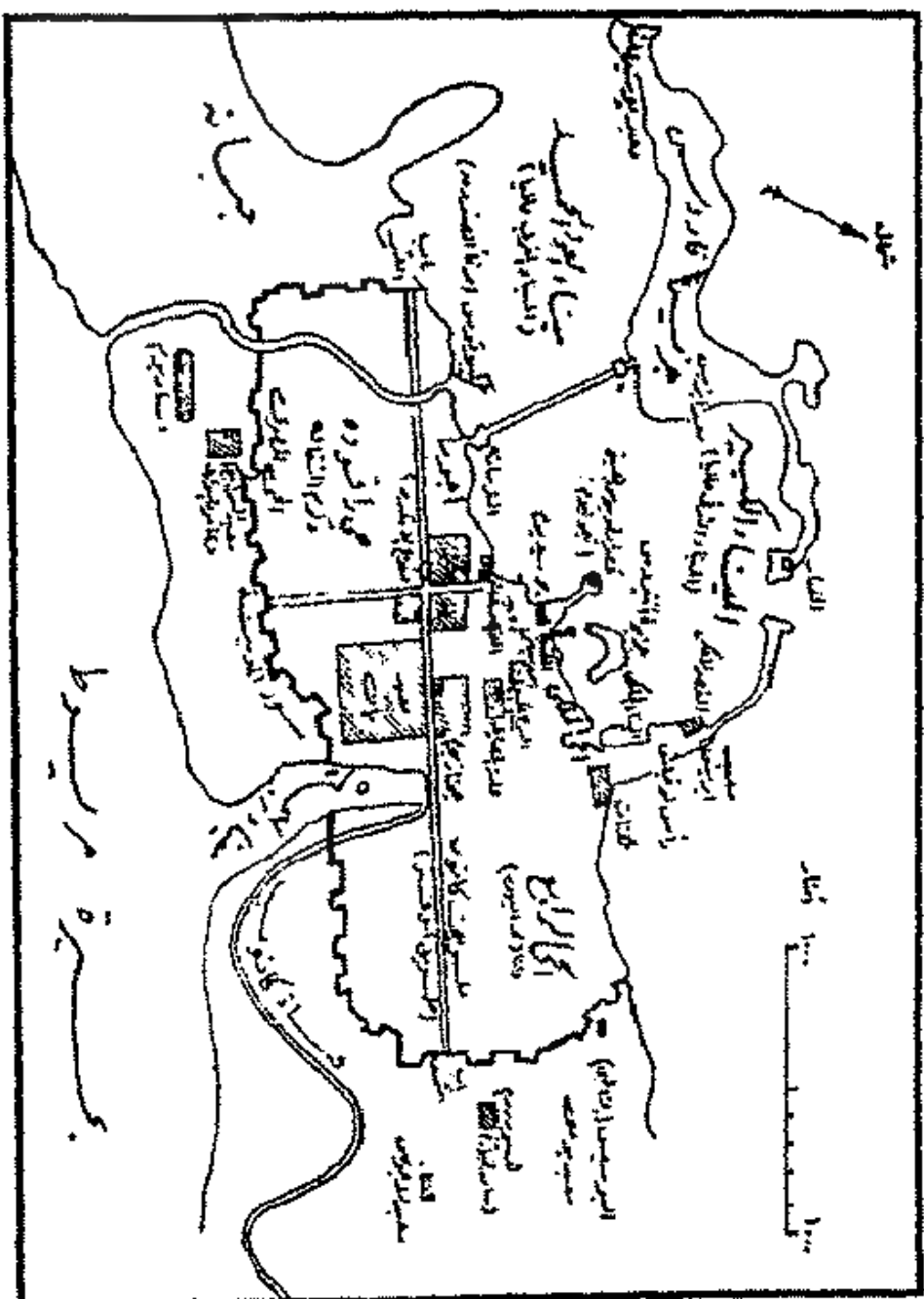
وكانت الطبقة الأرستقراطية فى الإسكندرية ، تنعم بمستوى معيشى مرتفع ، وتسكن فى منازل على درجة عالية من الفخامة . ويمكننا من خلال بعض الشعراء السكندريين أن نتعرف على مظاهر الحياة اليومية لأسرة سكندرية ، فنرى وصفاً داخلياً لأحد المنازل ، ونتعرف على النشاط اليومي لربة البيت ، ونرى كيف تستقبل ضيوفها ، وكيف تتعامل مع أبنائها وخدمها ، كما نتعرف على برامج الترفيه ، من خلال قيام هذه الأسرة بالتحضر فى شوارع الإسكندرية وميادينها العامة (٤).

(1) Rostovtzeff. M. op. cit. p. 418

(٢) الحروف الخمسة الأولى للأبجدية اليونانية هى ألفا A ، بيتا B ، جاما g ، دلتا d ، إبسيلون e .

(3) Bell. I., op. cit. p. 173

(4) Rostovtzeff. M. , op. cit. P. 419



خريطة الإسكندرية
 من كتاب الدكتور مصطفى البهادي «

والحقيقة أننا لا نعرف الكثير عن دستور مدينة الإسكندرية ، ولا نستطيع أن نقرر على سبيل المثال ما إذا كانت قد نشأت بوجود مجلس للشورى Boule ، أم لا ؟ ولا يعيب عن بالنا أن مجلس الشورى يعد من أهم مظاهر المدن الإغريقية ، ولعل أكثر الآراء قبولاً هو الرأي الذي يقول بأن الإسكندرية منحت مجلساً للشورى عند إنشائها ، وأن أحد الملوك قام بإلقائه . إلا أن مواطني الإسكندرية كانوا يمارسون حقوقهم من خلال المؤسسات الأخرى ، التي كانت توجد في المدينة ، وعلى رأسها معهد الجمنازيوم ، الذي يعد من أهم مظاهر المجتمع الإغريقي^(١) . الذي كان يترأسه شخص من ذوى المكانة العالية في المجتمع السكندري .

ويمكننا أن نلاحظ إزدياد الدور الذي قام به السكندريون ، في الشؤون السياسية في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، بسبب ضعف السلطة المركزية ، والأمثلة على هذا الدور كثيرة ، ففي عام ١٦٩ ق.م. حينما كان بطليموس فيلوميتور في قبضته أنطيوخس الرابع ، قاموا بتعيين شقيقه الأصغر ملكاً ، كما فرضوا على كليوباترة الثالثة في عام ١١٦ ق.م. أن تعين ابنتها الأكبر ملكاً ، وفي عام ٥٧ ق.م. قاموا بطرد بطليموس الرمار من مصر ، وعينوا ابنته ملكة على البلاد^(٢) . مما دعى يوليوس قيصر إلى القول بأن أهل مصر ، كانت لديهم عادة طرد الملوك الذين لا يرضون عنهم ، وتعين آخرين مكانهم^(٣) .

والى جانب الإغريق ، وجدت في الإسكندرية أعداد كبيرة من اليهود ، حتى أن الإسكندرية أصبحت من أهم المراكز اليهودية في العالم ، ولم تكن تقل في الأهمية عن أورشليم ويابل^(٤) . ويؤمن المؤرخ اليهودي يوسف ، أن الإسكندر الأكبر هو الذي أحضر اليهود وأنه اختصهم بالحق الرابع في المدينة . وهو قول لا يلقى قبولا لدى الدارسين ، لأن الإسكندرية كانت مجرد خطوط ، ولم تكن معالمها قد اتضعت ، حينما كان الإسكندر في مصر^(٥) . ومن المرجح أن بطليموس الأول هو الذي أحضر أعداداً من اليهود بعد أن استولى

(١) Bell. I., op. cit., p. 174 .

(٢) عن الدور الذي مارسه السكندريون في شؤون الحكم والسياسة . انظر : لطفى عبد الوهاب : دراسات في العصر الهلينيستي ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٣) Caesar De Bell. Alex. III. 110

(٤) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٥) Joseph. Apion. II 35 .

على أورشليم في عام ٣١٩ - ٣١٨ ق.م. ، كما جلب عدداً من الأسرى اليهود عقب موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م.

وقد مارس يهود الإسكندرية أنشطة متعددة ، وبخاصة في مجال المال والتجارة ، وكان بعضهم على قدر كبير من الثراء ، وربما اشتغل نفر منهم بالربا . وكان منهم الكثير من أرباب الحرف ، الذين كانت لجسمهم نقابة مهنية . وعلى الرغم من عدم تمتع يهود الإسكندرية بحقوق المواطنة ، فإنهم كانوا يشكلون جالية Politeuma ، ولهم مجلس للشيخوخة Gerousia ، ويرأسهم زعيم Ethnarches يتمتع بسلطات إدارية وقضائية واسعة .

ولم يكتف يهود الإسكندرية بالدور الذي مارسوه في النشاط الاقتصادي ، بل حرصوا على النزج بأنفسهم في خضم الشؤون السياسية ، في بعض الأحيان ، ففي عام ١٤٥ ق.م. تقدم الزعيم اليهودي أونياس الرابع على رأس قواته ، لمؤازرة كليوباترة الثانية في صراعها مع شقيقها يورجتمس الثاني . وعندما انتصر هذا الأخير ، انتقم من اليهود ونكل بهم . وفي عام ٥٥ ق.م. ساعد اليهود جابينيوس والى سوريا الروماني ، الذي قام بغزو مصر لإعادة بطليموس الزمار إلى العرش ، وقام يهود الإسكندرية بمؤازرة قيصر في حربه ضد السكندريين في عام ٤٨ ق.م. كما سارعوا بالترحيب بأوكتافيانوس عند دخوله إلى الإسكندرية في عام ٣٠ ق.م. وجرت عليهم هذه المواقف وغيرها كراهية السكندريين .

ويأتى في قاعدة الهرم الاجتماعي لمدينة الإسكندرية المصريون ، الذين كانوا يقيمون في الحى الخامس . وكانوا مستبعدين تماماً من هيئة مواطني الإسكندرية ، ولم يكن مسموحاً لهم بممارسة أى دور سياسى ، كما أن الزواج الذى يقع بين المصريين والإغريق لم يكن يتم الاعتراف به . إلا أن الاختلاط بين الطرفين أمر لا يمكن تفاديه ، ومن ثم فإن الامتزاج أصبح أمراً شائعاً ، يمكننا القول بأن الإسكندرية في أواخر القرن الثالث ق.م. كانت عبارة مزيج ثقافى وعنصرى (١).

وإذا أدركنا أن تلقى نظرة على الأحوال الاقتصادية في الإسكندرية ، فإنه يمكننا القول بأنها أصبحت أعظم المراكز التجارية في عالم البحر المتوسط (٢). وحتى يمكننا أن نفهم هذا القول

(1) Bell, L., op. cit., p. 174

(2) Dio. Or 32. 36 .

فإنه ينبغي أن تسترجع كلمات الخطيب ديون " فم الذهب " Dio Chrysostomos في خطبته التي وجهها إلى السكندريين قائلاً " إنكم لم تتمكنوا من إحكام السيطرة على الملاحة في البحر المتوسط ، بسبب روعة ميناتكم ، وعظمة أسطولكم ، وكثرة الأسواق التي تتوفر فيها منتجات من كل البلاد فقط ، ولكن أيضاً لأن المياه البعيدة تقع تحت سيطرتكم ، سواء أكانت مياه البحر الأحمر أو المحيط الهندي ونتيجة لذلك فإن تجارة العالم بأسره في أيديكم ، وليست تجارة الجزر أو الموانئ أو المضائق أو الأرخبيل فقط ، لأن الإسكندرية تتقع في ملتقى الطرق العالمية ، حتى تلك الطرق التي تؤدي إلى الأمم البعيدة ، إنها سوق تتمثل في شكل مدينة ، يجتذب إليه البشر من كل الأنحاء ، لكي يتعرفوا على بعضهم البعض ، ما أمكنهم حتى يصبحوا في النهاية كما لو كانوا ينتمون إلى عنصر واحد " .

وقد احتلت الإسكندرية هذه المكانة الهامة في مجال التجارة العالمية ، بفضل جهود البطالمة المتوالية من أجل تنشيط تجارة مصر الخارجية ، والبعثات الكشفية التي أرسلوها ، ونشاط علماء مدرسة الإسكندرية في مجال الدراسات الجغرافية ، فكانت ترد إلى أسواق المدينة منتجات أفريقيا ^(١) ، مثل العاج والأبنوس والذهب والتوابل ، وكذلك منتجات الهند والصين ، ومنتجات بلاد اليونان مثل زيت الزيتون والنبيذ والعسل والسكك المطح واللحوم والإسفنجة ^(٢) . وكان يوجد في الإسكندرية مندوبون تجاريون من بلاد كثيرة مثل فرنسا وإيطاليا وشمال أفريقيا وفارس . كما كانت الإسكندرية مركزاً لتصدير منتجات مصر ، وأهمها القمح الذي كان ينقل من سائر أنحاء البلاد عن طريق القوارب في النيل ، ويتم تجميعه في سوق القمح العظيمة في الإسكندرية ، كما كانت الإسكندرية تقوم بتصدير بعض المنتجات التي اشتهرت بضاعتها مصر ، مثل الزجاج ونسيج الكتان وأوراق البردي ^(٣) .

الحياة الثقافية :

أظهر البطالمة اهتماماً كبيراً بالعلم ، مما جعل الإسكندرية تحتل مركز الصدارة ، وتنفوق على أثينا ، وما لاشك فيه أن إنشاء دار العلم والمكتبة ، كان له أبعاد الأثر في اجتذاب

(1) Fraser, P. M., op. cit, p. 173 ff.

(2) Fraser, P. M., op. cit. p. 160 .

(3) Fraser, P.M., op. cit. pp. 135 ff .

العلماء والدارسين من شتى أرجاء العالم . ففي مجال العلوم والرياضيات بلغت مدرسة الإسكندرية شأنًا كبيراً ، واشتهر من علمائها إقليدس Euclides ، الذي وضع كتباً في أصول الهندسة (١) ، كما عرف أرشميدس Archimedes صاحب قانون الطفو ، وفي مجال الدراسات الطبية برع علماء الإسكندرية في التشريح والجراحة ، كما ساعد وجود حديقة الحيوان التي أقامها بطليموس الثاني ، على تقدم علم الحيوان Biology .

كما أوتت مدرسة الإسكندرية اهتماماً كبيراً للدراسات الجغرافية ، بفضل تشجيع البطانة ، وتوصل أرسطارخوس Aristarchos إلى نظرية دوران الأرض حول الشمس ، سابقاً كوبرنيكوس بعدة قرون ، كما لحج أراتوستينز Eratosthenes في قياس محيط الكرة الأرضية ، ولم يختلف تقديره عما توصلت إليه الدراسات الحالية إلا بخمسين ميلاً فقط ، كما لقيت الدراسات التاريخية الاهتمام ذاته ، وكانت ثمرة ذلك الاهتمام الكتاب الذي وضعه الكاهن المصري مانيشون ، عن تاريخ مصر القديم باللغة اليونانية ، وعلى الرغم من ضياع غالبية أجزاء هذا الكتاب ، فإن التقسيم الذي وضعه هذا المؤرخ هو المتبع حتى عصرنا الراهن .

وشهد الأدب ازدهاراً كبيراً ، حتى أن الأدب اليوناني برمته في هذا العصر يطلق عليه الأدب السكندري (٢) . واشتهر من شعراء هذا العصر كاليماخوس Calimachos وثيوكريتوس Theocritos ، ويمكن القول بأن علماء مدرسة الإسكندرية هم الذين وضعوا أسس النقد الأدبي ، وعكفوا على دراسة الأدب اليوناني القديم ، وكانت أعظم إنجازاتهم نشر ملاحم هوميروس وتاريخ هيرودوت ، وكذلك أعمال كبار شعراء الدراما الإغريقية (٣) . وما هو جدير بالذكر أن دار العلم التي تقع في الحى الملكي ، هي أشبه بالجامعات في عصرنا الراهن ، وهي مكان يقيم فيه العلماء ، ويلقون فيه دروسهم على الطلاب ، وكان هؤلاء العلماء منقطعين للعلم ، ولا يمارسون عملاً آخر ، فقد كانت الدولة تجرى عليهم الرواتب ، لكي تكفيهم مؤونة البحث عن لقمة العيش .

(١) Bell. I., op cit., p. 177

(٢) عن الأدب في هذا العصر انظر : محمد حمدي إبراهيم ، الأدب السكندري ، القاهرة ١٩٨٥ .

(٣) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

وترتبط بدار العلم مكتبة الإسكندرية الكبرى ، التى يرجع تاريخ إنشائها إلى عهد بطلميوس الأول ، وكان أول من ترأس دار العلم والمكتبة ديمتريوس الفاليري ، وهو أحد تلاميذ أرسطو ، وكان أيضاً أحد رجال السياسة فى أثينا ، ومن أشهر الذين تولوا هذا المنصب فيما بعد الشاعر كاليماخوس والجغرافى ارانوستشينيذ . ويفضل الرعاية المستمرة للبطالة أصبحت مكتبة الإسكندرية ، أعظم مكتبات العالم القديم . فقد دأب بطلميوس الثانى على إرسال البعثات إلى بلاد اليونان من أجل إحضار الكتب ، كما أصدر بطلميوس الثالث قراراً بفرض على كل قادم إلى الإسكندرية ، أن يقدم مائديه من كتب إلى المكتبة ، حيث يقوم المكتبة بنسخها وإعطاء صاحبها نسخة معتمدة ، مع الاحتفاظ بالنسخة الأصلية ، وقد بلغ عدد المخطوطات التى احتوتها المكتبة ، ما يقرب من نصف مليون لفافة بردية ^(١) . وبالإضافة إلى المكتبة الكبرى تم إنشاء مكتبة أخرى ألحقت بمعبد السيرايبوم .

ولم تقتصر محتويات مكتبة الإسكندرية على الكتب اليونانية ، بل تضمنت كتباً بلغات أخرى مثل الفينيقية ، وربما ضمت أيضاً كتباً بالهندية ، بعد أن أرسل أسوكا Asoka حاكم الهند ، رسالة إلى بطلميوس الثانى داعياً إياه إلى اعتناق الديانة البوذية ^(٢) .

وقد ظلت مكتبة الإسكندرية تقوم بدورها على الوجه الأكمل ، إلى أن تعرضت للتدمير فى عام ٤٨ ق.م. خلال حرب الإسكندرية ، وهى الحرب التى خاضها يوليوس قيصر ضد جيش بطلميوس الثالث عشر والسكندريين ، ومن الغريب أن استرايون الذى زار الإسكندرية فى عام ٢٥ ق.م. ، أى بعد الحريق بثلاث وعشرين عاماً ، لم يشير إلى المكتبة فى وصفه للعالم الإسكندرية . وبعد حريق المكتبة الكبرى انتقل مركز النشاط العلمى إلى المكتبة الصغرى فى معبد السيرايبوم ، ويبدو أن وجود هذه المكتبة فى حرم المعبد ، كفل لها نوعاً من الحماية ، ولكن هذا المعبد فقد ما كان يتمتع به من توقير ، بعد انتصار المسيحية ، وأقول لحجم الوثنية ، ففي عام ٣٩١ ميلادية أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس قراراً بتدمير المعابد الوثنية ، وعلى أثر ذلك قام الأسقف ثيوفيلوس على رأس مؤيديه بالهجوم على معبد السيرايبوم وتدمير

(١) لم تكن البشرية قد توصلت إلى الكتاب فى شكله المألوف حالياً ، ومن ثم فقد كانت المخطوطات عبارة عن لفافات من البردى .

(٢) بل - أيلرس : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٧٢ .

محتوياته^(١) ، ومن ثم فإن العرب حينما دخلوا مصر كانت مكتبة الإسكندرية أثرًا بعد عين ، ولا صحة للرواية التي تنسب إلى العرب والمسلمين حريق مكتبة الإسكندرية ، وهو أمر يتفق عليه الباحثون^(٢) .

(١) عن مكتبة السيرايموم راجع : مصطفى المهادي ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ - ١٩٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : Bowman, A.K., op. cit., p. 225 .

الفصل الرابع

قيام دولة روما

وقصة التوسع الرومانى

العصر الرومانى هو ذلك العصر الذى خضعت فيه بلدان الشرق الأدنى للحكم الرومانى ، وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، والسؤال الذى يطرح نفسه هو ما هى الإمبراطورية الرومانية ؟ وكيف تمكنت من بسط سيطرتها على بلدان الشرق الأدنى ؟ ، إن الإجابة على هذه الأسئلة تقتضى منا أن نعود بالذاكرة إلى الوراء ، لكى نتحدث عن مدينة روما ، وكيف تحولت من مدينة صغيرة قامت على ضفاف أحد الأنهار فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية ، إلى دولة تمكنت من فرض سيطرتها على كافة أرجاء إيطاليا ، ثم ما لبثت أن انطلقت بعد ذلك لكى تقيم إمبراطورية كبرى ، شملت غالبية بلدان المعمورة ، ومن بينها الأراضى التى تقع حول البحر المتوسط ، الذى كان يحتل قلب العالم القديم ، حتى غدا هذا البحر بحيرة رومانية ، وكان يحلو للرومان أن يطلقوا عليه عبارة Mare Nostrum أى « بحرنا » . إن قصة تحول روما من مدينة إلى إمبراطورية قد رواها لنا المؤرخ الإغريقى بوليبيوس Polybius الذى كان يحمل إعجاباً شديداً بالرومان (١) .

كانت روما واحدة من المدن التى قامت فى إقليم لاتيوم ، وهو إقليم يقع فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة الإيطالية (٢) ، وعرف سكانه باسم اللاتين Latini ، وكان الرومان جزءاً من

(١) - عن هذا المؤرخ راجع : عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى ، ص ٥٥ - ٥٩ .

(٢) عن إقليم لاتيوم انظر :

Gary M. The Geographic Background of Greek and Roman History. pp. 128 - 130 .

هذا الشعب ، ويتحدثون لغته ، وهي اللغة اللاتينية . واللاتين هم من الشعوب الإيطالية ، فقد درج المؤرخون على تقسيم سكان شبه الجزيرة الإيطالية في الفترة المبكرة ، إلى قسمين رئيسيين ، أولهما القسم الذي يضم الشعوب الإيطالية ، ويأتي في مقدمتها اللاتين ، بالإضافة إلى بعض الشعوب الأخرى ، مثل القبائل السمنية .

أما القسم الآخر فإنه يضم الشعوب التي يطلق عليها ، الشعوب غير الإيطالية ، ويقصد بها الشعوب التي وفدت إلى إيطاليا من مناطق أخرى ، مثل الإغريق والإتروسكيون . فمن المعروف أن الإغريق خرجوا من بلادهم في عصر الانتشار والاستيطان ، في الفترة ما بين عامي ٧٥٠ ، ٥٥٠ ق.م. تقريباً ، وراحوا يستعمرون مناطق كثيرة في حوض البحر المتوسط وما حوله^(١) . وكان لمناطق جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية ، حظ وافر من نشاط الإغريق الاستيطاني ، حيث أقاموا فيها العديد من المدن والمستعمرات ، التي تحولت إلى مراكز إشعاع للحضارة الإغريقية ، في مناطق الجنوب الإيطالي ، وكان للإغريق أثر واضح على الرومان من الناحية الحضارية ، ويكفي أن نذكر في هذا المجال أنهم نقلوا حروف الكتابة الإغريقية إلى إيطاليا ، التي امتزجت بالكتابة الإتروسكية ، لكي تخرج لنا حروف جديدة هي التي كتبت بها اللغة اللاتينية . كما أن الأدب الروماني قد خرج من عبائة الأدب الإغريقي ، وإن كان قد اتخذ سمة مختلفة ، تعكس إلى حد بعيد الشخصية الرومانية ، التي تختلف بشكل كبير عن الشخصية الإغريقية .

أما الشعب الآخر من الشعوب غير الإيطالية ، فهم الإتروسكيون ، سكان إقليم إتروريا Etruria ، وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم توسكانيا^(٢) ، وقد ثار جدل بين المؤرخين حول أصل الإتروسكيون ، فهناك من يرى أنهم من الشعوب الأصلية في شبه الجزيرة الإيطالية ، وهناك من يرى خلافًا لذلك ، ويقول بأن هؤلاء القوم قد وفدوا من خارج إيطاليا ، ومن بينهم المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت ، الذي ذكر أن الإتروسكيين جاؤوا من منطقة ليديا في آسيا الصغرى ، حيث أدى وقوع مجاعة في تلك المنطقة إلى هجرة سكانها إلى الخارج ، إلا

(١) للحصول على معلومات مفصلة حول هذه الحركة راجع : سيد الناصري - الإغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، ص ١٣٤ - ١٧٢ .

(2) Cary, op. cit. p. 123 - 6 .

أن بعض المؤرخين يرفضون هذا الرأي ، ويرون أن الإتروسكيين من الشعوب الإيطالية الأصلية ، وأنه يوجد اختلاف واضح ما بين لغة الإتروسكيين ونظمهم ، ونظم أهل ليديا ولقنتهم ، واضطر فريق آخر من الباحثين إلى اللجوء إلى علم الأثنولوجى (علم الأجناس) فى محاولة لحسم هذه القضية (١) .

وعلى أية حال ، فإننا إذا ما نحينا جانباً هذا الجدل الدائر حول أصل الإتروسكيين ، فإنه يمكننا القول بأن الإتروسكيين أقاموا حضارة ازدهرت فى عدة مدن ، وأدت طبيعة إقليم إتروريا إلى قيام عدة وحدات سياسية ، ثم تعرف طريقها إلى الوحدة ، وعندما وصل الإتروسكيون إلى مرحلة متقدمة من النضج السياسى والحضارى ، انطلقوا خارج إقليمتهم ، فاتجه بعضهم جنوباً واستولى على إقليم لاتيوم ومدينة روما ، وذهبوا إلى مدى أبعد حينما تجاوزوا إقليم لاتيوم ، وسيطروا على إقليم كامبانيا Campania (٢) . وقد أدى اندفاع الإتروسكيين فى اتجاه الجنوب إلى صدامهم مع الإغريق ، الذين استوطنوا جنوب إيطاليا ، وكان ذلك سبباً فى توقف الزحف الإتروسكى نحو الجنوب .

لم يلبث النفوذ الإتروسكى فى إقليم لاتيوم أن أخذ فى الانحسار ، ففي عام ٥٠٩ ق.م. ثار الرومان على ملكهم الإتروسكى ، وطردوه خارج المدينة ، مما شجع باقى مدن إقليم لاتيوم على أن تحذو حذوهم ، وتتخلص من حكامها الإتروسكيين .

أما البعض الآخر من الإتروسكيين ، فقد اتجهوا إلى الشمال ، وأخذوا فى تدعيم نفوذهم فى وادى نهر البو Po ، واستمرت سيطرتهم على هذه المنطقة لما يقرب من قرن من الزمان . حيث أقاموا العديد من المدن ، إلى أن ظهر أمامهم منافس قوى يتمثل فى القبائل الكلثية ، الذين جاءوا من قلب القارة الأوروبية ، وشكلوا تهديداً للوجود الإتروسكى ، وقد أطلق الرومان على هذه القبائل اسم الغال Galli ، وأطلقوا على المنطقة التى أقاموا فيها ، فى شمال إيطاليا ، اسم بلاد الغال المتاخمة للألب Gallia Cisalpina .

وعلى الرغم من انحسار النفوذ الإتروسكى ، من إقليم لاتيوم ، فإن الإتروسكيين تركوا آثاراً واضحة على الشعوب التى حكموها ، فى نظم الحكم والإدارة ، وكذلك فى بعض الجوانب الحضارية .

(١) عن مشكلة أصل الإتروسكيين راجع : Cary, M. A History of Rome. p. 18

(2) Cary, op. cit. pp. 26ff

إذن فقد كان للإغريق والإتروسكيين آثارهم الواضحة على الرومان ، من الناحيتين السياسية والحضارية ، أما مدينة روما ، موطن الرومان ومهد حضارتهم ، فلأنها تقع على الحدود الفاصلة بين إقليم لاتيوم وإقليم إتروريا ، وتبعد ١٥ ميلاً عن مصب نهر التايبر في البحر التيراني ، وتقع المدينة في إقليم خصيب ، وهو إقليم لاتيوم ، الذي كانت تربته قادرة على إنتاج ما يكفي حاجة سكان الإقليم من الغذاء .

نشأت مدينة روما على مجموعة من التلال ، لذلك فقد عرفت بمدينة التلال السبعة ، وكان أشهر تلك التلال ، تل الكابيتول Capitolenus ، وتل الأئنتين Aventinus ، وتل الپلاتين Platinus . وكان نهر التايبر يشكل وسيلة الاتصال بين روما والبحر التيراني ، وقد هباً الموقع المتوسط الذي كانت تحتله مدينة روما على السواحل الغربية لإيطاليا ، فرصة طيبة للمدينة لكي تتحكم في هذه السواحل ، ومن ناحية أخرى ، فإن موقع روما المتوسط في قلب إيطاليا ، جعل منها محطة اتصال بين شمال إيطاليا وجنوبها ^(١) .

عند الحديث عن نشأة مدينة روما ، فإننا نجد أنفسنا بإزاء عدد كبير من الروايات ، لعل أكثرها رواجاً بين الرومان ، تلك الرواية التي تنسب نشأة مدينة روما إلى شخصية رومولوس Romulus ، وتستطرد الرواية إلى القول بأن رومولوس وشقيقه التوام رموس Remus ، قد حملت بهما أمهما سفاكاً من الإله مارس ، وهو الإله المحبب لدى الرومان ، وأن هذه الأم بعد أن وضعت التوام ، أرادت التخلص منهما ، فألقت بهما في مياه نهر التايبر ، ثم حملتهما المياه ، وألقت بهما على إحدى ضفتي النهر ، حيث عثرت عليهما ذئبة ^(٢) ، فأسخذت في إرضاعهما ، إلى أن جاء أحد الرعاة ، فحملهما إلى بيته وقام بتربيتهما ، وعندما شبا على الطوق ، وبلغا مبلغ الرجولة ، أقام رومولوس مستعمرة على تل اللاتين ، بينما حاول شقيقه إقامة مستعمرة أخرى على تل آخر وهو تل الأئنتين ^(٣) .

كانت المشكلة التي واجهت رومولوس عند إنشاء المستعمرة ، هي نقص النساء ، وفكر في حل هذه المشكلة ، فتظاهر بإقامة مهرجان للاحتفال بإقامة المستعمرة ، ودعا أفراد قبيلة مجاورة وهي قبيلة السابين Sabini لحضور المهرجان ، ولبى هؤلاء الدعوة ، وأحضروا معهم

(1) Cary, The Geographic Background of Greek and Roman History. pp. 130 - 30

(2) Cary, A History of Rome. p. 37

(3) C.A.H. VII. p. 353 .

زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم ، وفى أثناء الاحتفال اتقض رومولوس ورفيقاؤه على فتيات السابين ، واستولوا عليهن (١) . وبعد عودة السابين إلى بلادهم ، سيطر عليهم الغضب . وأعدوا العدة للانتقام ، واسترجاع بناتهم . وحينما أكملوا استعدادهم ، زحفوا إلى روما لمحاربة رومولوس ورجاله ، إلا أن السابينيات اللاتي أصبحن زوجات للرومان ، وقفن بين الطرفين ، ومنعن قيام الحرب بين أزواجهن وآبائهن . وبعد ذلك أصبح الرومان والسابين أصدقاء . ومن أجل تخليد هذه الأسطورة ، أقام الرومان تقيلاً من البرونز ، ونصبوه فى ساحة السوق العامة Forum بمدينة روما فى عام ٢٩٦ ق.م. ويمثل هذا التمثال اللبنة Lupa Ca-pitolina وهى ترضع طفلين .

وقد أدلى الإغريق بدلهم فى مجال الروايات التى ذكرت حول نشأة روما ، فقالوا أن الذى أنشأ مدينة روما ، هو روموس Romus ابن أوديسيوس ، بطل ملحمة الأوديسة ، كما تسجوا قصة أخرى ترجع الفضل فى إنشاء روما إلى البطل الطروادى أينياس Aeneas ، الذى فر من طروادة بعد سقوطها ، وأنه هام على وجهه لفترة طويلة ، إلى أن حظ رحاله فى إقليم لاتيوم ، حيث رحب به الملك لاتينيوس Latinus وزوجه من ابنته ، وأن روموس ورمولوس ، هما أحفاد أينياس من الأميرة اللاتينية ، وقد خلّد هذه القصة شاعر الرومان العظيم فرجيل Vergilius فى ملحمة الرائعة الإنيادة .

وإذا ما تركنا الأساطير ، فإننا نعرف أن منطقة روما عرفت الاستيطان البشرى حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. فى شكل قرى منفصلة (١) ، إلا أن عزلة هذه القرى ما لبثت أن زالت ، مع مجيء الإتروسكيين فى القرن السابع ق.م. ، وفى الربع الأخير من القرن السابع ق.م. بدأ التأثير الإتروسكى واضحاً ، وهى الفترة التى تذكر المصادر أن للملك الإتروسكى تاركوينيوس بريسكرس قد استولى على الحكم فى روما خلالها ، وكان ذلك على وجه التحديد فى حوالى عام ٦١٦ ق.م (٢) .

(1) C.A.H. VII. p. 368 .

(2) Cary, op. cit. p. 38

(3) C.A.H. VII. p. 378

كان نظام الحكم فى روما فى البداية ملكياً ، مثل كافة نظم الحكم السائدة فى المجتمعات المعاصرة . وإذا ما استبعدنا رومولوس من قائمة ملوك روما القدماء ، باعتباره شخصية أسطورية ، لا يقوم على وجودها دليل ، فإن الروايات تذكر أن روما قد حكمها ستة ملوك ، وكان الثلاثة الأخير منهم إيتروسكيون ، وآخرهم هو الملك تاركوينيوس سويسريوس^(١) Tarquinius Superbus ، كما تحدثت المصادر عن بعض إنجازات الملوك الإيتروسكيين فى روما ، مثل بناء أسوار المدينة ، أو الإصلاحات العسكرية ، والاجتماعية التى تتمثل فى إعادة ترتيب طبقات المجتمع على أساس الثروة^(٢) .

وإذا ما أردنا أن نلقى نظرة على أهم الملامح الاقتصادية والاجتماعية فى روما فى العصر الملكى ، فإنه يمكننا القول أن الاقتصاد الرومانى قام على الرعى والزراعة ، كما عرفت روما التبادل التجارى مع بلاد الإغريق وقرطاجة ، وكان المجتمع يتألف من الرجال الأحرار ، يأتى فى مقدمتهم طبقة الأرستقراط ، وفى الريف كان يسكن المزارعون الأحرار ، الذين يمتلكون مساحات صغيرة من الأرض الزراعية ، وشيئاً فشيئاً أخذت الهوة تزداد بين الطبقات ، فأصبح هناك غالبية من الشعب يطلق عليهم العامة Plebs ، فى مقابل أقلية من النبلاء Patrici .

وكان المجتمع الرومانى يتألف من مجموعة من العشائر Gens ، وتنقسم العشائر إلى عائلات Familiae ، وكان المواطنون يمارسون واجباتهم السياسية من خلال وحدات سياسية هى القبيلة Tribus ، التى انقسمت بدورها إلى وحدات أصغر هى الأحياء Curiae ، وكان هذا التقسيم جغرافياً ، ولا يقوم على أساس عنصرى ، أما السلطة الأكبر فكانت فى أيدي مجلس الشيوخ Senatus ، وهو مجلس يضم قادة العشائر ، وبعد هيئة استشارية ، وعند وفاة الملك ، كانت السلطة تنتقل بشكل تلقائى إلى السناتور (مجلس الشيوخ) ، الذى يقوم بدوره باختيار ملك جديد .

ومما هو جدير بالذكر أن شغل العرش لم يكن يتم عن طريق الوراثة ، بل عن طريق الانتخاب ، وكان الملك يتمتع بسلطات مطلقة ، فهو الذى يتولى قيادة الجيش ، ويرأس جهاز العدالة فى الدولة ، ويحافظ على سلام الآلهة ، أى رضا الآلهة عن الدولة ، ويشرف على

(1) C.A.H VII. p. 370

(٢) عن روما فى العصر الملكى انظر : Cary, op. cit. pp. 41ff .

الكهنة الذين يؤدون الشعائر . وفي الشؤون الخارجية ، كان الملك يعولي ألبرت في كل ما يتعلق بالحرب والسلام .

وكان الجيش الروماني في العصر الملكي يقوم على التقسيم القبلي ، فكان يتحتم على كل قبيلة أن قد الجيش بعدد محدد من المحاربين ، وكان على الجندي أن يتكفل باحضار عدة قتاله .

وفي عام ٥٠٩ ق.م. ثار الرومان على ملكهم الإتروسكي ، تاركوينيوس سويريوس (أى المتعطرس) ، وطردوه من روما^(١) . وإن كان بعض المؤرخين يستبعدون فكرة الثورة ، ويرون أن التطور في نظام الحكم عندما الرومان جاء بشكل سلس ، وأنهم استبدلوا نظامهم القديم بنظام جديد للحكم .

أطلق الرومان على النظام الجديد اسم Res Publica . وهى كلمة تترجم حرفياً إلى «الشيء العام» ، ولكن الترجمة الشائعة لهذه الكلمة في اللغة العربية هي «الجمهورية» ، وهذا يعنى أن الحكم من الآن فصاعداً لم يعد من شأن فرد بعينه ، كما كان الحال في ظل النظام الملكي ، بل أصبح عاماً ومن شأن كافة المواطنين ، أى الجمهور ، هذا من الناحية النظرية ، أما من حيث الواقع ، فإن نظام الحكم كان له طابع أرستقراطي ، حيث تركزت السلطة في أيدي النبلاء^(٢) ، وتداول الحكم عدد محدود من العائلات النبيلة .

انتقلت سلطات الملك إلى اثنين من الحكام ، حمل كل منهما لقب قنصل Consul^(٣) ، وهى كلمة تعنى الزميل ، وقد كان كل من هذين الزميلين يتمتع بسلطات متساوية ، ومن حق كل منهما الاعتراض على ما يصدره الآخر من قرارات ، وكان القنصلان يشغلان وظيفتهما لمدة عام واحد ، غير قابل للتجديد . ولكن الرومان أدركوا أنهم في وقت الشدة يحتاجون إلى سرعة البت في الأمور ، والحسم في اتخاذ القرار ، لذلك فقد أوجدوا وظيفة استثنائية هي وظيفة الدكتاتور Dectator ، وهى وظيفة تتيح لحاملها حق التمتع بسلطات مطلقة ، ولكن هذه السلطات كانت محدودة بمدة قصيرة ، وهى ستة شهور فقط . ويأتى بعد القنصل مجموعة

(1) C.A.H. VII. p. 394

(2) Crawford. M, The Roman Republic. p. 23

(3) Cary., op. cit. p. 62

من الموظفين ، يتولون تصريف شئون الدولة ، وجميع هذه الوظائف شرفية ولا يتقاضى شاغلوها مقابلًا نظير شغلهم إياها . أما المهام الدينية فقد أسندت إلى شخص يحصل لقب الكاهن الأكبر .

إلى جانب الوظائف السابقة ، عرفت روما في ظل النظام الجمهورى بعض المجالس والهيئات . كان أبرزها مجلس الشيوخ (السناتور) ، وهو مجلس أشرنا من قبل إلى أنه كان يوجد في العصر الملكي ، إلا أن الأهمية هذا المجلس ازدادت في عصر الجمهورية ، فقد كان معقل الارستقراطية ^(١) ، والمهيمن الحقيقى على الشئون السياسية ، لأنه كان هيئة دائمة تضم الكثيرين من ذوى الكفاءات ، الذين قمرسوا في العمل السياسى ، وكانت عضوية هذا المجلس لدى الحياة ، وإلى جانب مجلس الشيوخ ، وجدت الجمعيات الشعبية التى كانت تنتخب القناصل .

وفي مجال الديانة كانت توجد جماعات الكهنة ، وكانت لكل واحدة منها مهام محددة ، وكانوا جميعاً يمارسون واجباتهم تحت إشراف الكاهن الأعظم ، ولا عجب أن النبلاء احتكروا وظائف الكهنة أيضاً ، وسخروها لخدمة أهدافهم ومصالحهم .

أدت هيئة النبلاء على الحكم في روما إلى ضغط العامة ، فأخذوا في المطالبة بالمشاركة فى الحكم ^(٢) . وكانوا قد تأثروا إلى حد كبير بالأفكار السياسية الإغريقية ، التى كانت قد تسربت إلى روما عن طريق التجار الإغريق ، واتخذت مطالب العامة شكلاً سلمياً . أقرب إلى الاصراب العام ^(٣) ، وكانت المرحلة الأولى للصراع بين الأشراف والعامة فى عام ٤٩٤ ق.م. حين قرر العامة الانسحاب من مدينة روما ، واختاروا من بينهم اثنين لى يكونوا بمثابة ممثلين لهم ، وأطلقوا عليهم نقباء العامة Tribuni Plebis ، وشكلوا مجلساً أطلقوا عليه مجلس العامة .

أدرك العامة مدى فعالية سلاح الانسحاب ، فأخذوا يلجأون إليه بين الفينة والفينة ، من أجل تحقيق مطالبهم ، وفى كل جولة كانوا يحصلون على المزيد من الامتيازات ، وأصبح يمثلهم جزءاً من النسيج الدستورى للدولة . وازداد عدد النقباء ، واضطرت الدولة إلى

(1) Cary., op. cit. p. 63

(2) Crawford., op. cit. p. 25 .

(3) Cary., op. cit. p. 66 .

الرضوخ لطلبات العامة ، حين طالبوا بتدوين القوانين ، حتى يصبح الاطلاع عليها أمراً متيسراً للجميع ، مما يمكن المواطنين من معرفة حقوقهم . وكانت المرحلة الأخيرة للصراع هي التي انتهت في عام ٢٨٧ ق.م. عقب مشاكل أخذت بخناق الدولة ، فتم تعيين واحد من رجال العامة ويدعى هورتنسيوس Hortensius في وظيفة الدكتاتور ، وقام بوضع مجموعة من القوانين وضعت حداً لحالة الاضطراب ، وحقت للعامة كافة مطالبهم ، وفتحت الباب أمام مرحلة جديدة في حياة الرومان .

كيف تحولت روما من مدينة إلى دولة ؟ :

إن قصة التوسع الروماني في شبه الجزيرة الإيطالية ، قصة تشير الإعجاب ، في كثير من جوانبها ، فبعد التخلص من الحكم الإتروسكي ، دعمت روما مكانتها في إقليم لاتيوم ، عن طريق إقامة حلف مع المدن اللاتينية^(١) . وقامت بمشاركة حلفائها بخوض العديد من الحروب ، ضد القبائل المجاورة ، ونجحت في إلحاق الهزيمة بهذه القبائل وكسر شوكتها^(٢) .

وبعد ذلك بدأت المشاحنات بين الرومان وأعدائهم القدامى ، أي الإتروسكيون ، وفي عام ٤٠٥ ق.م. خاضوا حرباً شرسة ضد كبرى مدن إتورريا ، وهي مدينة فيي Veii^(٣) ، واستطاعوا التغلب عليها بعد مقاومة عنيفة من أهل هذه المدينة ، وكان انتصار الرومان على هذه المدينة نقطة تحول في تاريخهم العسكري ، وأرادوا أن يجعلوا من مصير هذه المدينة أمثلة ، حتى يتحفظ الآخرون . إذا ما فكروا في الوقوف أمام الرومان ، فنكلوا بأهلها ، وصادروا أراضيها .

بعد أن نلص الرومان أيديهم من مشكلة الإتروسكيين ، وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم ، جاءهم من الشمال ، يتمثل في قبائل الغال^(٤) ، الذين سلفت الإشارة إليهم ، وكان انتشار هؤلاء في البداية سلميًّا^(٥) . إلا أن حالهم قد تبدل حينما قويت شوكتهم ، فراحوا ينشرون الفوضى حولهم ، وحاصروا إحدى المدن الإتروسكية ، وهي مدينة كلوزيوم Closium ، التي غلبت على أمرها ، مما اضطرها إلى طلب العون من الرومان .

(1) Cary., op. cit. p. 70

(2) C.A.H. VII. pp. 500 - 4 .

(3) C.A.H. VII. p. 516

(4) Livy. V, 43 .

(5) Cary , op. cit. p. 72

(6) C.A.H. VII. p. 561

استجاب الرومان لطلب مدينة كلوزيوم ، فأرسلوا تحذيراً إلى الغال ، وطالبوهم بفتح الحصار من حول المدينة ، إلا أن الغال ضرموا عرض الحائط بهذا التحذير ، وأمعنوا في التحدي بإعلان الحرب على الرومان ، ولم يكن أمام روما بُد سوى قبول هذا التحدي ، فأرسلوا قوة لمحاربتهم ، إلا أن الغال استطاعوا إنزال هزيمة قاسية بهذه القوة ، عند نهر أليا Alea ، وهو أحد روافد نهر الشاير ، وعرفت هذه المعركة بنكبة أليا ، وظل الرومان يتذكرون هذا اليوم باعتباره يوماً أسوداً في تاريخهم (١) .

بعد الهزيمة وانسحاب فلول القوات الرومانية ، أصبح طريق الغال إلى روما مفتوحاً ، إلا أن ترددهم في التوجه إلى روما ، أعطى الفرصة للقوات الرومانية للعودة ، والتحصن في تل الكايتول ، ولم يلبث الغال أن لحقوا بهم ، وحاصروا الكايتول ، إلا أنهم قبلوا الانسحاب من روما بعد أن حصلوا على جزية من الذهب . وقد استفاد الرومان من هذا الدرس القاسي ، فعملوا على تقوية المدينة ، وإدخال تعديلات واسعة على الجيش .

كان للهزيمة التي حلت بالرومان على يد الغال ، أثر كبير في فقدان هيبتهم ، مما شجع أعدائهم على المجاهرة بكرهيتهم لهم ، والشورى ضدهم ، وبعد أن دأب الرومان جراحهم ، استعدوا لمواجهة أعدائهم ، ولعل أخطر ما واجهه الرومان ، هو تآمر حلفائهم اللاتين (٢) . وقد واجه الرومان هذا التمرد وتمكنوا من القضاء عليه ، وأعادوا صياغة العلاقة مع اللاتين في شكل جديد . ولم يواف عام ٣٥٠ ق.م. حتى كان الرومان قد سيطروا على مساحات شاسعة من إيطاليا ، كما أن جيشهم أصبح على درجة عالية من التدريب ، ومستعداً لمزيد من الغزو (٣) .

اضطر الرومان بعد ذلك إلى خوض غمار حرب شرسة ، ضد قبائل ذات بأس شديد ، هي القبائل السمنية ، التي كانت تسيطر على وسط إيطاليا ، بسبب صراع المصالح بين الطرفين ، وقد تعددت مراحل هذا الصراع ، الذي عرف بالحروب السمنية ، ولكن هذا الصراع الطويل انتهى بعقد صلح بين الطرفين في عام ٢٩٠ ق.م. أصبح السمنيون بمقتضاء حلفاء للرومان (٤) .

(1) Crawford., op. cit. p. 32 .

(2) C A.H. VII. pp. 577 .

(3) Cary., op. cit. p. 87

(٤) عن الحروب السمنية انظر : Cary., op. cit. pp. 88ff .

ودانت لهم منطقة وسط إيطاليا ، بعد أن بسطوا سيطرتهم على إقليم لاتيوم والمناطق الشمالية (١) .

لم تكتمل سيادة الرومان على إيطاليا ، إلا بعد أن فرضوا سيطرتهم على جنوب شبه الجزيرة الإيطالية ، ولتفصيل ذلك ، فإننا نتذكر أن هذه المنطقة كانت تحت سيطرة الإغريق ، الذين أقاموا فيها العديد من المدن والمستعمرات منذ وقت طويل ، ولم تلبث هذه المدن أن أخذت تتعرض لعدوان بعض الجماعات الإيطالية ، وقامت مدينة تارنتم Tarentum (٢) ، كبرى المدن الإغريقية بالتصدي لهذا العدوان ، وأخذت تستنجد بالإغريق لتقديم المساعدة ، وقد خف إلى نجدتها ، بعض حكام الإغريق مثل ملك أسبرطة ، وفي عام ٣٣٤ ق.م. وهو نفس العام الذي بدأ فيه الإسكندر الأكبر مسيرته إلى الشرق ، فإن زوج شقيقته الإسكندر ملك إبيروس ، بدأ مسيرته في اتجاه الغرب لمساعدة إغريق جنوب إيطاليا ، إلا أنه لقي حتفه في أثناء الحروب مع الإيطاليين .

بعد وفاة الإسكندر ملك إبيروس ، حل محله بيرهوس Pyrrhus على عرش إبيروس ، ولم يلبث أن توجه إلى جنوب إيطاليا على رأس جيش عظيم (٣) . ومن ناحية أخرى فقد أدى ظهور القوات الرومانية في جنوب إيطاليا إلى إثارة مخاوف مدينة تارنتم ، وفي عام ٢٨٢ ق.م. وصل التفور بين روما وتارنتم إلى ذروته ، وكان السبب في ذلك أن مدينة ثوري Thuri الإغريقية ، أرسلت إلى الرومان تطلب حمايتهم من هجوم بعض القبائل الإيطالية ، وسارع الرومان بإرسال أسطول صغير لمساعدة هذه المدينة ، وقد نظرت تارنتم إلى هذه الخطوة باعتبارها تدخلاً رومانياً في منطقة نفوذها ، وعلى الفور سارعت بإغراق الأسطول الروماني ، وطرده القوة التي أرسلت إلى ثوري ، وطلب الرومان تعويضاً عن هذه الإهانة التي لحقت بهم ، إلا أن تارنتم التي ضمنت مساعدة بيرهوس ، رفضت هذا الطلب .

وصل بيرهوس إلى جنوب إيطاليا ، على رأس جيش يعد من أفضل جيوش العصر ، وفي عام ٢٨٠ ق.م. التقى مع الرومان في موقعة هيراكليا Heraclea ، وقد واجه الرومان لأول

(١) Crawford., op. cit. p. 43

(٢) Cary., op. cit. p. 94

(٣) Crawford., op. cit. p. 43 .

مرة في حياتهم سلاحاً جديداً ، هو سلاح الفيلة ، وقكن بيرهوس من إحراز نصر هزيل^(١) ، خسر في مقابلته الكثير ، ثم واصل بيرهوس بعد ذلك تقدمه في إقليم كمباتيا ولاتيوم ، أملاً في تحقيق المزيد من الانتصارات على الرومان ، وبعد معركة أخرى مع الرومان لم تكن أفضل من سابقتها ، أدرك عبث الاستمرار في الحرب ، فعرض التفاوض معهم ، وكان يسعى إلى تأمين حرية المدن الإغريقية ، في جنوب إيطاليا ، إلا أن الستاتو رفض هذا العرض ، بتشجيع من قرطاجة التي كانت تخشى من قيام بيرهوس بمساعدة إغريق جزيرة صقلية ، مما يؤدي إلى تهديد مصالحها في هذه الجزيرة .

على الرغم من الفشل الذي منى به بيرهوس في إيطاليا ، فبأنه ذهب إلى صقلية لمساعدة الإغريق فيها ، وقضى في هذه الجزيرة ثلاث سنوات ، وحينما عاد إلى إيطاليا كان جيشه في حالة يرثى لها ، واشتبك مع الرومان ، ولكنه أدرك مدى الخسارة التي يعرض لها ببقائه في إيطاليا ، فقرر العودة إلى إبيروس تاركاً حامية في مدينة تاونتم ، ولم يلبث أن قرر سحب هذه الحامية قبل وفاته في عام ٢٧٢ ق.م. وقد سلمت الحامية مدينة تاونتم للرومان حتى تضمن سلامة انسحابها^(٢) .

بدخول الرومان إلى مدينة تاونتم ، أصبحت منطقة جنوب إيطاليا بأكملها خاضعة للرومان ، حيث كان قد سبق لهم أن أخضعوا الشعوب الإيطالية ، وعقدوا معالقات مع المدن الإغريقية ، وأنشأوا المستعمرات الرومانية ، في كافة أرجاء الإقليم ، وأخذت شهرة روما كقوة دولية تزداد ، ولا يتضح ذلك فقط من خلال المعاهدة التي عقدتها مع قرطاجة ، بل أيضاً من خلال سعي بطليموس الثاني ملك مصر إلى كسب صداقة روما ، وعقد معاهدة مع الرومان^(٣) .

روما وعالم البحر المتوسط :

الحرب البونية الأولى

في أثناء انهماك روما في توحيد شبه الجزيرة الإيطالية ، لم تكن تهتم كثيراً بالعالم الخارجي ، ولكن الأمر تغير بعد أن فرضت سيادتها على إيطاليا ، وتحولت إلى قوة دولية .

(1) C.A.H. VII. p. 645

صارت عبارة " النصر البهرسي " Pyrric Victory تعني النصر الذي لا يختلف كثيراً عن الهزيمة .

(2) C.A.H. VII. p. 655

(3) Cary., op. cit. p. 96 .

فكان عليها أن تنظر إلى خارج حدودها ، وتتابع الأحداث التي تدور في العالم الذي يحيط بها . وفي تلك الأونة ، كانت القوى الكبرى في شرق البحر المتوسط ، هي دولة البطالمة في مصر ، والدولة السلوقية في سوريا وبلاد الرافدين ، ودولة مقدونيا في بلاد اليونان ، أما في غرب البحر المتوسط ، فكانت توجد دولة قرطاجة ، التي فرضت نفوذها على غرب البحر المتوسط ، من جزيرة صقلية شرقاً ، وحتى مضيق جبل طارق في الغرب .

وقرطاجة هي في الأصل مستعمرة أسسها فينيقيون ، من مدينة صور ، وكان موقع هذه المستعمرة على الساحل الشمالي لأفريقيا ، بالقرب من تونس الحالية ، وكان ذلك في أواخر القرن التاسع ق.م. وقد أطلق الرومان على أهل هذه المستعمرة اسم " البرنيقيون " (وهو تحريف لكلمة الفينيقيين) . ومن المعروف أن الفينيقيين ملاحون مهرة ، وتجار نشطاء ، فأخذت هذه المستعمرة في النمو ، ولم تلبث أن بسطت سيطرتها على مناطق واسعة في شمال أفريقيا ، وامتدت هذه السيطرة إلى جنوب أسبانيا ، التي أقام فيها القرطاجيون مستعمرات جديدة ، لعل أشهرها مدينة قرطاجة الجديدة Nova Carthaga ، وكانت قرطاجة تلك أسطوياً عظيماً^(١).

كان الهدف الأول للسياسة الخارجية لدولة قرطاجة ، هو الحفاظ على مصالحها التجارية ، وفي هذا الإطار قامت بعقد معاهدات مع بعض المدن الساحلية في إقليم إتروريا ، كما أبرمت معاهدتين تجاريتين مع روما عند منتصف القرن الرابع ق.م. بالإضافة إلى معاهدة عسكرية في عام ٢٧٩ ق.م. ولكن مع ازدياد قوة روما ، لم يعد هناك مفر من وقوع الصدام بين هاتين القوتين^(٢).

كان مسرح الصدام هو جزيرة صقلية^(٣) ، وهو بداية لصراع طويل الأمد ، بين روما وقرطاجة ، عرف بالحروب البونيقية أو البونية ، وقد بدأت أولى مراحل الحرب في عام ٢٦٣ ق.م. حين أرسل الرومان جيشاً إلى صقلية ، لمحاصرة مدينه سيراكيوز ، وتمكن هذا الجيش من إجبار هيرون Hiero ملك سيراكيوز على فض تحالفه مع قرطاجة والتحالف مع الرومان .

(١) أشد أرسطر بدسور قرطاجة . ونظامها السياسي ، ونوه بما كانت تتمتع به من استقرار سياسي ولزوم اقتصادي ، انظر : Polyb II, 11 .

(2) Cary, op. cit. p. 117 .

(3) C.A.H. VII. pp. 673 ff .

وبادرت قرطاجة بإرسال قواتها إلى صقلية ، لمناهضة هذا التحرك الروماني ، غير أن قوات قرطاجة لقيت هزيمة هلى يد الرومان ، وفى خلال تلك الأحداث أدرك الرومان مدى الحاجة إلى بناء أسطول ، واكتمل بناء الأسطول الرومانى فى عام ٢٦٠ ق.م. وقد نجراً هذا الأسطول الوليد على مهاجمة أسطول قرطاجة والاشتباك معه ، بل أحرز عليه العديد من الانتصارات^(١) ، مما شجع الرومان على إحكام قبضتهم على صقلية ، والتخلص من النفوذ القرطاجى فى الجزيرة.

ذهب الرومان إلى مدى أبعد فى تحديهم لقرطاجة ، حينما قرروا مهاجمتها فى عقر دارها^(٢) ، وفى عام ٢٥٦ ق.م. أرسلوا أسطولاً ، ليبح فى أن يشق طريقه إلى شمال أفريقيا ، وتمكنت القوات الرومانية من هزيمة القرطاجيين ، مما اضطر قرطاجة إلى طلب الصلح ، ولكن القائد الرومانى عرض شروطاً جائرة للمرافقة على الصلح ، وقد وجدت قرطاجة أنه من الأكرم لها أن ترفض هذه الشروط ، وأن تواصل القتال ، وعندما استأنف القرطاجيون القتال ، تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالرومان ، وقام الأسطول الرومانى بالانقطاع فلول الجيش الرومانى المهزوم ، بعد أن وقع قائده فى الأسر ، إلا أن هذا الأسطول تعرض فى طريق عودته لعاصفة هوجاء ، دمرت غالبية سفته^(٣).

تمكنت قرطاجة من التغلب على جوانب الضعف لديها ، وأعادت بناء أسطولها ، ونجحت فى استعادة سيادتها البحرية لبعض الوقت ، وفى عام ٢٤٧ ق.م. تولى قيادة قواتها فى صقلية قائد بارع هو هامليكار بركة Hamilcar Baraca^(٤) الذى تمكن من الاستيلاء على بعض المواقع فى صقلية ، ولكن قرطاجة لم تقدم له الدعم المطلوب ، بل إنها أخذت فى تقليص حجم قواتها . وفى نفس الوقت كان الرومان قد التقطوا أنفاسهم ، وأصبحوا فى مركز أقوى ، مما أجبر قرطاجة على توقيع الصلح معهم فى عام ٢٤١ ق.م. وقد وضع هذا الصلح حداً للحرب البوتية الأولى ، وكان من شروطه تنازل قرطاجة عن كافة ممتلكاتها فى صقلية ، وأن تدفع تعويضاً مالياً كبيراً للرومان .

(1) C.A.H. VII. p. 679 .

(2) C.A.H. VII. p. 681

(3) Cary., op. cit. pp. 118 - 9 .

(4) Cary., op. cit. p. 120

حقق هذا الصلح سيطرة الرومان على غرب البحر المتوسط ، أما قرطاجة فقد انكمشت قوتها ، وكانت تعاني من مشاكل داخلية ، وكانت أخطر هذه المشاكل هي تمرد جنودها المرتزقة^(١) . وقامت روما بتحويل ممتلكاتها في جزيرة صقلية إلى ولاية رومانية ، كما استولت على جزيرتي سردينيا وكورسيكا .

وفي الشرق تزايد نشاط القراصنة في البحر الأدرياتي ، واتخذوا من شاطئ الليريا Ilyria (سواحل يوغسلافيا الحالية تقريباً) قاعدة لعملياتهم^(٢) . وأخذوا في الاعتداء على المدن الإغريقية في البلقان ، بل ذهبوا إلى مدى أبعد حين هاجموا شواطئ إيطاليا ، مما أثار حفيظة الرومان ، وجعلهم يقررون وضع حد لهذا العدوان ، فقاموا بضرب قواعد القراصنة والاستيلاء عليها .

كانت دولة مقدونيا تعتبر شبه جزيرة البلقان بأكملها ، منطقة نفوذ لها ، ومن ثم فقد أثار مخاوفها تدخل الرومان ، وبخاصة أنهم عند تعاملهم مع القراصنة في الليريا تجاهلوا تماماً ، وراحوا يقيمون علاقات صداقة مع أعدائها في بلاد اليونان^(٣) . ولكن مقدونيا على الرغم من مخاوفها لم تتدخل في الحرب بين الرومان والليريا ، لأنها كانت تعاني من مشاكل داخلية ، ولكن في عام ٢٢ ق.م. جلس على عرش مقدونيا ملك شاب ، هو فيليب الخامس ، وكان رجلاً طموحاً أخذ يعمل على تدعيم مكانة بلاده ، وأثبت كفاءة في التعامل مع أعداء مقدونيا ، وأخذ يفكر في كيفية طرد الرومان من الليريا^(٤) .

وفي تلك الآونة ، كان الرومان يعانون من بعض المتاعب في إيطاليا ، وكان مصدر هذه المتاعب الغال ، جيرانهم في الشمال ، فعلى الرغم من أن الهدوء قد ساد علاقتهم بالرومان لفترة طويلة ، فإنهم باتوا يخشون من أن الانتصارات التي أحرزها الرومان ، قد تغريهم بالانتقاض عليهم ، فقرروا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم ، فبادروا بالهجوم على إقليم إتروريا في عام ٢٢٥ ق.م^(٥) . إلا أن الرومان ردوهم على أعقابهم ، وألحقوا بهم خسائر فادحة ، وقرروا الاستيلاء على بلادهم ، حتى يجعلوا من جبال الألب الحدود الشمالية لدولتهم.

(1) Polyb. II. 75 ff.

(2) C.A.H. VII, pp 825 ff; Walbank; op. cit. p. 227

(3) Cary., op. cit. p. 123 .

(4) C.A.H. VII, p. 851 .

(5) Cary., op. cit. p. 122 .

الحرب البونية الثانية :

كتب على الرومان أن يكونوا في رباط دائم ، لأن بناء الدول ليس بالأمر الهين ، فإن دولة قرطاجة بعد أن فقدت ممتلكاتها في جزيرة صقلية ، إضافة إلى خسارتها لجزيرتي سردينيا وكورسيكا ، حاولت تعويض هذه الخسارة عن طريق إعادة بناء قوتها في أسبانيا ، ونجح القائد القرطاجي هامليكار في بناء إمبراطورية قرطاجية في أسبانيا^(١) . ويرى بعض المؤرخين أن هدف هامليكار من وراء بناء هذه الإمبراطورية ، هو الأعداد للانتقام من الرومان الذين كان يحمل لهم حقاً دقيقتاً .

وفي عام ٢٢١ ق.م. تولى قيادة قرطاجة هانيبال Hannibal ، ابن هامليكار^(٢) ، وكان شاباً في الخامسة والعشرين ، وقد ورث عن أبيه كراهيته للرومان . ولم تلبث الأحداث أن عجلت بالصدام بين هانيبال والرومان ، على أثر نشوب نزاع بين إحدى القبائل ومدينة ساجنتوم Saguntum ، وتدخل هانيبال إلى جانب تلك القبيلة ، وقد استنجدت مدينة ساجنتوم بالرومان فأرسل السناتو بعثة في عام ٢١٩ ق.م. لإقناع هانيبال بعدم مهاجمة المدينة ، إلا أن هانيبال استنكر تدخل الرومان في هذا الأمر ، وعندما توجه الرومان بالشكوى إلى حكومة قرطاجة ، أبدت هذه الأخيرة وجهة نظر هانيبال ، وكان هذا القائد يدرك تماماً أن الرومان سوف يحاولون طرد قرطاجة من أسبانيا ، إن أجلاً أو عاجلاً ، كما فعلوا من قبل في صقلية وسردينيا وكورسيكا ، لذلك بادر بالهجوم على مدينة ساجنتوم ، وبعد حصار طويل استولى على المدينة في خريف عام ٢١٩ ق.م. ، فأنزعج السناتو لهذا الأمر وأرسل إلى قرطاجة مطالباً بتسليم هانيبال ، ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض ، وكانت مسألة ساجنتوم سبباً لإعلان الحرب بين روما وقرطاجة^(٣) . وقررت روما إرسال جيش إلى أسبانيا بقيادة القنصل بومبوس سكيبو P.C.Scipio ، وإرسال جيش آخر بقيادة القنصل سيبيروبيوس سمبرويوس لونجوس ، إلى صقلية تمهيداً لغزو قرطاجة . إلا أن هانيبال أربك خطط الرومان ، حين قرر إعداد خطة جريئة لمهاجمة الرومان في عقر دارهم .

(1) C.A.H. VII. pp. 777 ff

(2) C.A.H. VII. pp. 789 ff .

(3) Cary., op. cit. p. 125

قامت خطة هانيبال على الاتجاه إلى إيطاليا مباشرة^(١)، وعبر جبال الألب، ثم الانتقاض على شمال إيطاليا، وكان يحدوه الأمل في الحصول على مساعدة أعداء روما في إيطاليا، مثل الغال، وفي عام ٢١٨ ق.م. بدأ هانيبال مسيرته، وتكن من عبور جبال الألب^(٢)، واستطاع أن يهزم القوات الرومانية التي كانت بقيادة القنصلين، مما شجع الغال على الانضمام إليه، واضطر الرومان إلى إخلاء شمال إيطاليا.

أخذ هانيبال يستعد للتوغل إلى داخل إيطاليا، وعندما تقدم تكن من إحراز بعض الانتصارات، وأصبح الطريق إلى روما مفتوحاً، إلا أن هانيبال كان يدرك أن اقتحام روما يتطلب وجود معدات الحصار كان يفتقر إليها، لذا قرر الاتجاه إلى جنوب إيطاليا لكي يتخذ منها قاعدة لعملياته^(٣).

إزاء استشعار الرومان للخطر الذي بات يتهددهم، قاموا باختيار أحد القادة المحنكين لوظيفة الدكتاتور^(٤)، ويدعى كوينتوس فابيوس ماكسيموس Q Fabius Maximus، وقد أثر هذا الدكتاتور إطالة أمد الحرب، وعدم الدخول في مواجهة مباشرة مع هانيبال، والعمل على استنزاف قواه، من خلال طريقه أشبه بحرب العصابات، وقد أثمرت هذه الخطة، وتخرج موقف هانيبال، لأن الكثير من المدن أغلقت أبوابها أمامه ورفضت أن تنعازن معه، إلا أن الرومان ضاقوا ذرعاً، ونفذ صبرهم، وأطلقوا على فابيوس لقب المتباطئ Cunctator.

قرر الرومان أن يحشدوا جيشاً كبيراً في عام ٢١٦ ق.م. واستندوا قيادته إلى القنصلين، وطالبوهما بخوض معركة فاصلة مع هانيبال. وقد جرت معركة فاصلة بين الطرفين عند سهل كاناي Cam ne، وعلى الرغم من أن الجيش الروماني كان يتفوق على جيش هانيبال من حيث العدد، إلا أن هذا القائد العبقري استطاع أن ينزل هزيمة قاسية بالرومان^(٥).

أدى هذا النصر إلى تعزيز مكانة هانيبال، وفي المقابل تدهورت هيئة الرومان، مما شجع بعض أعدائهم على المجاهرة بعدائهم. فقام فيليب الخامس ملك مقدونيا بعقد محالفة مع

(1) Cary, op cit p 127

(2) Crawford, p. 50.

(3) Chry, op cit p 131.

(4) C.A II VIII p.48.

(5) C.A II VIII pp. 54 - 5.

هانيبال في عام ٢١٥ ق.م^(١)، وأخذ يتحرش بالممتلكات الرومانية في البلقان ، وازدادت تطلعاته إلى طرد الرومان من هذه المنطقة ، كما قام ملك سيراكيوز في صقلية بمقتد تحالف مع قرطاجة^(٢).

لم يتعظ الرومان من النكبات التي حلت بهم ، على الرغم من أن هانيبال أخذ يتحداهم إلى الدخول في مواجهة مباشرة ، فزحف باتجاه روما وأقام معسكره على مقربة من المدينة ، إلا أنه أثر الانسحاب بعد ذلك ، ونشطت الدبلوماسية الرومانية لإجهاض التحالف بين فيليب الخامس وهانيبال ، فشجعت أعداء فيليب في بلاد اليونان على مهاجمة ممتلكاته ، مما أدى إلى قيام الحرب المقدونية الأولى (٢١٢ - ٢٠٦ ق.م) ، وفي عام ٢١٣ ق.م، أرسلت روما جيشاً إلى سيراكيوز ، تمكن من التغلب عليها بفضل الخيانة^(٣).

بحلول عام ٢١١ ق.م. تمكن الرومان من السيطرة على جنوب إيطاليا ، وقطعوا الاتصال بين هانيبال وحلفائه في الشمال ، وأصبح أمل هانيبال ينحصر في وصول المجدة إليه من أسبانيا ، وعندما خف شقيقه على رأس جيش لتجديده ، استطاع الرومان هزيمة هذا الجيش وقتل شقيق هانيبال ، وكانت الطريقة التي أبلغ بها هانيبال نبأ الهزيمة شديدة الوحشية ، إذ أنه فرجى ، بمن يلقى برأس شقيقه داخل معسكره ، أخذا هانيبال بعد ذلك يفكر جدياً في الانسحاب من إيطاليا ، وبخاصة بعد أن صدرت إليه الأوامر بالعودة إلى قرطاجة في عام ٢٠٣ ق.م.

كان السناتور الروماني قد اتخذ قراراً بإرسال جيش إلى أسبانيا ، واختار لقيادته بوليوس كورنيليوس سكيبو ، وهو شاب في الخامسة والعشرين ، كان أبوه قنصلاً لقي حلفه في الحرب مع القرطاجيين ، ولم يلبث هذا الشاب أن أثبت كفاءة نادرة ، وتمكن من الاستيلاء على كافة ممتلكات قرطاجة في أسبانيا^(٤)، وأخذ في إقناع السناتور بضرورة غزو قرطاجة ، وقد وافق الرومان على اقتراح سكيبو ، وفي عام ٢٠٤ ق.م. نزل هذا القائد على رأس قواته على

(1) Cary., op. cit. p. 132; Walbank, op. cit. p. 231 .

(2) C.A.H. VIII, p. 64 .

(3) Crawford., op. cit. p. 52 .

(4) C.A.H. VIII, p. 91 .

الشاطيء الإفريقى بالقرب من قرطاجة (١)، وبعد عدة مناوشات ، خاض سكيو حرباً مباشرة مع القرطاجيين ، الذين وجدوا أنفسهم فى موقف حرج ، فقاموا باستدعاء هانيبال (٢).

على الرغم من توقيع معاهدة صلح بين الرومان وقرطاجة ، إلا أن القرطاجيين بعد عودة بطلهم وفارسهم الذى لا يشق له غبار ، هانيبال ، عادت إليهم الثقة فى أنفسهم ، مما شجعهم على نقض المعاهدة ، واستئناف القتال . وفى عام ٢٠٢ ق.م. التلى الجيش الرومانى تحت قيادة سكيو ، مع جيش قرطاجة الذى كان يتولى قيادته هانيبال عند زاما Zama ، وقد أحرز سكيو نصراً باهراً على خصمه ، إثر معركة لقي فيها القرطاجيون هزيمة منكرة ، وأفلت هانيبال من الموت بصعوبة (٣).

على أثر الهزيمة قبلت قرطاجة صاغرة ، توقيع صلح مهين مع الرومان ، تنازلت فيه عن كافة ممتلكاتها الخارجية ، وتعهدت بدفع غرامة مالية للرومان وتسليمهم جميع سفنها الحربية، مع الاحتفاظ بعشر سفن فقط ، واحتفل الرومان بهذا النصر المين ، وكرموا سكيو بأن أصلقوا عليه لقب الإنسريقى Africanus ، وأصبح للرومان اليد العليا فى غرب البحر المتوسط (٤).

الأحوال فى منطقة شرق البحر المتوسط :

شهدت منطقة شرق البحر المتوسط نزاعاً مبركاً بين دولة البطالمة فى مصر والدولة السلوقية فى سوريا ، وقد كان سبب النزاع الخلاف حول إقليم جوف سوريا ، ومن ناحية أخرى تناقست هاتان الدولتان مع مملكة مقدونيا ، على بسط النفوذ على بحر إيجه ، الذى كان يمثل مركز الثقل السياسى فى العالم الهلينيستى .

بعد وفاة بطلميوس الرابع ورث العرش طفل صغير ، مما شجع كل من أنطيوخس الثالث الملك السلوقى ، وفيليب الخامس ملك مقدونيا على تحقيق أطماعهما ، فقاما بتوقيع اتفاقية لاقسام ممتلكات مصر الخارجية ، واستولى أنطيوخس على جوف سوريا ، أما فيليب الخامس فقد انقض على ممتلكات مصر فى بلاد اليونان .

(1) C.A.H VIII p. 96

(2) Cary., op cit. p. 136 .

(3) C.A.H. VIII, p. 106 .

(4) C.A.H. VIII, p. 108 .

لم يكن مقدور روما أن تقف موقف المتفرج أمام تعاظم قوة هذين الملكين ، كما أنها لم تنس لفيليب موقفه العدائى ، حينما قام بالتحالف مع عدوها اللدود هانيبال ، وسعيه الدؤوب إلى إبعادها عن بلاد اليونان ، فأخذت تراقب الموقف عن كثب ، وتلقت بزيد من الترحيب طلب كل من دولة برجامة وجزيرة رودس لمساعدتها ضد فيليب (١) ، فأخذت تدس أنفها فى شئون شرق البحر المتوسط .

على الرغم من أن روما خرجت منهزمة القوى من الحرب البونى الثانية ، إلا أن الخوف من فيليب كان يلقى الرومان ، فراحوا يشجعون أعداءه فى بلاد اليونان ، ويعملون على استفزازهم بكافة الوسائل ، ووجهوا إليه إنذاراً بعدم التدخل فى شئون المدن الإغريقية (٢) وعندما رفض فيليب هذا الإنذار ، كان هذا مبرراً كافياً لدى الرومان لإعلان الحرب عليه ، وهى التى عرفت بالحرب المقدونية الثانية ، والتى انتهت بموقعة " رؤوس الكلاب " Kynoskephalae فى عام ١٩٧ ق.م. وهى الموقعة التى لقى فيها فيليب هزيمة تكرأ على يد الرومان .

وبعد وفاة فيليب آل عرش مقدونيا إلى ابنه برسيوس Persous ، الذى استأنف سياسة العداء للرومان ، مما اضطرهم إلى محاربتة ، وهزيمته فى موقعة بودنا Pydna فى عام ١٦٨ ق.م. وسبق أسيراً إلى روما ، وبقي فيها حتى فارق الحياة . وقام الرومان بتقسيم مقدونيا إلى أربع جمهوريات مستقلة ، وتلى ذلك ظهور أحد الأشخاص ، الذى ادعى أنه ابن الملك برسيوس ، وأن له الحق فى إعادة توحيد مقدونيا ، وكان ذلك سبباً فى قيام الحرب المقدونية الرابعة ، حيث اضطرت روما إلى محاربة هذا المدعى ، وهزيمته ، ثم قامت بعد ذلك فى عام ١٤٨ ق.م. بتحويل مقدونيا إلى ولاية رومانية . وهكذا سقطت مملكة مقدونيا ، أما فيما يتعلق بالملكيتين الأخريتين ، أى مملكتي البطالمة والسلوقيين ، فإننا سنعود إلى الحديث عن أمرهما مع الرومان فى موضع لاحق ، ولكن قبل ذلك نود أن نعود إلى الغرب مرة أخرى ، لكن نرى كيف تمكنت روما من إحكام سيطرتها على غرب البحر المتوسط ، ونلقى نظرة على المراحل الأخيرة لعلاقتها مع قرطاجة .

(1) C.A.II VIII, pp. 96155-161

(2) Crawford , op. cit. p 62

الحرب البونيه الثالثة :

كان من بين شروط الصلح الذى أبرمه الرومان مع قرطاجه ، عقب الحرب البونيه الثانيه فى عام ٢٠١ ق.م. شرطان كان أولهما ألا تقوم قرطاجه بشن أى حرب ، إلا بعد موافقة الرومان ، أما الشرط الآخر فكان يفرض على قرطاجه أن تعيد إلى ماسينيسا Massinsa ملك نوميديا (الجزائر الحاليه) كل ممتلكات أسلافه (١). وقد حرصت قرطاجه منذ إنتهاء الحرب البونيه الثانيه ، على عدم استثارة الرومان ، بل أخذت تعمل على استرضائهم فى كثير من الأحيان ، وقد استطاعت أن تنعم بفترة من السلام والاستقرار ، مما ساعدها على تحقيق قدر ملحوظ من الرخاء الاقتصادى ، فشعر الرومان بحاله من القلق فتمتجه لهذا الرخاء ، وياتوا يخشون من استعادة قرطاجه لقوتها مرة أخرى ، وأخذوا يحتلقون الذرائع من أجل القضاء عليها ، وأخذ أعداء هانيبال يتآمرون عليه ، فاتهموه أمام السناتو بأنه يشارك أعداء روما فى التآمر عليها ، فأرسل السناتو بعثه إلى قرطاجه ، لتقديم شكوى أمام سلطات قرطاجه ضد هانيبال . وعندئذ أدرك هانيبال أن من الأفضل له أن ينجو بحياته ، فبادر بالفرار من قرطاجه (٢).

كان ماسينيسا ملك نوميديا يحمل حقدا دفينًا على قرطاجه ، ويحلم ببناء إمبراطوريه فى شمال أفريقيا ، وكانت قرطاجه تمثل العقبة الكؤود أمام تحقيق طموحاته ، وقد أحس بخوف الرومان من قرطاجه ، ورغبتهم فى تدميرها ، فراح يغذى شكوكهم تجاه القرطاجيين ، ويحرضهم ضدهم ، وأخذ يتحرش بممتلكات قرطاجه ، التى لم تجد أمامها غير الشكوى للرومان ، وفى عام ١٥٥ ق.م. قام السناتو بإرسال بعثه للتحقيق فى تلك الشكوى ، وكانت البعثه بقيادة أحد السياسيين البارزين ، وهو كاتو الأكبر Cato ، وعندما وصلت البعثه إلى قرطاجه ، أثار أنبهار أعضاء البعثه حالة الشراء التى وجدوا عليها قرطاجه ، على الرغم من تعرضها للهزيمة مرتين ، كما ساورتهم الشكوك حول تفكير قرطاجه فى إعادة بناء قوتها ، وأخذ كاتو يحرض الرومان ضد قرطاجه ، ويردد عبارته الشهيرة أمام السناتو " قرطاجه يجب أن تدمر " delenda est Carthago * (٣).

(1) C.A.H VIII. pp. 155-161

(2) Cary , op. cit. p. 147 .

(3) Cary., op. cit. p. 148

لم يدخر ماسينيسا وسعاً لاستشارة قرطاجة ، والتدخل في شئونها الداخلية ، وبعد أن تحصل القرطاجيون كثيراً ، نفذ صبرهم ، واضطروا لإعلان الحرب عليه (١) ، ولكنه تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش قرطاجي في عام ١٥٠ ق.م. وعلى الرغم من ذلك يادر الرومان بحشد قواتهم لمحاربة قرطاجة ، بحجة أنها خرقت شروط الصلح ، التي تنص بعدم قيامها بشن الحرب إلا بعد استئذان روما .

أدركت قرطاجة أبعاد المزامرة التي تحاك ضدها ، وأن النية مبيتة على تدميرها ، والقضاء عليها قضاء مبرماً ، فسارعت بإعلان استعدادها التام للاستسلام ، ولكن الرومان إمعاناً في إذلال قرطاجة ، طلبوا منها تسليم ٣٠٠ من قادتها ، وتسليم كافة الأسلحة ، وأن يقوم القرطاجيون بإخلاء المدينة ، وإلزامية بعيداً عن البحر ، مما يعنى الحكم على هذه الدولة بالإعدام ، نظراً لأنها تعتمد على التجارة البحرية .

رفضت قرطاجة هذه المطالب الجائرة ، وأخذت تستعد بشكل يائس للدخول في مواجهة كانت نتائجها معروفة سلفاً ، وعلى الرغم من حالة الوهن التي كانت عليها قرطاجة ، فقد أثبتت أنها ليست فريسة سهلة ، يستطيع الرومان ابتلاعها بسهولة ، فقد قاومت ببسالة لمدة أربعة أعوام . وفي عام ١٤٨ ق.م. عهد الرومان بالقيادة العسكرية في حرب قرطاجة ، إلى شاب بارع هو سكيبو أميليانوس Scipio Aemelianus ، الذي أظهر نبوغاً في القيادة العسكرية ، فهزم القرطاجيين ، واقتحم مدينتهم في عام ١٤٦ ق.م. وخاض جنوده حرباً في شوارع المدينة ومنازلها ، إلى أن سقطت المدينة بعد مقاومة باسلة ، وانتقم الرومان من أهل قرطاجة انتقاماً بشعاً ، فقاموا ببيع خمسين ألفاً من مواطنيها في أسواق النخاسة ، وتم تسرية مباني المدينة بالأرض ، وهكذا انتهت أسطورة قرطاجة إلى الأبد . وأصبح الرومان قادرين على النوم في سلام ، بعد أن زال هذا الكابوس ، الذي كان يقض مضاجعهم ، وتم تحويل قرطاجة إلى ولاية رومانية ، هي ولاية أفريقيا Provincia Africa (٢).

(1) C.A.H. VIII, p. 476.

(2) C.A.H.VIII, p. 484

الفصل الخامس مصر ولاية رومانية

نحدثنا في الصفحات الماضية عن قيام الدولة الرومانية ، ورأينا كيف تحولت روما من مدينة صغيرة قامت على ضفاف نهر التاير ، إلى دولة شملت كافة شبه الجزيرة الإيطالية ، وفي سبيل تحقيق ذلك ، اضطر الرومان إلى خوض غمار حروب مريرة ، من أجل الحفاظ على مصالحهم ، والدود عن دولتهم ، مثل الحروب البونية ، التي انتهت بانتصار الرومان على قرطاجة ، والقضاء على هذه الدولة قضاءً مبرماً ، وتحويلها إلى ولاية رومانية . وقد كانت الحروب البونية سبباً مباشراً في جذب اهتمام الرومان لمنطقة شرق البحر المتوسط ، ومتابعة ما يدور فيها ، وقد دفعهم إلى هذا الأمر تورط فيليب الخامس ملك مقدونيا ، في التحالف مع هاتيبال ، عدوهم اللدود ، واضطر الرومان إلى خوض سلسلة من الحروب عرفت باسم الحروب المقدونية ، انتهت بتدمير مملكة مقدونيا ، وتحويلها إلى ولاية رومانية .

لم يعد أمام الرومان بعد أن فتحت شهيتهم لمزيد من التوسع ، سوى دولة البطالمة في مصر ، والدولة السلوقية ^(١) ، فوضعوا سياسة قوامها العمل على إضعاف هاتين الدولتين ، والتدخل في شئونهما ، وكان بصيبيهم الهلع في بعض الأحيان ، إذا ما اعتلى العرش في إحدى هاتين الدولتين ملك قوى . وقد تحققت مأرب الرومان عندما نجحوا في إسقاط الدولة السلوقية في عام ٦٤ ق.م. وأخذوا بعد ذلك يشربصون بدولة البطالمة ، ويتحينون الفرصة

(١) لما كان هدفنا هو دراسة أحوال الشرق الأدنى في ظل الحكم الروماني فإننا نركز فقط على عددة الرومان بدولة البطالمة في مصر ، والدولة السلوقية في سوريا وبلاد الرافدين . وليس من شأننا أن ندخل في تفاصيل أخرى حول التوسع الروماني في مناطق أخرى مثل البلقان أو آسيا الصغرى .

للاقتضاض عليها ، إلى أن تمكنوا في النهاية من إسقاط دولة البطالمة ، وتحويل مصر إلى ولاية رومانية . ولما كان الهدف الذي نرمى إليه في الصفحات التالية ، هو دراسة تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، فإننا نجد أنه من الضروري أن نجيب على سؤال مفاده كيف أصبحت مصر ولاية رومانية ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضى منا أن نعود إلى الرواء ، لكي نتتبع تطور العلاقة بين روما ودولة البطالمة ^(١) ، وقد يضطرننا هذا الأمر إلى ذكر وقائع سبق لنا أن عالجناها في معرض حديثنا عن تاريخ مصر في عصر البطالمة ، إلا أننا نذكرها الآن في إطار محدد ، يقتصر على العلاقات الرومانية المصرية ، ويمكن القول بأن هذه العلاقات مرت بثلاث مراحل ، ففي المرحلة الأولى ، قامت علاقات متوازنة بين الطرفين ، حيث كانت مصر دولة قوية لها مكانتها الدولية ، بينما كانت روما دولة ناهضة ، أما المرحلة الثانية فقد شهدت بداية التدخل الروماني في شئون مصر الداخلية ، بعد أن أخذت عوامل الضعف تدب في أوصال دولة البطالمة . لأسباب فصلناها من قبل ، أما المرحلة الثالثة والأخيرة ، فهي مرحلة الهيمنة الرومانية على مصر ، وفي هذه المرحلة تحولت مصر إلى دولة ضعيفة مهضمة الجناح ، بينما تحولت روما إلى قوة عالمية ، وهي المرحلة التي انتهت بتحويل مصر إلى ولاية رومانية ، والآن نعود إلى الحديث عن هذه المراحل تفصيلاً .

المرحلة الأولى :

ترجع بداية العلاقات بين مصر وروما إلى عهد بطليموس فيلادلفوس ، فقد أدرك هذا الملك أهمية هذه الدولة الوليدة ، فبادر بإرسال بعثة إلى روما في عام ٢٧٣ ق.م. وكانت روما آنذاك قد غرغت لتوها من إحكام قبضتها على شبه الجزيرة الإيطالية ، ودخلت قواتها آخر معاقل المقاومة ، وهي مدينة تارنتم ، في جنوب إيطاليا ، وردت روما على المبادرة المصرية بإرسال بعثة إلى مصر في العام ذاته . ، وقد ثار جدل بين الباحثين حول الفرض من تبادل هذه

(١) أفضل معالجة لهذا الموضوع هي التي قدمها الدكتور عبد اللطيف أحمد على . انظر . عبد اللطيف أحمد على ، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، ص : ١ - ٣٠ .

البعثات بين الطرفين ، ولكن مما لا شك فيه أن هناك اعتبارات سياسية واقتصادية ، أملت على الطرفين السعى نحو إقامة علاقات بينهما (١) .

ويذكر المؤرخ بوليبيوس أنه في فترة تقع ما بين عامي ٢١٥ ، ٢١٠ ق.م. تهددت روما بالمجاعة ، بسبب قيام هانيبال بتدمير حقول القمح في إيطاليا ، مما دفع الرومان إلى إرسال طلب إلى بطليموس الرابع ملك مصر ، لتزويدها بشحنات من القمح (٢) . ومع بدايات القرن الثاني ق.م. ازدادت العلاقات التجارية بين مصر وروما توثقاً ، وكان يوجد في الإسكندرية الكثيرون من التجار الرومان والإيطاليين (٣) .

وقد أورد الدكتور عبد اللطيف أحمد على نصاً للمؤرخ يوتروبيوس Eutropius ، يقول أن الرومان بعد أن خرجوا من الحرب البونية الأولى منتصرين ، أرسلوا سفراء إلى بطليموس يورجيتيس الأول ملك مصر ، وعرضوا عليه مساعدتهم في حربه ضد أنطيوخس ملك سوريا ، الذي عليه الحرب ، إلا أن ملك مصر شكرهم على هذا العرض ، لأن القتال كان قد انتهى (٤) . ولكن هذه الرواية لا تلقى قبولا لدى غالبية المؤرخين .

كما أورد المؤرخ ليفيوس Livius رواية أخرى ، جاء فيها أن الرومان في أعقاب انتصارهم على هانيبال في موقعة زاما Zama في عام ٢٠٢ ق.م. أرسلوا بعثة إلى بطليموس الخامس ، لكي يعلنوا له نبأ هذا الانتصار ، ولكي يتقدموا له بالشكر على موقفه الطيب خلال الحرب البونية الثانية ، وقد عبروا عن أملهم في أن يظل على موقفه تجاههم ، خلال الحرب المتوقعة بينهم وبين فيليب الخامس ملك مقدونيا (٥) . وفي محاصرة منه للإعصاب عن

(١) عن العلاقات الرومانية المصرية في القرن الثالث ق.م. انظر : Neatby.L.H , Romano-Egyptian Relations during the third Century B.C., T.A.P.A.81, 1950 .

(2) Polyb. IX 11.a .

(3) Fraser, op. cit. p. 155 .

(٤) عبد اللطيف أحمد على . المرجع السابق ، ص ٤ : لسنا ندري من هو المقصود بأنطيوخس ملك سوريا . rex Syriae Antiochus الذي ورد ذكره في هذا النص ، فإن الحرب السورية الثالثة التي خاضها بطليموس يورجيتيس ، شبت بعد وفاة أنطيوخس الثاني ، وقد اضطر الملك البطلمي إلى العودة إلى مصر ، بعد أن وقع اتفاقاً مع الملك الجديد سلوقس الثاني في عام ١٤١ ق.م.

(5) Livius. XXXI, 2, 3-4 .

حسن نوابه ، قام بطلميوس الخامس بإرسال بعثة إلى روما ، لكي يخبر السناتو بأن أهل مدينة أثينا طلبوا معاونته ضد تهديدات فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وأنه على استعداد لتلبية هذا الطلب ، إذا ما وافق الرومان على ذلك ، وقد شكره الرومان على هذا الموقف ، وأخبروه أن بإمكانهم تقديم العون إلى أصدقائهم الأثينيين ، إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وبما هو جدير بالذكر أن الملك السلوقي أنطيوخس الثالث ، كان قد استغل فرصة انشغال الرومان في الحرب مع فيليب الخامس ، وقام بانتزاع إقليم جوف سوريا من مصر في عام ٢٠٠ ق.م. ولم يكن من المتوقع أن يقف الرومان مكتوفي الأيدي أمام هذه الخطوة ، وكان لابد لهم أن يحاسبوا أنطيوخس الثالث على هذا الموقف ، بعد أن يفرغوا من حربهم مع فيليب الخامس .

وعلى الرغم من رباط المصاهرة بين أنطيوخس الثالث و بطلميوس الخامس ، فإن هذا الأخير إدراكًا منه للخطر الذي يمثله أنطيوخس ، يبادر بإرسال بعثة إلى روما ، لكي يعرب للرومان عن مخاوفه من الملك السلوقي ، وعزز هذا الموقف بإرسال هدية من القمح والمال للرومان ، وعرض عليهم أن يضع موارد مصر تحت تصرفهم ، إذا ما نشبت الحرب بينهم وبين أنطيوخس الثالث ، وقد اعتذر الرومان عن عدم قبول عرض الملك البطلمي (١) .

لم تكن السياسة التي اتبعتها روما إزاء كل من فيليب الخامس وأنطيوخس الثالث ، مردها الحرص على مصالح مصر ، بل الحفاظ على مبدأ توازن القوى في شرق البحر المتوسط ، وبما لا شك فيه أن قيام أنطيوخس الثالث بانتزاع إقليم جوف سوريا من مصر ، يعد إخلالاً بهذا المبدأ ، ومن ناحية أخرى فإن تحركات الملك السلوقي في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، أثارت مخاوف الرومان ، فبدأوا في استدواجه ، وأخذوا في التحرش به ، حتى تمكنوا من إيقاع هزيمة قاصمة به في موقعة ماجنيسيا في عام ١٨٩ ق.م. وأجبروه على توقيع صلح مهن ، وهو صلح أباميا Apamia الذي جرى توقيعه في عام ١٨٨ ق.م. وهو الصلح الذي جعل لروما الكلمة العليا في شئون العالم الهلينيستي .

وعلى الرغم من الضربة التي وجهتها روما إلى الدولة السلوقية ، فإن أطماع الملوك السلوقيين في مصر لم تتوقف ، ففي عام ١٧٠ ق.م. قام أنطيوخس الرابع بغزو مصر ، وإذا كانت الاضطرابات التي أثارها اليهود في فلسطين قد اضطرته إلى الانسحاب من مصر لبعض

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

الوقت ، فإنه لم يلبث أن عاود غزوها مرة أخرى فى عام ١٦٨ ق.م. وكانت الحجة التى تفرع بها أنطيوخس لغزو مصر ، هى المحافظة على حقوق الملك البطلمي فيلوميتور ، ابن شقيقته الملكة كليوباترة الأولى ، ولكن ما يفضح نواياه الحقيقية ، قيامه بتمصيب نفسه فى منف على نهج الفراعنة ، سائراً على دؤب الإسكندر الأكبر ، وقد وأصل يعد ذلك سيره وحاصر مدينة الإسكندرية .

لم يكن الرومان يبنأى عما يحدث فى مصر ، على الرغم من انشغالهم بالحرب المقدونية الثالثة ، وبعد أن تأكد انتصارهم فى هذه الحرب ، فإنهم تلقوا بيزيد من الترحيب الطلب الذى تقدم به ملك مصر وأشقائه للمساعدة فى إخراج أنطيوخس الرابع من مصر ، فأجبروا الملك السلوقى على الخروج من مصر بطريقة مهينة ، من خلال الأسلوب الذى أطلق عليه الأستاذ روستروفيتزف ، أسلوب الدبلوماسية الوقحة (١).

المرحلة الثانية :

إذا كانت دائرة بولمبيوس قد أنتقلت مصر من الاحتلال السلوقى ، فإنها أوقعتها فى خطر أشد ، وهو تسلط الروماني ، فقد انتقلت العلاقة بين مصر وروما إلى طور جديد ، ونصب الرومان من أنفسهم أوصياء على مصر (٢) ، وأعطوا لأنفسهم الحق فى التدخل فى شئونها الداخلية ، وقد ساعدتهم على ذلك الظروف الداخلية فى مصر ، وعلى رأسها الصراعات بين أبناء البيت المالكي ، التى فتحت الباب على مصراعيه أمام التدخل الخارجى ، فقد صارت روما هى الملاذ الذى يحتسب به أبناء البيت المالكي كلما واجهتهم مشكلة . ولم يلبث الخلاف أن ثار بين بطلمبيوس السادس فيلوميتور وشقيقه الأصغر ، الذى كان شريكه فى الحكم من الناحية الرسمية ، فقد انتهز الشقيق الأصغر فرصة إنشغال الملك فى قمع ثورة قامت فى جنوب مصر ، وأخذ فى إثارة السكندريين ضده ، وعندما عاد الملك إلى الإسكندرية ، وجد

(1) Rostovizeff., op. cit. p. 737 .

يقول الأستاذ بل Bell فى تعليقه على هذا الموقف * لقد كانت أساليب روما الدبلوماسية تنفجر إلى الغرق والكياسة فى بعض الأحيان ، إن لم توصف بالشراسة ، ولكن قوتها كانت أخطر من أن يتحداها إنسان" انظر : بل : المرجع السابق ص ٨٤ .

(2) Bowman., op. cit. p. 32 .

نفسه مخلوعاً من العرش ، فتوجه على الفور إلى روما ، لكي يشكو شقيقه إلى الرومان ، ويطلب منهم مساعدته في استرداد عرشه (١) .

وجد الرومان في هذا الموقف فرصة مواتية لإضعاف دولة البطالمة ، وبدلاً من العمل على رأب الصدع ، فإنهم قضوا بتقسيم المملكة بين الأخوين ، ونصحوا فيلوميتور بأن يتوجه إلى جزيرة قبرص ، وأن يبقى فيها انتظاراً لما ستسفر عنه جهود البعثة التي قرروا إرسالها إلى الإسكندرية ، إلا أن فيلوميتور لم يكتف طويلاً في قبرص ، فسرعان ماثار السكتديون على شقيقه الأصغر ، وكادوا أن يفتكوا به ، بسبب طغيانه وتجبره ، وأرسلوا إلى فيلوميتور لكي يعود إلى العرش مرة أخرى .

بعودة فيلوميتور إلى العرش ، انتفى الغرض من وجود البعثة الرومانية في الإسكندرية ، ولكن يبدو أن الرومان كانوا قد عقدوا العزم على تنفيذ مخططاتهم الرامية التي تقسيم دولة البطالمة ، فطلبوا من فيلوميتور أن يتنازل لشقيقه عن قورينائية (برقة) ، وقد استجاب الملك البطلمي لهذا الطلب ، أسلاً في أن يفرض برضا ، الرومان ، وأن يؤدي ذلك إلى هدوء الأحوال ، وقام بتوقيع معاهدة مع شقيقه في عام ١٦٣ ق.م. وقد تقرر بمقتضى هذه المعاهدة أن يحكم فيلوميتور مصر وجزيرة قبرص ، وأن تصبح قورينائية من نصيب شقيقه الأصغر .

لم يفتح بطليميوس الصغير بقورينائية ، وفي عام ١٦٢ ق.م. توجه إلى روما لكي يطالب بأن تكون جزيرة قبرص من نصيبه أيضاً ، وعلى الرغم من أن معاهدة عام ١٦٣ ق.م. كانت تحت رعاية الرومان ، إلا أنهم تنكروا لها ، وأيدوا حق بطليميوس الصغير في المطالبة بجزيرة قبرص (٢) ، وقرر السناتو ضم الجزيرة إلى قورينائية إلا أن هذا القرار لم يوضع موضع التنفيذ ، لأن أهل قورينائية ثاروا على بطليميوس الصغير ، فانشغل بهذه المشكلة ، ناركاً إلى حين المطالبة بجزيرة قبرص ، كما أن فيلوميتور تمسك ببنود اتفاقية عام ١٦٣ ق.م. ورفض أن يتنازل عن الجزيرة .

أثار هذا الموقف الأخير من فيلوميتور الرومان ، ورأوا فيه تحدياً لقرار السناتو ، وعندما أرسل فيلوميتور رسولا إلى روما لكي يشرح وجهة نظره ، أعرضوا عنه ورفضوا مقابلته ، بل إنهم أمروه بمغادرة روما خلال خمسة أيام ، وبأن عليه أن يخبر سيده بأنه لم يعد حليفاً للرومان (٣) .

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(2) Polyb. XXXI. 10 .

(3) Polyb. XXXI. 20 .



الإمبراطور أوغسطس

بعد أن تمكن بطليميوس الصغير من تسوية مشاكله في قورينائية ، عاد إلى المطالبة بجزيرة قبرص في عام ١٥٤ ق.م. فذهب إلى روما ومثل أمام السناتو بطريقة مسرحية ، حيث كشف عن جسده ، عارضاً على أعضاء السناتو آثار طعنات على جسده ، مدعياً أن شقيقه حاول اغتياله ، وحاول فيلوميتر أن يدفع عن نفسه هذه التهمة ، بإرسال مندوبين عنه ، ولكن السلطات الرومانية رفضت السماح لهؤلاء المندوبين بالمثل أمام السناتو ، وأصدر السناتو قراراً بتشكيل لجنة من خمسة أعضاء لمرافقة بطليميوس الصغير إلى قبرص ، وتنصيبه ملكاً على الجزيرة ، وأصدرت السلطات الرومانية أوامرها إلى حلفاء روما في الشرق بأن يقدموا العون والتأييد إلى بطليميوس الصغير (١) .

على الرغم من جهود الرومان لصالح بطليميوس الصغير ، فإن هذه الجهود لم تكلل بالنجاح ، فقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، حيث أجهض أهل قبرص المخططات الرومانية ، لأنهم كانوا يكرهون بطليميوس الصغير ، لما عرفوه عنه من طغيان وتجهير ، كما أن حلفاء روما أحجموا عن تقديم أى مساعدة له ، فلقى هزيمة نكراء ، ووقع أسيراً في يد شقيقه فيلوميتر ، وقد كان هذا الأخير كريماً معه إلى أبعد حد ، فعفا عنه ، وزوده بالمال وأعاده إلى قورينائية معززاً مكرماً . أما الرومان فإنهم فقدوا حماسهم لتأييده ، لأنهم انشغلوا بمشاكل أخرى ، كانت تواجههم في أسبانيا وشمال أفريقيا وبلاد اليونان .

لم تنجح المواقف النبيلة التي وقفها بطليميوس فيلوميتر تجاه شقيقه في القضاء على نوازع الشر الكامنة في نفس بطليميوس الصغير ، فإن هذا الشقيق ، الذي جيل على الحسة والدناءة ، قابل مواقف شقيقه بالبحود والكران ، وأخذ يروج شائعة مفادها أن بطليميوس فيلوميتر يخطط للاستيلاء على قورينائية . وقد بلغت كراهية بطليميوس الصغير لشقيقه حداً جعله يوصي بأن تزول مملكته للشعب الروماني في حالة عدم وجود وريث للعرش (٢) .

لم يتم تنفيذ هذه الوصية مباشرة ، لأن بطليميوس الصغير اعتلى عرش مصر بعد وفاة فيلوميتر ، إلا أنه أورث مملكة قورينائية لابنه غير الشرعي بطليميوس أبليون Apion ، وقد كرر هذا الأخير وصية أبيه في عام ٩٦ ق.م. وفي هذه المرة جرى تنفيذ الوصية ،

(1) Polyb. XXXIII. 11 .

(٢) عثر على نص هذه الوصية مدوناً على نقش في منطقة شعات في ليبيا ، انظر : S.E.G.IX, NO. 7 .

ووضع الرومان أيديهم على قورثائية ، ثم حولوها بعد ذلك إلى ولاية رومانية في عام ٧٤ ق.م^(١).

بعد أن جلس على عرش مصر صنيعة الرومان ، وخادمهم المطيع ، بطليموس الصغير الذي حمل لقب يورجتيث الثاني ، ازداد اهتمامهم بمصر ، وتفتحت شهيتهم على ثرواتها ، فأخذ الساسة الرومان يتقاطرون على الإسكندرية ، في زيارات ظاهرها توطيد أواصر الصداقة بين البلدين ، وباطنها التعرف على أحوال مصر الداخلية . فقد شهد عام ١٤٠ - ١٣٩ ق.م. وصول بعثة رومانية ، على رأسها القائد الشهير سكيبو إيميليانوس Scipio Aemilianus الذي دمر قطارحة ، وخلفاً لقواعد البروتوكول سارع الملك البطلمي باستقبال القائد الروماني في الميناء ، وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على المكانة العالية التي أصبحت للرومان في مصر^(٢) . وكان بطليموس الثامن من قاحيته حريصاً أشد الحرص على استرضاء الرومان ، نظراً لمواقفهم المساندة له في السابق . كما أنه كان يعول كثيراً على دعمهم له في البقاء على العرش ، لأنه كان يعلم مدى كراهية الشعب له .

لم يكتف الضيف الروماني بزيارة الإسكندرية ، ومقابلة المسؤولين فيها ، بل حرص على الإبحار في النيل حتى مدينة منف ، ومما لاشك فيه أنه قدم تقريراً وافياً عن أوضاع مصر الداخلية ، لكي يساعد السناتور في رسم سياسته تجاه مصر .

منذ ذلك الحين تواصلت زيارات الساسة الرومان لمصر ، وقد حرص رجال الإدارة في الإسكندرية على توفير سبل الراحة لهؤلاء الزوار ، ويبدو هذا جلياً من نص حملته لثا بردية يرجع تاريخها إلى عام ١١٢ ق.م^(٣) . ويتضمن هذا النص رسالة بحث بها أحد كبار الموظفين في الإسكندرية ، إلى أحد رؤسائه في مديرية أرسينوى (الفيوم) ، يخبره فيها بوصول أحد أعضاء السناتور الروماني إلى الإسكندرية ، وبأن هذا الضيف يرغب في زيارة مديرية أرسينوى ، ويطلب منه إعداد استقبال يليق بمكانة هذا الزائر صاحب المكانة الرفيعة .

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١١ : إبراهيم نصحي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

3) P. Tebt. 33



الإمبراطور الروماني في مصر الفرعونية في المعابد المصرية

ومن المرجح أن مثل هذه الزيارات أدت إلى زيادة معرفة الرومان بثروات مصر ، وأزكت رغبتهم في الاستيلاء عليها ، فأخذوا في اختلاق المآذير للتدخل في شئونها الداخلية . وقد ساعدهم على ذلك اضطراب الأحوال في مصر . فإن بطلميوس الثامن أضاف إلى أخطائه الكبيرة خطأ فادحاً ، حينما ترك أمر الحكم في يد زوجته المحبوبة لديه كليوباترة الثالثة ، وكانت امرأة متسلطة تمسك السلطة إلى حد كبير ، وقد انعكس ذلك في تعاملها مع ولديها ، اللذين توليا العرش بعد ذلك وهما بطلميوس التاسع سوتير الثاني ، وبطلميوس العاشر الإسكندر الأول .

عند وفاة بطلميوس التاسع في عام ٨٠ ق.م. لم يكن له ولد يرثه على العرش ، فأقام السكندريون ابنته برنيكى ملكة على البلاد . ولكن الدكتاتور الروماني سوللا Sulla سار بإرسال أحد صناعه ، وهو شاب ينتمى إلى الأسرة البطلمية ، وكان يعيش في روما ، لكي يتولى العرش ، وقد اضطر السكندريون إلى قبول هذا الشاب صاغرين ، وزوجوه من برنيكى . وتولى العرش باسم الإسكندر الثاني (بطلميوس الحادى عشر) . ولكن هذا الشاب الخامل ما لبث أن غدر بزوجه وقتلها ، حتى يسفر بالحكم ، مما أدى إلى ثورة شعب الإسكندرية ، وقام الأهالى بقتل الملك بعد حكم دام بضعة أيام فقط (١) .

لما كان رجال البلاط في الإسكندرية على يقين من أن الرومان لن يتركوا هذه الفرصة ، وسوف يحاولون بشتى الطرق التدخل في مسألة شغل العرش البطلمى ، فقد أخذوا على عاتقهم أن يعملوا على تفويت هذه الفرصة عليهم ، فأخذوا في البحث عن وريث من نسل البطالمة . ووجدوا صائتهم المنشودة في ولدين غير شرعيين لبطلميوس التاسع ، كانا يعيشان في آسيا الصغرى ، فبادروا باحضارهما إلى الإسكندرية ، حيث تقرر أن يتولى أكبرهما عرش مصر في عام ٨٠ ق.م. وأن يصبح الشقيق الأصغر ملكاً على قبرص .

المرحلة الثالثة :

وهي المرحلة الأخيرة في العلاقات بين مصر وروما ، والتي انتهت بسقوط دولة البطالمة ، واستيلاء الرومان على مصر . والتي مارس فيها الرومان هيمنة كاملة على شئون مصر . ولتفصيل ذلك نقول أن بطلميوس الثانى عشر اعتلى العرش في عام ٨٠ ق.م. وحمل لقب

(١) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٦٢ .

نيوس ديونيسيوس Neos Dionysos ، غير أن الناس أطلقوا عليه لقب الزمار * أوليتيس *
 Auletes ، ليراعته في العزف على الزمار . ولكن الرومان رفضوا الاعتراف به ، وأدعوا أن
 بظلميوس الحادي عشر أوصى بأن تؤزل ملكته للشعب الروماني ، وهي وصية مختلقة ، وليس
 لها أساس من الواقع ^(١) ، ولما كان بظلميوس الزمار أضعف من أن يواجه الرومان ، فإنه أخذ
 يعمل على كسب رضاهم ، والحصول على اعترافهم بأن شكله ، ولجأ في سبيل ذلك إلى وسائل
 مهينة ، وقد امتلأ قلبه رعباً حينما قام الرومان بضم قورينائية ، وتحريكها إلى ولاية رومانية
 في عام ٧٤ ق.م. وخاف من إقدامهم على نفس الخطوة تجاه مصر.

ومن ناحية أخرى فإن محاولات الرومان الرامية إلى الاستيلاء على مصر لم تتوقف ،
 وأصبحت هذه المسألة تحتل جانباً هاماً من الصراع الجزري في روما ، ففي عام ٦٥ ق.م. تقدم
 كراسوس Crassus الرقيب بمشروع يقضى بفرض جزية سنوية على مصر ، بحجة أن ملكها
 الحالي خالف وصية الملك السابق ، الذي أوصى بالملكة للرومان ، ولكن هذا المشروع لم يقدر
 له النجاح ، بسبب معارضة الخطيب شيشيرون ، الذي كانت تربطه علاقة حميمة بالقائد
 بومبي ، ورأى أن نجاح كراسوس في تقرير هذا القانون بعد انتصاراً للحزب الديمقراطي المناري ،
 ليومئى . وفي العام التالي أوعز كراسوس إلى أحد نقيب العامة بتقديم مشروع يقضى بضم
 مصر إلى الممتلكات الرومانية ، وكان مصير هذا المشروع مثل سابقه ، بعد أن تصدى له
 شبشرون مرة أخرى ، وتمكن من إفشاله . وإذا كان بظلميوس الزمار قد أفلت في هذه المرة ،
 فإن مصير العرش البطلمي ظل معلقاً بما يدور في أروقة السياسة الرومانية ^(٢).

وفي ذلك الحين أرسل الرومان بومبي إلى الشرق ، وأثناء تواجده في سوريا أرسل إليه
 بظلميوس الزمار الهدايا ، ووجه له دعوة لزيارة مصر ، ولكن بومبي قبل الهدايا واعتذر عن
 تلبية الدعوة ، لأن مثل هذه الزيارة من الممكن أن تؤدي إلى إثارة المساعب أمامه في روما ،
 وبعد أن عاد بومبي إلى روما في عام ٦١ ق.م. قامت جفوة بينه وبين السناتو بسبب معارضة
 هذا المجلس لتنظيمات بومبي في الشرق ، وقد أدى هذا الموقف إلى تقارب بين بومبي وأعدائه
 السياسيين ، وقام نتيجة لذلك ما عرف بالتحالف الثلاثي الأول ، والذي ضم بومبي

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(2) Cary, op. cit. p. 245 .

وقيصر وكراسوس ، وكان من نتائج هذا التحالف فوز يوليوس قيصر بمنصب القنصلية عن عام ٥٩ ق.م (١) .

كان بطليموس الزمار يراقب ما يحدث في روما بكثير من القلق والتربص ، وكان يتوقع أن تكون الخطوة الأولى التي يقدم عليها قيصر هي ضم مصر ، وذلك نظراً لحماسة الشديدي لهذا المشروع في الفترة السابقة ، ولكن قيصر كان في أمس الحاجة إلى المال ، لذا عقد صفقة مع ملك مصر ، حصل بمقتضاها على مبلغ كبير من المال في مقابل تسوية المسألة المصرية ، والاعتراف ببطليموس الزمار ملكاً شرعياً ، وفي شهر فبراير من عام ٥٩ ق.م. حصل الزمار على الاعتراف الذي كان يتشده ، وتضمن القرار الروماني اعتبار بطليموس الزمار " صديق الشعب الروماني وحليفه " (٢) .

لم تفلح الرشاري التي راح بطليموس الزمار يوزعها على الساسة الرومان في وقف أطماعهم تجاه مصر ، فلم يكذب على صدور قرار الاعتراف بالزمار ملكاً على مصر ، حتى تقدم كلوديوس نقيب العامة في عام ٥٨ ق.م. بمشروع بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، التي كانت من أملاك البطالمة ، ويحكمها شقيق بطليموس الزمار ، وقد وافق السناتو على هذا المشروع ، وتم تكليف أحد الساسة الرومان وهو كاتو الأصغر Cato Minor بالذهاب إلى قبرص ، لكي يفتح ملكها بالتنازل عن العرش ، ولكن هذا الملك اليائس فضل الانتحار ، حينما تأكد من نية الرومان على الاستيلاء على بلاده ، وتمكن كاتو من إنجاز مهمته ، واستولى على الكنوز الملكية في قبرص . وكانت جزيرة قبرص هي آخر ما تبقى لمصر من ممتلكاتها الخارجية ، ولكن بطليموس الزمار لم يحرك ساكناً ، ولم ينس بيت شغل ، ويعتقد بعض الباحثين أنه نزل طواعية عن هذه الجزيرة . في الاتفاق الذي عقده مع الرومان مقابل الاعتراف به ملكاً على مصر (٣) .

أثار موقف بطليموس الزمار المتخاذل جماهير الإسكندرية ، وكانوا قد سأموا إرهابه لهم ، واستنزافه لأموالهم ، لإرضاء جيش الرومان ، فثاروا ثورة عارمة . اضطر على أثرها بطليموس

(1) Cary, op. cit. pp. 248-9 .

(٢) إبراهيم نصحي : تاريخ الرومان ، ج ٢ ، ص ٥٠٣ .

(٣) سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

الزمار إلى الهرب من الإسكندرية ، حيث يم وجهه شطر روما ، لكي يطلب من الرومان أن يعيدوه إلى العرش . فقام السكندريون بتعيين ابنته برنيكى الرايعة ملكة على البلاد . وهكذا عادت المسألة المصرية لكي تفرض نفسها على مسرح السياسة الرومانية من جديد ، واحتدم الصراع الحزبى حول قضية إعادة بطلميوس الزمار ، وكان بومبى الذى نزل الزمار فى ضيافته يتطلع إلى القيام بهذه المهمة .

بادر السكندريون من ناحيتهم بإرسال وفد إلى روما ، لتقديم شكوى ضد ملكهم المخلوع ، وناشدوا الرومان ألا يعيدوه إلى الحكم مرة أخرى ، ولكن فى عام ٥٧ ق.م. أستد السناو إلى قنصل ذلك العام مهمة إعادة بطلميوس الزمار إلى العرش ، ولكن أنصار بومبى تمكنوا من أنفصال هذا القرار ، واستغلوا حدوث ظاهرة كانت تعتبر نذير شؤم لدى الرومان ، وهى نزول صاعقة على قنصل الإله جوبيتر ، كبير الآلهة عند الرومان ، وحينما طلب السناو من جماعة العراقيين أن يفسروا هذه الظاهرة ، فإنهم حذروا من استخدام القوة لإعادة الزمار إلى الإسكندرية ، وحينئذ تقدم أنصار بومبى باقتراح يقضى بإرسال بعثة دبلوماسية إلى الإسكندرية ، يتولى رئاستها بومبى لإقناع السكندريين بإعادة الزمار إلى العرش ، ولكن خصوم بومبى كانوا يقفون له بالمرصاد ، فأخذوا يرددون بأن كراسوس هو الأحق برئاسة مثل هذه البعثة (١) .

ضاق بطلميوس الزمار ذرعاً بتلك الخلافات ، وأدركه السأم ، فقرر أن يقوم بحل هذه المشكلة بطريقة الخاصة . فاتصل بجابينيوس Gohinius وإلى سوريا الرومانى ، وعرض عليه رشوة كبيرة إذا تمكن من إعادته إلى العرش مرة أخرى ، فقبل جابينيوس هذا العرض ، ويبدو أنه حصل على الضوء الأخضر من بومبى للقيام بهذه المهمة . وفى ربيع عام ٥٥ ق.م. اقتحم جابينيوس الحدود المصرية ، مصطحباً معه بطلميوس الزمار ، وقد أقدم على هذا العمل دون الحصول على إذن من السناو ، وتزرع بحجة واهية ، وهى أن القوات البطلمية كانت تتعرض بالقوات الرومانية على الحدود ، وأنها تتأهب لغزو سوريا (٢) .

عندما وصلت القوات الرومانية إلى مدينة بيلوزيون (بوابة مصر الشرقية) سارعت الحامية اليهودية التى كانت تتولى حراسة بيلوزيون بتسليم المدينة للرومان ، وشقت القوات

(١) إبراهيم نصعى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٥ .

الرومانية طريقها إلى الإسكندرية دون عناء ، وأعادت الزمار إلى العرش مرة أخرى ، وبعد أن ترك جانيبيوس بضعة كتائب في الإسكندرية لكي تشد أزر بطلميوس الزمار قفل عائداً إلى سوريا .

كان من الممكن أن تصبح مصر ولاية رومانية منذ ذلك الحين ، بعد أن دخلت القوات الرومانية عاصمة البلاد وسيطرت عليها ، ولكن الصراع بين الأحزاب الرومانية هو الذي أدى إلى تأخير هذه الخطوة .

كانت الفترة ما بين عام ٥٥ وعام ٥١ ق.م. وهو العام الذي مات فيه بطلميوس الزمار ، من أحلك فترات تاريخ مصر في عصر البطالمة ، فقد مارس هذا الملك انتقاماً بشعاً ضد خصومه ، وأعدم الكثيرين ممن وقفوا ضده ، وعلى رأسهم ابنه برنيكي الرابعة . وصار الرومان يتدخلون في كل كبيرة وصغيرة من شئون مصر ، الدولة الضعيفة المغلوبة على أمرها ، والتي نكبت بهؤلاء الحكام من أمثال بطلميوس الزمار ، الذين كانوا مجرد دمية تحركها الأصابع في روما كيفما تشاء ، وليس هناك ما هو أدل على هذا التسلط من قيام بطلميوس الزمار بتعيين أحد دائنيه من الرومان ويدعى رابيريوس Rabirius في منصب وزير المالية ، وإطلاق يده في شئون البلاد .

أثارت السياسة المالية الجشعة التي مارسها هذا الوزير ثائرة السكندريين ، فهبوا ثائرين وكادوا أن يفتكوا برابيريوس ، مما اضطره إلى الفرار من الإسكندرية تحت جنح الظلام . وفي عام ٥١ ق.م. توفى بطلميوس الزمار تاركاً وصية بأن تخلفه على العرش كبرى بناته ، وهي كليوباترة السابعة وكانت تبلغ من العمر ١٨ عاماً ، على أن تتزوج من شقيقها بطلميوس الثالث عشر ، الذي كان صبيّاً صغيراً ، وناشد الزمار في هذه الوصية الرومان أن يكونوا أمناء على تنفيذها ، وأن يضعوا أبناءه تحت وصايتهم ، وقد تم وضع هذه الوصية في الخزنة العامة للدولة الرومانية (١) .

كانت كليوباترة فتاة ذكية وطموحة ، فلم ترضخ لرغبات رجال القصر ، الذين أرادوا أن يستأثروا بالسلطة من دونها ، وعندما تبين لهم أنها ليست سهلة القيادة ، أخذوا في الدس لها ، واهتموها بأنها تتأمر على حياة شقيقها لكي تنفرد بالحكم ، ولجئوا في إثارة شعب

(1) Bowman, op. cit. p. 33

الإسكندرية ضدها ، وقد دفعها الخوف على حياتها إلى الفرار من الإسكندرية ، وانجذبت إلى الحدود الشرقية لكي تجمع جيشاً يمكنها من استعادة مكانتها ، ومن ناحية أخرى قرر الأوصياء على شقيقها إجهاد مخططاتها ، فتوجهوا على رأس القوات إلى حيث ترابط كليوباترة ، مصطحبين معهم الملك الصغير ، ورابط جيشاً كليوباترة وشقيقها بالقرب من بيلوزيون استعداداً للدخول في معركة قاصلة .

كان الرومان يراقبون الموقف عن كثب ، وبعد قرار كليوباترة من الإسكندرية أصدر السناتو قراراً بتشعين بومبي وصيماً على الملك الصغير بطلميوس الثالث عشر ، وفي روما انهار التحالف الثلاثي بعد وفاة كراسوس في معركة كرهاى مع الباثيين ، وبعد أن فرغ يوليوس قيصر من فتوحاته في بلاد الغال ، أخذ يستعد للعودة إلى روما ، وكان السناتو يخشى من طموحات قيصر ، ورغبته الجامحة في السيطرة على الحياة السياسية ، مما دفعه إلى رفض كافة الطلبات التي تقدم بها هذا القائد ، وأخذ رجال السناتو يدفعون بومبي إلى الدخول في مواجهة مع قيصر ، وبدأ العالم الروماني يستعد للدخول في حرب أهلية ، كان طرفها قيصر وبومبي (١) .

كانت بلاد اليونان هي المسرح الذي شهد المعركة الفاصلة بين الطرفين ، وهي معركة فارسالوس Pharsalus ، التي جرت أحداثها في عام ٤٨ ق.م (٢) . وانعقد لواء النصر فيها ليوليوس قيصر ، أما بومبي المهزوم فقد قر إلى مصر ، وكان يأمل في أن يجد الملاذ لدى أبناء بطلميوس الزمار صديقه القديم ، ولكنه لقي حتفه قبل أن تخطأ أقدامه أرض مصر ، لأن الأوصياء على الملك الصغير قرروا أن يتخلصوا من هذا الضيف المزعج ، حتى لا يقدموا ذريعة لقيصر لغزو مصر ، وعندما وصل قيصر بعد ذلك إلى الإسكندرية ، وعلم ب وفاة بومبي ، كان من المتوقع أن يعود إدراج إلى روما ، ولكنه بقي في الإسكندرية ، وأخذ يسير في شوارع المدينة تحف به شارات السلطة الرومانية ، بوصفه دكتاتوراً وممثلاً للشعب الروماني (٣) .

أثار تصرف قيصر جمهور الإسكندرية ، فقد أحسوا بأنه يتصرف كما لو كان فاتحاً للمدينة ، وليس مجرد زائر لها ، وساورتهم الشكوك في أن يكون سبب حضوره إلى

(1) Syme, Roman Revolution. pp. 48 - 9 .

(2) Syme, op. cit. p. 50.

الإسكندرية ، هو المطالبة بالديون التي كانت على بطلميوس الزمار ، بما يعنى فرض المزيد من الأعباء عليهم . ولكن قيصر أراد أن يبدد مخاوف السكندريين ، فأعلن أنه سيبقى فى الإسكندرية لى ينفذ وصية بطلميوس الزمار ، الذى تضمنت وصيته أن يكون الرومان أوصياء على أبنائه .

أرسل قيصر إلى كل من كليوباترة وشقيقها للحضور إلى الإسكندرية ، لى يعمل على حل الخلاف بينهما ، وقد استجابت كليوباترة ، وحضرت إلى الإسكندرية متخفية ، والتقت بالقائد الرومانى ، وشرحت له وجهة نظرها ، واستطاعت أن تستميله إلى جانبها ، ثم جاء بعد ذلك الملك الصغير بطلميوس الثالث عشر ، وأحسن ميل يوليوس قيصر إلى جانب كليوباترة ، مما أثار غضبه . أما رجال القصر فقد كانوا يخشون من نجاح قيصر فى التوفيق بين الشقيقتين ، مما يؤدى إلى ضياع نفوذهم ، لذا فإنهم استغلوا مشاعر الثغور الى سادات السكندريين ضد الرومان ، وأخذوا فى تأليبهم ضد يوليوس قيصر ، كما أصدروا أوامره إلى الجيش المربط عند بيلوزيون بالزحف على الإسكندرية (١) .

وجد يوليوس قيصر نفسه فى موقف حرج ، فقد كانت قواته ضئيلة الحجم ، وحوصر فى الحى الملكى ، مما اضطره إلى طلب النجدة من أصدقائه خارج مصر ، وبدأت تلك الحرب المعروفة بحرب الإسكندرية ، والتي كاد قيصر خلالها أن يلقى حتفه ، ولكنها انتهت بانتصار قيصر وحليفته كليوباترة السابعة فى عام ٤٧ ق.م. ، أما بطلميوس الثالث عشر فقد مات غريقاً ، ووقعت شقيقته المشاكسة أرسينوى فى الأسر ، وعقب ذلك قام يوليوس قيصر بتنصيب كليوباترة ملكة على مصر ، وتم تزويجها من شقيقها الأصغر بطلميوس الرابع عشر ، الذى كان صبياً صغيراً ، وقد قامت علاقة فى نفس الوقت بين كليوباترة ويوليوس قيصر ، لم تلبث أن أثمرت عن طفل أطلقت عليه كليوباترة اسم بطلميوس يوليوس قيصر ، بينما أطلق عليه السكندريون اسم قيصرون ، أى قيصر الصغير (٢) . وبعد ذلك عاد قيصر إلى روما فى عام ٤٦ ق.م. ، واحتفل بتصره وعرض فى موكب النصر أرسينوى ، التى ألقى بها فى السجن

(١) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٠٦ .

(2) Plut, Caesar, p. 49

بعد ذلك ، عقاباً لها على مشاركتها في الحرب ضد يوليوس قيصر ، إلى جانب شقيقتها بطلميس الثالث عشر (١) .

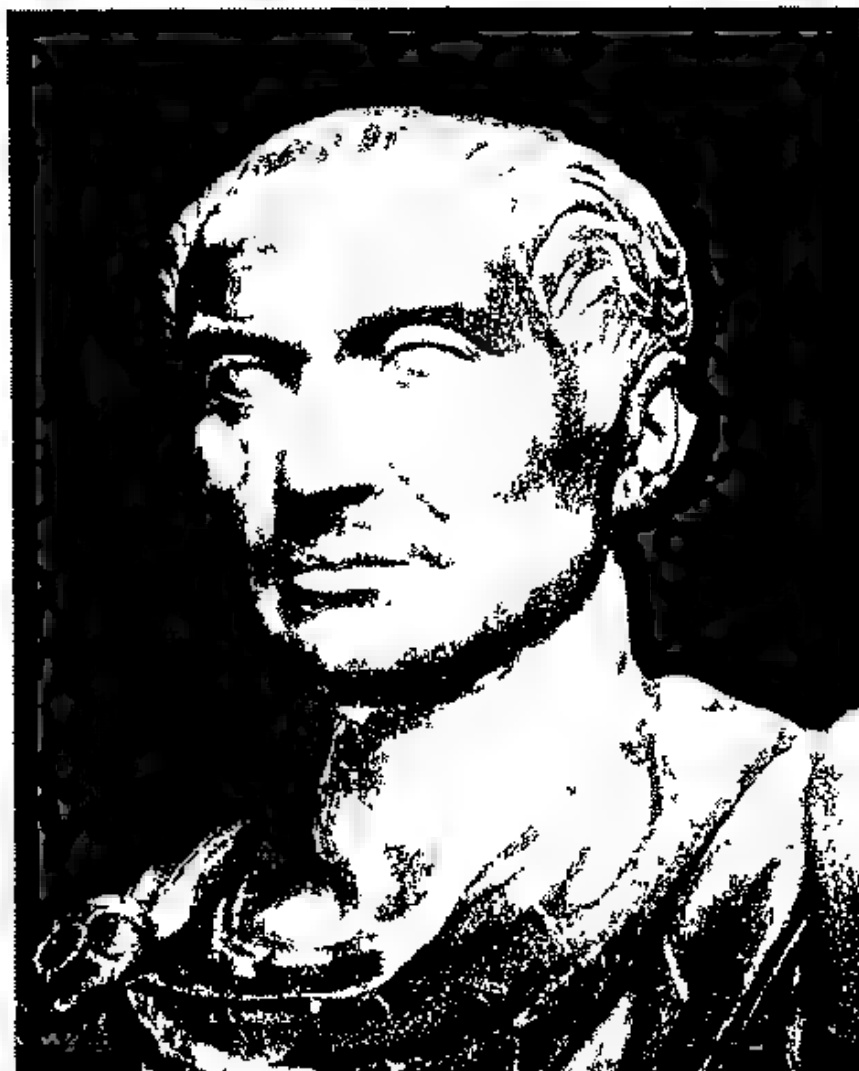
لم يلبث قيصر أن استدعى كليوباترة ، فلتحقت به روما في أواخر عام ٤٦ ق.م. ونزلت في أحد قصوره على ضفة نهر التاير ، وكانت قد اصطحبت معها شقيقتها بطلميس الرابع عشر ، وابنتها قيصرون ، الذي لم يكن قيصر قد رآه بعد . لأن كليوباترة المجهت بعد رحيله . وعلى الرغم من اعتراف قيصر بهذا الابن ، وبأن كليوباترة زوجة له ، إلا أن الرومان رفضوا الاعتراف بها زوجة لقيصر ، واعتبروها مجرد خليله ، لأن زوجة قيصر الشرعية ، كانت ماتزال على قيد الحياة ، وقد أثارت استياء الرومان ، وذلك لحرصها على التمسك بمظاهر الأبهة الشرقية ، بالإضافة إلى ما اتسم به سلوكها من غطرسة واستعلاء .

وفي روما حرص قيصر على الاستئثار بكافة السلطات في الدولة ، وبذا كما لو كان في طريقه إلى إلغاء النظام الجمهوري ، وفي يناير من عام ٤٤ ق.م. حصل على السلطة الدكتاتورية مدى الحياة ، وسرت الشائعات في روما بأن حضور كليوباترة كان من أجل إعلان الملكية ، وكانت كليوباترة من ناحيتها تعقد آمالاً كبيرة على قيصر ، وتحلم بأن تكون إلى جواره ملكة على العالم بأسره . في تلك الآونة ظهرت نبوءة تقول بأن الرومان لن يهزموا البارثيين إلا إذا كانوا تحت قيادة ملك (٢) . ولما كان الرومان يرفضون عودة الملكية إلى روما مرة أخرى ، فإن أنصار قيصر حاولوا الالتفاف على هذا الأمر ، بأن تقدموا باقتراح يقضى بمنح قيصر لقب ملك على الولايات . وقد عزز هذا الاقتراح الشكوك التي كانت تساور أعداء قيصر في أنه يرغب في إقامة نفسه ملكاً ، فقرروا الحيلولة دون وقوع هذا الأمر بأي شكل ، فأقدموا على قتل يوليوس قيصر في عام ٤٤ ق.م (٣) . وهكذا تبخرت آمال كليوباترة ، وعادت إلى مصر ، يسيطر عليها الحزن وخيبة الأمل ، ولم تلبث بعد ذلك أن تخلصت من

(١) نقلت أرسينوى بعد ذلك إلى معبد في مدينة إلبيسوس في آسيا الصغرى ، حيث لقيت حتفها بعد ذلك بمدير من أنطونيوس وجبريس من كليوباترة أنظر : لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٢) ربما كانت هذه النبوءة من اختلاق أنصار قيصر .

(3) Cary, op. cit. p. 281 .



يوليوس قيصر

شقيقها بطليموس الرابع عشر ، وأشركت معها فى الحكم ابنها قيصرون (بطليموس الخامس عشر) فى عام ٣٧ ق.م (١).

أصبح مصير مصر معلقاً بما يحدث على الساحة السياسية فى روما ، التى شهدت حرباً أهلية جديدة ، بين أنصار يوليوس قيصر من ناحية ، وبين أنصار النظام الجمهورى ، الذين اغتالوا قيصر من ناحية أخرى ، وقد تولى ماركوس أنطونيوس أبرز ضباط يوليوس قيصر زعامة رجال قيصر ، ولم يلبث أن شاركه فى القيادة أوكتافيانوس ، ابن يوليوس قيصر بالتبنى ، ثم انضم إليهما بعد ذلك لبيدوس Lepidus ، وكوتوا معاً ما يعرف بالتحالف الثلاثى الثانى ، وأخذوا فى ملاحقة قتلة قيصر من أمثال بروتوس وكاسيوس ، ولجأوا فى القضاء عليهم ، وكانت معركة فيليبى Philippi فى عام ٤٢ ق.م. هى نهاية الحرب بين الطرفين (٢) .

بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، اتفق أنطونيوس وأوكتافيانوس على تقسيم العالم الرومانى فيما بينهما ، بحيث يتولى أوكتافيانوس إدارة القسم الغربى ، أى القسم الذى يقع غرب إيطاليا ، أما القسم الشرقى فقد كان من نصيب أنطونيوس ، على أن تظل إيطاليا ذاتها مشاعاً بين القائدين .

توجه أنطونيوس بعد ذلك إلى الشرق ، وأرسل فى استدعاء حلفاء قيصر ، وكان من بينهم كليوباترة التى وقفت موقفاً ملبياً إبان الحرب التى دارت بين أنصار قيصر وقتلته ، وذلك على الرغم من العلاقة التى كانت تربطها بقيصر ، والتى كانت تستوجب عليها المبادرة بتقديم الدعم لأنصاره ، ولكن يبدو أن كليوباترة لم تشأ أن تتورط فى حرب لا تعلم من سيكون الرايغ فيها ، ومن ثم فقد أثرت أن تترث حتى ترى نتيجة الحرب .

لبت كليوباترة دعوة أنطونيوس ، وذهبت لمقابلته فى طرسوس فى عام ٤١ ق.م. فى موكب فخم . حيث اتخذت هيئة فيترس ربة الجمال عند الرومان ، وقد أحاط بها مجموعة من الغلمان فى شكل كيوييد إله الحب ، وأحاط بالجميع العازفون الذين راحوا يعزفون أعذب

(1) Bowman, op. cit. p. 35 .

(2) Syme, op. cit. pp. 202 ff .

الألمان^(١)، واستطاعت كليوباترة بما لها من فصاحة وقوة تأثير أن تثير موقفها أمام أنطونيوس، وعادت إلى الإسكندرية بعد أن وجهت دعوة إلى القائد الروماني لزيارة مصر، وقبل أنطونيوس الدعوة، وذهب إلى مصر، حيث قضى مع كليوباترة شتاء ٤١ - ٤٠ ق.م. ومنذ ذلك الحين أصبح أنطونيوس شديد الارتباط بكليوباترة^(٢).

توترت العلاقة بين أنطونيوس وأوكتافيانوس بعد ذلك، إلا أن أصدقاء هذين القائدين تمكنوا من التوفيق بينهما، وتم توقيع صلح برنديزي Brundisium بين أنطونيوس وأوكتافيانوس في عام ٤٠ ق.م. ومن أجل توطيد العلاقة بينهما، تزوج أنطونيوس من أوكتافيا شقيقة أوكتافيانوس^(٣).

وفي الوقت الذي تمكن فيه أوكتافيانوس من الانتصار على أعدائه، وتدعيم مكانته في الغرب، أخذت أسهم أنطونيوس في الهيوط وأصبح أسيراً لعلاقته بكليوباترة، التي رأت فيه أملاً جديداً يعرضها عن فقدان قيصر، وانتعشت آمالها مرة أخرى، في أن تسيطر على العالم عن طريق رجلها الجديد، ولم يكن يعكر صفو تلك الآمال، سوى وجود أوكتافيانوس على الساحة السياسية.

أخذت كليوباترة تعمل على إزكاء روح الفيرة في قلب أنطونيوس تجاه أوكتافيانوس، وفي عام ٣٧ ق.م. استطاعت أن تقنع أنطونيوس بإعلان زواجه منها، على الرغم من أنه كان متزوجاً من أوكتافيا شقيقة أوكتافيانوس، ومنذ ذلك الحين أخذ أنطونيوس في ارتكاب سلسلة من الحماقات المتوالية، ففي عام ٣٤ ق.م. حينما عاد ظافراً من حملته على أرمينيا، أقام احتفال النصر في الإسكندرية، مخالفاً بذلك العرف الروماني، الذي يقضى بإقامة مثل هذه الاحتفالات في روما، وأهدى انتصاراته إلى كليوباترة، التي وُصفت في هذا الاحتفال بالملكة أم الملوك، والمقصود هنا بالملوك هم أبناء كليوباترة منه، بالإضافة إلى قيصرين. وأراد أنطونيوس أن يهزج أوكتافيانوس وأن يسحب البساط من تحت أقدامه، فأصدر قراراً يقضى بالاعتراف بقيصرين ابناً شرعياً ليوليوس قيصر.

(1) Plut. Antonius. 26.

(2) Syme, op. cit. p. 214.

(3) Cary, op. cit. pp. 291 - 2.



كليوباترة السابعة

أخذ القائدان يتولقان إلى المزيد من المجاهرة بالعداء بينهما ، فأعلن أنطونيوس طلاقه لأوكتافيا (١) . وقد أدت الأخطاء التي ارتكبها أنطونيوس إلى تأليب الرأي العام في روما ضده ، فقد حرص على أن يظهر على الملأ في هيئة شرقية ، وأن يتخذ هو وكليوباترة هيئة الإله ديونيسوس Dionysus إله الخمر عند الإغريق ، العاشق للربة إيزيس المصرية ، التي كانت تشبه بها كليوباترة (٢) .

لم يدخر أوكتافيانوس وسعاً في استئثار مثل هذه المواقف ، وأخذ في التشهير بأنطونيوس ، فأذاع نص وصية يقال أن أنطونيوس قد أودعها في معبد الربة فستا Vesta في روما ، يوصي فيها بأن يدفن في الإسكندرية ، إلى جوار كليوباترة ، بعد وفاته ، وهي وصية يرى البعض أنها مزورة ، وأنها من بنات أفكار أوكتافيانوس (٣) .

أخذ أوكتافيانوس يلهم مشاعر الرومان ضد أنطونيوس ، وأمعن في تصويره على أنه مجرد ألعويه في يد كليوباترة عدوة روما ، وكان من الأسباب التي أدت إلى إزكاء الكراهية لدى الرومان لشخصية كليوباترة ، ظهور نومة بأن روما سوف تسقط على يد ملكة (٤) . وتمكن أوكتافيانوس من استصدار قرار يقضى بتجريد أنطونيوس من كافة سلطاته ، ولما كان أوكتافيانوس يعلم بأن أنطونيوس كان ما يزال يتمتع بالتأييد لدى قطاع لا يستهان به من الرومان ، فإنه لم يعلن الحرب عليه بل أعلن الحرب على كليوباترة ، بوصفها عدوة للرومان .

أصبح الصدام بين أوكتافيانوس وأنطونيوس أمراً مؤكداً ، ويبدو أنه قدر لبلاد اليونان أن تكون المسرح الذي تقع عليه المعارك الفاصلة في التاريخ الروماني ، فقد شهدت من قبل معركة فارماليوس ، التي حسمت النزاع بين قيصر وبومبي ، وفي هذه المرة توجه أنطونيوس بقواته إلى بلاد اليونان ، مدعماً بأسطول مصر ، وكانت كليوباترة حريصة على التدخل في الاستعدادات التي تجري للمعركة النهائية ، وأدى ظهورها الدائم في ميدان المعركة إلى تأييد الدعاية التي كانت تبثها أجهزة أوكتافيانوس . و زاد ذلك من حماس جنود أوكتافيانوس ،

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(2) Bowman, op. cit. p. 36 .

(٣) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٤) بل : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

بيتما أدى إلى شعور رجال أنطونيوس بالإحباط ، فأخذ الكثيرون منهم يهجرونه ، ويتنضمون إلى معسكر خصمه .

وقعت المجابهة النهائية بين الطرفين في خليج أكتيوم Actium على السواحل الغربية لبلاد اليونان ، وفي اللحظات الأولى للقتال فوجيء الجميع بانسحاب كليوباترة ومعها أسطولها ، ويبدو أنها اتخذت هذا الموقف بعد أن تبين لها رجحان كفة العدو ، ولم يلبث أنطونيوس أن لحق بها ، تاركًا قواته في ميدان القتال ، ولكن هذه القوات سرعان ما استسلمت لأوكتافيانوس ، الذي تمكن من إحراز نصرياهر في هذه الموقعة التي عرفت بموقعة أكتيوم في عام ٣١ ق.م^(١).

عندما عادت كليوباترة إلى الإسكندرية ، أرادت أن تعطل الناس ، وتوهمهم بانتصارها ، فزينت السفن بعلامات النصر ، وعندما لحق بها أنطونيوس أخذًا يتدارسان الموقف ، أما أوكتافيانوس فقد نزل بقواته في سوريا ، تمهيدًا للزحف على مصر ، وعند استكمال استعداداته بدأ مسيرته تجاه مصر ، وحاولت كليوباترة أن تتفاهم معه ، وعرضت عليه أن تتنازل عن العرش لابنائها ، كما عرض أنطونيوس أن يعتزل السياسة وأن يصبح مواطنًا عاديًا^(٢). وفي نفس الوقت نجح أحد قادة أوكتافيانوس وهو كورنيليوس جالوس Cornilius Gallus في اقتحام حدود مصر الغربية ، والسيطرة على مدينة برايتونيون (مرسى مطروح الحالية) .

تقدم أوكتافيانوس واستولى على بيلوزيون ، بوابة مصر الشرقية ، وأخذ في التقدم صوب الإسكندرية ، وبعد أن خاض أنطونيوس معركة يائسة ، أدركه القنوط فقرر الانتحار ، وحاولت كليوباترة أن تتفاوض مع أوكتافيانوس ، الذي تظاهر بقبول طلباتها ، وحين أدركت أنه يماطلها حتى يأخذها معه أسيره ، لكي يزين بها موكب نصره في روما ، قررت الانتحار ، وماتت في يوم ١٠ أغسطس من عام ٣٠ ق.م. وموت كليوباترة آخر حكام البطالمة ، سقطت هذه الدولة إلى الأبد ، وتحولت مصر إلى ولاية رومانية ، وهكذا تكون قد أجبتنا على السؤال الذي طرحناه في البداية ، وهو كيف أصبحت مصر ولاية رومانية ؟ .

(١) حول هذه المعركة والآراء التي ذكرت حول مسئولية كليوباترة - عن هذه الهزيمة انظر : إبراهيم نصحي : المرجع السابق ج ١ ، ص ٣٦١ - ٣٦٩ .

(٢) عبد اللطيف أحمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

مصر ولاية رومانية متميزة :

باتتصار أوكتافيانوس ، واندحار أنطونيوس ، وانتحاره بعد ذلك طويت صفحة دامية من تاريخ الرومان ، وانتهت الحرب الأهلية ، وسمت الفرحة الرومان ، وعبر أحد الشعراء الرومان عن مشاعر الفرح قائلاً " لقد أسكن قيصر (١) عاصفة الحرب ، وأسكت قمعة الدروع . وجاء مبتهجاً إلى أرض النيل ، حاملاً القانون والنظام والخير العميم ، مثل زيوس إله الجربة " (٢) .

فى اليوم الأول من شهر أغسطس (٣) من عام ٣٠ ق.م. دخل أوكتافيانوس مدينة الإسكندرية ، وأصدر السناو قراراً باعتبار هذا اليوم عيداً وطنياً ، وتم سك عمله بهذه المناسبة كتب عليها عبارة " فتح مصر " Aegyptio Capta (٤) . وعلى خلاف ماكان سائداً فى العالم القديم ، فإن أوكتافيانوس منع جنوده من نهب المدينة ، احتراماً للذكرى مؤسسها الإسكندر الأكبر (٥) ، وألقى على السكندريين خطاباً باللغة اليونانية ، إظهاراً لتقديره للحضارة الإغريقية ، وأعلن فى خطبته العفر عن السكندريين . وطلب أن يرى جثمان الإسكندر ، وعندما أحضروا له الجثمان ، أغدق عليه مظاهر التكريم ، ووضع على رأسه تاجاً من الذهب (٦) ، وعندما سأله إن كان يرغب فى رؤية ضريح البطالمة ، أجاب بأنه يحب أن يرى ملوكاً حقيقين ، لا مجرد أموات ، وهو رد يعكس كراهيته الشديدة للبيت البطلمى ، بسبب الكراهية الشديدة التى كان يحملها لآخر حكام هذا البيت ، كليوباترة السابعة ، وقد سأل أيضاً إن كان يرغب فى رؤية المعبود المصرى العجل أبيس ، فرد قائلاً أنه اعتاد أن يعبد آلهة حقيقين ، لا مجرد حيوانات .

(١) المقصود بـقيصر هنا هو أوكتافيانوس ابن يوليوس قيصر بالتبني ، الذى أصبح يشار إليه باسم قيصر.

(٢) عثر على هذه القصيدة منقولة على إحدى البرديات انظر : Select Papyri III 113 .

(٣) لم يكن شهر أغسطس قد سمي بهذا الاسم بعد ، بل كان يعرف بالشهر السادس Sextilis ، وقتاً للتقويم الرومانى الذى كانت السنة فيه تبدأ بشهر مارس . وقد أطلق عليه فيما بعد اسم أغسطس تكريماً لأوكتافيانوس ، الذى منح لقب أوغسطس Augustus أى الجليل فى عام ٢٧ ق.م.

(٤) مصطفى المبادئ : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ص ١٥٢ .

(5) Dio Cassius. L.I, 16, 3-5

(٦) يقال أن أوكتافيانوس عندما لمس الجثمان بيده ، حشم جانباً من الأثف بغير قصد انظر : Bowman, op. cit.p. 37.

أراد أوكثافيانوس من خلال هذه العبارات ، أن يدرك السكندريون بأن ملكهم قد زال ، وأنهم لم يعودوا مواطنين في عاصمة دولة مستقلة ، بل مجرد سكان في إحدى مدن ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وذلك لعلمه بأن السكندريين شعب ميال للشغب ، وبأنهم اعتادوا التدخل في السياسة ، وكثيراً ما قاموا بطرد ملوكهم^(١) . وقد أراد أوكثافيانوس أن يرهبهم فوضع فرقة رومانية كاملة Legio ، في ضاحية النصر Nicopolis ، بالقرب من الإسكندرية^(٢) .

ومن ناحية أخرى أراد أوكثافيانوس أن يحرم السكندريين من ممارسة أي نشاط سياسي ، فعندما تقدموا له بطلب التمسوا فيه أن يكون للمدينة مجلساً للشورى Boule ، رفض الاستجابة إلى طلبهم ، وقال لهم إنكم لم يكن لكم مثل هذا المجلس على عهد ملوككم السابقين . ولابد أن أوكثافيانوس كان يقصد الملوك الأواخر ، فمن المعروف أن الإسكندرية أقيمت كمدينة إغريقية ، تتمتع بكافة المؤسسات التي تميز المدينة الإغريقية ، وعلى رأسها مجلس الشورى ، ومن المرجح أن هذا المجلس قد ألغى في فترة غير معروفة^(٣) . ولكن أوكثافيانوس لم يشأ أن يجرد السكندريين من كافة الامتيازات ، فأصدر قراراً بإعفائهم من دفع ضريبة الرأس ، التي فرضت على كافة الفئات الأخرى .

وفي إطار سياسة فرق تسد التي اتبعتها الرومان ، فإن أوكثافيانوس أقر لليهود الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، فسمح لهم بتطبيق قوانينهم الخاصة ، وتشكيل مجلس الشيوخ Gerousia^(٤) . ويذكر الكاتب اليهودي فيلون Philo أن أوغسطس أصدر قراراً جاء فيه ، أن يهود الإمبراطورية قد أثبتوا ولائهم للشعب الروماني ، في الماضي والحاضر ، لذلك

(١) كانت هذه هي الفكرة السائدة عن السكندريين ، والتي رددتها الكثير من المصادر ، وحسبنا أن نذكر الكلمات التي وردت على لسان الخطيب الشهير ديمتر " تم الذهب " ، الذي هاجم السكندريين وهذب عليهم ميلهم إلى الفوضى والشغب ، وثبوتهم لانتفاء الأسباب انظر : Dio Chrysostomos. Or. XXXII, 69 ff .

(٢) يبلغ عدد أفراد الفرقة الرومانية ٦٠٠٠ فرد .

(٣) تشير قضية وجود هذا المجلس جدلاً بين الباحثين ، ويرى الأستاذ بل Bell أنه ألغى في عهد بطليموس الثامن انظر : H.I.Bell, The Acts of the Alexandrians. J J P IV 1950. p. 1 .

(٤) مصطفى كمال عبد العليم : اليهود في مصر في عصر البطالة والرومان . ص ١٤٤ .

فإنه قرر السماح لهم بممارسة عاداتهم طبقاً لشريعة آبائهم^(١). ولكن أوكتافيانوس فى إطار رغبته فى إيجاد نوع من التوازن بين اليهود والسكندريين وقرر أن يفرض على اليهود دفع ضريبة الرأس ، التى كان قد أعفا السكندريين منها وحرص أوكتافيانوس على تأمين مصر ، وبالإضافة إلى الفرقة التى سبق ذكرها والتى وضعها بالعرب من الإسكندرية ، فإنه وضع فرقة ثانية فى موقع متوسط من البلاد ، بالقرب من مدينة منف ، فى الموقع الذى أقيم عليه حصن بابلليون فيما بعد ، كما أنه لم ينس أن مدينة طيبة فى جنوب مصر ، كانت مركزاً لثورات المصريين ضد البطالة ، لذا يادر بوضع فرقة ثالثة بالقرب منها^(٢).

وبالإضافة إلى هذه الفرق الثلاث ، وضع أوكتافيانوس كتائب رابطة عند المواقع الهامة ، مثل سوينى Syne (أسوان الحالية) على حدود مصر الجنوبية ، وبعض المراكز التجارية مثل كريتوس Coptos (قفط الحالية) ، ومديرية أرسينوى (الفيوم الحالية) ، وكذلك فى موانئ البحر الأحمر ، ولابد أن المراكز الحدودية المهمة مثل بيلوزيون فى الشرق ، وبرايتونيون (مرسى مطروح) فى الغرب ، كان يوجد بها قوات لتأمينها^(٣).

لم تكن مهمة تأمين مصر هى المشكلة الوحيدة التى واجهت أوكتافيانوس ، ولكن المهمة الأصعب كانت إصلاح مرافق البلاد ، التى لحقها الدمار فى ظل حالة الفوضى ، التى شهدتها مصر فى أواخر عصر البطالة ، لذا فإنه قام بوضع نظام إدارى محكم لتسيير دفة البلاد .

بعد أن فرغ أوكتافيانوس من تنظيم ولاية مصر ، قفل عائداً إلى روما ، حيث أدخل تعديلات جذرية على نظام الحكم ، فقد رأى بشاقب بصره أن النظام الجمهورى قد أثبت فشله ، وأنه قد آن الأوان لوضع نظام جديد ، ولما كان أوكتافيانوس على يقين من أن الرومان كانوا

(1) Philo. In Flacc. 50

(2) Bowman, op. cit. p. 40

(٣) بلغ عدد القوات الرومانية فى مصر فى عصر أوكتافيانوس ٨٠٠, ٢٢ وهذا يعكس مدى خوف الإمبراطور على مصر ، ومدى إحساسه بأهمية هذه الولاية . ولم يكن الأمر فى الواقع يستدعى وجود هذا العدد الكبير من القوات ، لذلك فإن خليفة أوكتافيانوس أى الإمبراطور تيبيريوس ، سارع بسحب واحدة من هذه الفرق ، انظر : بل : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

مايزالون على تسكهم بالنظام الجمهورى ، فإنه أثر الإبقاء على هذا النظام من حيث الشكل، ولكنه أقام نظاماً جديداً كان ملكياً فى جوهره (١).

فى الجلسة التى عقدها السناتو فى يوم ١٣ يناير من عام ٢٧ ق.م. ألقى أوكتافيانوس خطبة مؤثرة ، أعلن فيها تنازله عن كافة السلطات الاستثنائية ، وغير الاستثنائية ، التى منحها له السناتو فى خلال الحرب ضد كليوباترة ، وأنه يصع نفسه فى خدمة الشعب الرومانى. ولم يكن هذا الموقف يعنى رغبته فى إعادة النظام الجمهورى بشكله القديم ، فقد كان قد وطد العزم على القضاء على هذا النظام ، وكان واثقاً من قدرته على الإمساك بخيوط السلطة ، والتحكم فى مجريات الأمور . وقد بادر السناتو بمنح أوكتافيانوس سلطة الإمبريوم العسكرى Imperium ، وهى سلطة تتبع له الحق فى قيادة القوات العسكرية . وفى ١٦ يناير من العام ذاته ، أنعم السناتو على أوكتافيانوس بلقب أوغسطس Augustus ، وهو لقب يعنى الجليل (٢) . كما منح لقب الإمبراطور Imperator ، ويعنى القائد المنتصر (٣) ، وامتد ذلك الحين حرص أوكتافيانوس على أن يذكر اسمه مشفوعاً بهذا اللقب . وأخذ يوعز إلى السناتو بمنحه المزيد من السلطات ، حتى يحكم سيطرته على الحكم فى روما .

عندما تجمعت كافة السلطات فى أيدي أوكتافيانوس (أوغسطس) ، لم يعد هناك منصب يسمح لكافة هذه السلطات . فقادته دهاؤه السياسى إلى ابتكار منصب جديد ، فأطلق على نفسه لقب المواطن الأول Princeps (٤) .

بمقتضى الاتفاق الذى تم بين أوغسطس والسناتو ، تم تقسيم ولايات الإمبراطورية بين الطرفين ، فأعطى للسناتو الحق فى إدارة الولايات التى استقرت تحت الحكم الرومانى من مدة، وهى الولايات التى عرفت باسم الولايات السناتورية ، أما الولايات التى كانت تتطلب حزمًا

(١) على الرغم من ذلك فإن المصادر الرسمية كانت حريصة على أن تصف ما قام به أوكتافيانوس بأنه إعادة بناء الجمهورية : res Publica restituta . انظر : Syme, op. cit. p. 323 .

(٢) سيد الناصرى : التاريخ السياسى والحضارى للإمبراطورية الرومانية ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) كان من عادة الجنود منذ أيام الجمهورية أن ينادوا قائدهم بهذا اللقب ، إذا أحرز النصر . انظر : سيد الناصرى . المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٤) عن وظيفة المواطن الأول والسلطات التى تمتع بها انظر : Syme, op. cit. pp. 313 - 330 .

في إدارتها ، أو تلك التي تتمتع بأهمية خاصة ، فقد كانت خاضعة لإدارة الإمبراطور ، إلا أنه كان يعطى لنفسه الحق في التدخل في الولايات السناتوروية ، إذا ما تطلب الأمر ذلك (١) .

والسؤال الذي نطرحه الآن هو ما هو موضع مصر في تلك التنظيمات ؟ ثار جدل بين الباحثين حول هذا الأمر ، فقد رأى البعض منهم ، أن مصر لم تكن ولاية بالمعنى المألوف ، بل كانت ملكية خاصة للإمبراطور ، ويدللون على صدق هذه المقولة بما ورد في الوثيقة المشهورة ، التي تحتوي على ما قام به الإمبراطور أوغسطس من إنجازات ، والمعروفة باسم " أعمال المؤله أوغسطس " *Res Gestae divi Augusti* (٢) . فقد ذكر أوغسطس مصر في هذا النص ، دون أن يقرنها بكلمة *Provincia* (٣) . بينما جاء ذكر أورمينيا مقرونة بكلمة ولاية ، كما أن النصوص الرسمية في عصر أوغسطس لم تصف مصر بكلمة ولاية (٤) . ولكتنا نلاحظ أن المؤرخ ديون كاسيوس ذكر مصر من بين الولايات التي عهد السناتو إلى أوغسطس بإدارتها في عام ٢٧ ق.م (٥) .

ويرى فريق آخر من الباحثين ، أن مصر كانت ولاية عادية ، ويستندون إلى النص ذاته ، الذي يحتوي على إنجازات الإمبراطور أوغسطس ، ويرون أن النص واضح لا غموض فيه ، إذ

(١) كان من حق أوغسطس أن يتدخل في الولايات السناتوروية ، وذلك بموجب سلطة الإمبريوم الأعلى *imperium maius* ، التي كان يتمتع بها ، وهي سلطة تمنح على سلطة حكام الولايات ، مثلما حدث عندما تدخل في ولايتي كريت وقورينائية في عام ٧ ق.م . على الرغم من كونها ولايات سناتوروية . انظر : بل - المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٢) عثر على هذا النص مدوناً في نقش في موقع مدينة أنقره (في تركيا الحالية) ، لذلك يطلق عليه أثر أنقره ، وكان قد سبق للسناتو أن وافق على رفع يوليوس قيصر إلى مصاف الآلهة ، ومن هنا قبل أن أوغسطس كان يوصف بابن الإله *Divi filius* . عن ترجمة هذا النص والتعليق عليه انظر : P.A. Brunt & J.M. Moore, *Res Gestae Divi Augustus. The Achievements of the Divine Augustus*. Oxford, 1983

(٣) قال أوغسطس " لقد أضفت مصر إلى سلطان الشعب الروماني " *Aegyptum imperio populi Romani adieci* .

(٤) لمعرفة نماذج من هذه النصوص راجع : عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٥) Dio Cassius L III, 12 . 7.

يقول أوغسطس " لقد ضمنت مصر إلى سلطان الشعب الروماني " ، ولم يقل أنه ضمها إلى ممتلكاته الخاصة ، والدليل على أن مصر كانت ولاية رومانية عادية ، أنها كانت تستغل لصالح الشعب الروماني ، وأن دخلها لم يكن يدخل إلى الخزانة الشخصية للإمبراطور . بل كان يدخل إلى خزانة الدولة الرومانية ، ويدعم أصحاب هذا الرأي وجهة نظرهم بذكر الكثير من النصوص القديمة التي وردت فيها مصر مقرونة بكلمة ولاية (١) .

ولعل من الأسباب التي أدت إلى إشعال الجدل حول وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية، تلك النظم التي اختص بها أوغسطس ولاية مصر ، من بين سائر الولايات الأخرى ، ومن المعروف أن الولايات التي كانت تتبع السناتور ، كان يتولى إدارتها حكام يتم اختيارهم في الغالب من بين القناصل السابقين ، ويحمل حاكم الولاية لقب " قنصل سابق " Pro Consul . أما الولايات التي تتبع الإمبراطور ، فقد كان حاكمها يعتبر مندوباً Legatus عن الإمبراطور في هذه الولايات ، وكان يطلق عليه في بعض الأحيان " مندوب أوغسطس " Legatus Augusti (٢) .

وفيما يتعلق بمصر فقد اختلف الأمر اختلافاً بيناً ، فإن أوغسطس لم يول عليها واحداً من طبقة السناتور ، لأنه لم يكن يثق في أفراد هذه الطبقة (٣) ، الذين غدروا ببوليوس قبصر واغتالوه ، على الرغم من أنه كان كريماً معهم ، وعفا عنهم ، بعد انتصاره في فارسالوس ، وكان ينوي وضع البعض منهم في مراكز قيادته في الدولة . لذا فإن أوغسطس عين على مصر والياً من طبقة الفرسان equites (٤) ، وهي الطبقة التي كان أفرادها يديتوني بالولاء للإمبراطور أوغسطس ، ونظراً لوجود عدد كبير من القوات في مصر ، التي ينبغي أن تكون خاضعة لسلطة واليها ، فقد قرر أوغسطس القيام بإجراء استثنائي ، وهو منح سلطة الإمبريوم لوالي مصر ، ومن المعروف أن هذه السلطة لم تكن تمنح إلا لرجال طبقة السناتور

(١) أورد الدكتور عبد النظيف أحمد على نماذج لنصوص قديمة وصفت فيها مصر بكلمة ولاية . انظر : عبد النظيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢) عن إدارة الولايات في عصر أوغسطس انظر : سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٣) بل : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(4) Reinmuth .O.W, The Prefect of Egypt from Augustus To Diocletian P 1

يرجع الاهتمام الشديد الذي أولاه أوغسطس لمصر ، إلى عدة أسباب ، وأولها السبب الاقتصادي ^(١) ، فقد كانت مصر تمد روما بثالث احتياجاتها السنوية من الغلال ^(٢) ، وكان أوغسطس يخشى من أن يتولى إدارة مصر أحد القادة الطموحين ، فيحاول الاستقلال بهذه الولاية ، وهى بلد يسهل الدفاع عنه ، ومن الممكن لهذا القائد المتمرد أن يمنع القمع عن روما ، فيمتصها بالمجاعة .

لذلك حرص أوغسطس على تأمين ولاية مصر ، فوضع فيها قوات كبيرة العدد ، كما وضع على رأس هذه الولاية واحداً ممن يدينون له بالولاء ، من طبقة الفرسان ، وأعطاه لقباً من ألقاب هذه الطبقة وهو لقب Praefectus ، فكان اللقب الرسمى لوالى مصر هو Praefectus Aegypti ، وفى بعض الأحيان كان يطلق عليه " والى الإسكندرية المتاخمة لمصر " Praefectus Alexandriae ad Aegyptum ، حيث كان ينظر إلى الإسكندرية باعتبارها كياناً منفصلاً عن مصر ^(٣) .

وإمعاناً فى الحرص على مصر ، أصدر أوغسطس قراراً يحرم بمقتضاه على رجال السناتور والبارزين من الرومان ، دخول مصر إلا بعد الحصول على إذن من الإمبراطور ^(٤) . ويرى بعض الباحثين أن ما دفع أوغسطس إلى اتخاذ هذا القرار ، سبب آخر إضافة إلى خوفه من رجال طبقة السناتور ، وهو أن الزيارات الكثيرة التى قد يقوم بها ذوى المكانة الرفيعة من الرومان لمصر ، التى يعد واليها فى مرتبة أدنى منهم ، قد يؤدى إلى إحراج الوالى ، وإضعاف مكانته بين رؤسائه ، لذا أراد أوغسطس أن يمنع هذا المخرج ^(٥) .

وحسباً للفجذل الذى تار حول وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية ، وما إذا كانت ولاية عادية ، أم أنها من الأملاك الخاصة للإمبراطور ، فلنأنا نقول أن مصر كانت ولاية رومانية ،

(١) يقول الدكتور يومان أن مصر ظلت لمدة ٣٥٠ عاماً ، وحتى إنشاء مدينة القسطنطينية ، تقوم بدور

المصدر الرئيسى للغلال لروما ، وأنها كانت فى عصر أوغسطس تمد روما بعشرين مليون موديرس من الغلال
Jowman, op. cit. 38

(٢) Lewis, N, Life in Egypt under Roman Rule, p. 15

(٣) ورد ذكر الوالى فى الوثائق مشموراً بألقاب أخرى انظر : Reinmuth, op. cit. 9.

(٤) Tacitus II 59

(٥) Lewis, op. cit. p. 16

شأنها في ذلك شأن سائر الولايات الأخرى ، وكان دخلها يذهب إلى خزانة الدولة العامة ، وليس إلى خزانة الإمبراطور الشخصية ، ولكن نظراً لأهميتها الشديدة ، فإن الشعب الروماني عهد إلى الإمبراطور بأن يقوم بإدارتها نيابة عنه ، باعتباره المواطن الأول في الدولة ، ولأن أوغسطس بدوره كان يدرك مدى أهمية هذه الولاية ، لذا فقد ميزها بنظم خاصة ^(١) وذلك نظراً لأنه يعرف أكثر من غيره مصلحة الشعب الروماني ، وما دام أوغسطس قد أراد ذلك ، فعلى الدولة أن تمتثل ، وكما قال الشعر أوفيد Ovidius فإن " فيصر هو الدولة " *res est publica caesar* ^(٢) . وهكذا يمكننا القول في النهاية بأن مصر كانت ولاية رومانية متميزة .

مصر في عصر أوغسطس :

كان كورنيليوس جالوس Cornelius Gallus أول الولاة الرومان على مصر ^(٣) ، وهو أحد القادة الذين أبلوا بلاءً حسناً في فتح مصر ، وكان يتولى قيادة القوات التي اقتحمت حدود مصر الغربية ، واستولت على برايتونيون (مرسى مطروح) ، وكان من الرجال المقربين إلى أوغسطس . وربما كان واحداً من الرسل الذين بعث بهم أوغسطس ، للتفاوض مع كليوباترة قبل انتحارها .

(١) راجع العرض الطيب الذي قدمه الدكتور محمد السيد عيد الغنى عن وضع مصر في عصر الإمبراطور أوغسطس انظر : محمد السيد عيد الغنى . لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الروماني . ص ٦٥ - ٨٠ .
(2) Ovid. Tristia. 4 4 15 .

إوفيد من شعراء العصر الأوغسطس ، وعاش ما بين عامي ٤٢ ق.م. وحتى عام ١٧ ميلادية . وكان شاعراً غزير الإنتاج . ولكنه كان مستهتراً ، وقد اتهم بإقامة علاقة مع يوليا ابنة الإمبراطور أوغسطس التي عرنت بالخلعة ، فأصدر الإمبراطور أمراً بنفيه إلى منطقة في البحر الأسود ، فأخذ يبحث بالرسائل إلى الإمبراطور لكي يستعطفه حتى يعود إلى روما مرة أخرى ، ومنها مجموعة رسائل تسمى " الأجزاء " *Tns- sta* ، وربما كانت هذه العبارة تدخل في مجال التفات السياسي ، وثمة أمر جدير بالملاحظة ، وهو أن أوفيد يصف الدولة بكلمة *res Publica* (الجمهورية) ، ويبدو أن الشاعر مثل كافة معاصريه ، لم يكن يدرك مدى التحول الذي طرأ على النظام السياسي في الدولة . عن أوفيد وحياته وأعماله ، انظر : أحمد عثمان : الأدب اللاتيني بدوره الحضاري . عالم المعرفة العدد ١٤٦ ص ٢٦٣ - ٢٧٨ .

(3) Reinmuth, op. cit. p. 1

لم يكد يمر وقت طويل على الحكم الرومانى فى مصر ، حتى هبت ثورة عارمة قى مدينة طيبة ، بسبب التنظيمات المالية الجديدة التى طبقها الرومان ، وقد انفجر غضب الأهالى عند ظهور جياة الضرائب الرومان^(١) . وكانت المشاعر الوطنية لدى المصريين ، والتى كثيراً ما أسفرت عن العديد من الثورات فى عصر البطالة ، ما تزال كامنة تحت الرماد . وقد بلغت ثورة طيبة حداً من العنف جعل الوالى الرومانى يتوجه بنفسه على رأس قواته لإخمادها^(٢) . وعندما نجح فى تحقيق هذه المهمة ، انتشى بما حققه من انتصار ، وخذل ذكرى انتصاره على ثورة طيبة ، فى نقش عثر عليه فى جزيرة فيلة (جنوب مصر)^(٣) . وبعد إخماد ثورة طيبة واصل كورنيليوس جالوس سبره ، حتى بلغ منطقة تقع وراء الشلال الأول لنهر النيل ، وقال مفخراً إن هذا الموقع لم تبلغه قوات رومانية من قبل ، كما أن قوات البطالة لم تصل إليه ، واستطرد جالوس قائلاً إنه أدخل ملك الأثيوبيين تحت الحماية الرومانية^(٤) .

والواقع أن كورنيليوس جالوس جاوز الحقيقة ، حينما قال أن قوات البطالة لم تصل إلى المنطقة التى وصلت إليها قواته ، أما ادعاؤه بأنه قام بتأمين الحدود الجنوبية لمصر ، فهو أمر تكلمه الأحداث ، فسرعان ما تعرضت حدود مصر الجنوبية للهجوم ، كما سنعرف فيما بعد . ويبدو أن هذا الوالى قد أسكرته نشوة النصر ، ونسى حساسية منصبه ، فقام بتسجيل انتصاره على الأهرام ، وأقام لنفسه تماثيل فى أماكن متفرقة من مصر ، ولما كان أوغسطس شديد الحساسية تجاه ولاية مصر ، فإنه عندما تناهى إلى سمعه ، ما قام به واليه فى مصر ،

(1) Reinmuth, op. cit. 1

(2) Strabo, XVII. 53 .

(٣) أورد الدكتور عبد اللطيف أحمد على هذا النص ، وقدم له تحليلاً والنسب ، وقد ادعاهات جالوس انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٥٩ - ٦٢ .

(٤) كلمة إثيوبوس Ethiopeos باليونانية تعنى ذوى الوجوه السوداء ، وقد اعتاد الكتب الإغريق والرومان أن يطلقوا اسم إثيوبيا Ethiopia على البلاد التى يقطنها أصحاب البشرة السوداء ، ومن ثم فقد أطلقوا هذا الاسم على المنطقة التى تقع جنوب الحدود المصرية (السودان الحالية) ، ويقول المؤرخ هيرودوت على سبيل المثال فى الكتاب الثانى " يسكن الأثيوبيون المنطقة التى تلى إيثانتيبا مباشرة " انظر :

Herod. II. 29

توجس خيفة من طموح هذا الوالي ، فأمر بعزله ، وتقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى ، ولما علم كورنيليوس بهذا القرار أقدم على الانتحار فى عام ٢٦ ق.م^(١) .

كان ثانى الولاية الرومان فى مصر فى عهد أوغسطس هو إيلوس جالوس Aelius Gal-
lus ، الذى شغل هذا المنصب فيما بين عامى ٢٦ - ٢٤ ق.م. وكادت أهم الأحداث فى عهده
هى حملته على بلاد العرب^(٢) .

حملة إيلوس جالوس على بلاد العرب :

ورث الرومان عن البطالة الاهتمام بالجزيرة العربية ، والحرص على تأمين طرق التجارة
الشرقية ، وقد أشرف من قبل إلى الجهود التى بذلها البطالة فى هذا المجال ، وعلى رأسهم
بطليموس الثانى فيلادلفوس ، حيث أقاموا العديد من الموانئ ، على شاطئ البحر الأحمر
لهذا الغرض ، وقد ازداد اهتمام البطالة بالبحر الأحمر ، باعتباره شرياناً حيوياً للتجارة
الشرقية ، وبخاصة بعد أن فقدوا إقليم جوف سوريا ، بعد استيلاء أنطيوخس الثالث عليه فى
عام ٢٠٠ ق.م. وكان هذا الإقليم يمثل أحد الطرق التجارية الحيوية فى المنطقة^(٣) .

بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية فى عام ٣٠ ق.م. حرص الإمبراطور أوغسطس على
بذل أقصى الجهد لتأمين طرق التجارة الشرقية ، التى كان يسيطر عليها العرب . فأصدر
أوامره إلى الوالى الرومانى فى مصر بتحرير حملة على بلاد العرب السعيدة (اليمن) .
ويذكر استرابون أنه كانت هناك عدة أهداف من وراء إرسال هذه الحملة^(٤) ، أولها إخضاع
مداخل البحر الأحمر للسيطرة الرومانية ، وكذلك ما سمعه أوغسطس عن الثروة التى تتمتع
بها بلاد العرب ، ويمكن أن نضيف سبباً آخر ، لا يقل أهمية عن سابقه ، وهو الرغبة فى
تأمين طرق التجارة مع الهند^(٥) .

(1) Dio Cassius, 53 , 23 . 5; Rienmuth, op. cit. pp. 6, 120

(٢) راجع ما كتبه الدكتور لطفى ميد الوهاب من هذه الحملة انظر: لطفى عبد الوهاب يعنى . تاريخ
العرب فى المصور القديمة ص ٤٢٤ - ٤٢٩ .

(٣) نورة النعيم ، الوضع الاقتصادى فى الجزيرة العربية من القرن الثالث ق.م. حتى القرن الثالث
الميلادى . ص ٢٤٩ ، ٢٧٦

(4) Strabo. XVI, 4, 22

(5) Rostovtzev, M., Social and Economic History of The Roman Empire. pp. 66, 94 .

يذكر استرابون أن هدف هذه الحملة لم يكن استشكاف موانئ بلاد العرب فقط بل إثيوبيا أيضاً Strabo:
XVI, 4, 22 .

حشد الوالى الرومانى جيشاً كبيراً قوامه عشرة آلاف جندي ، وأرسل ملك الأنباط عبادة الثالث ألفاً من جنوده للمشاركة فى الحملة ، وعلى رأسهم وزيره سيلايوس Sylaius (صالح) ، لكى يقوم بمهمة إرشاد القوات الرومانية داخل بلاد العرب (١) ، كما أرسل هيروود Herod ملك اليهود خمسمائة من جنوده للمشاركة فى الحملة ، وأعد الوالى الرومانى أسطولاً كبيراً فى ميناء أرسيسوى ، الذى يقع عند الطرف الشمالى لخليج السويس (٢) ، لنقل الجيش إلى الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر .

نزل الأسطول الرومانى فى أرض الجزيرة العربية ، فى ميناء البوكى كرمى Leuke Kome (القرية البيضاء) ، وهو ميناء تابع للأنباط ، وكان على الحملة أن تواصل سيرها إلى اليمن عن طريق البر ، وهى مسافة طويلة ، واجه خلالها الجيش الرومانى مصاعب جمّة ، لأن الرومان كانوا يجهلون حروب الصحراء ، وعانوا من نقص المياه ، كما فتكت الأمراض المتوطنة بأعداد كبيرة من الجنود . ولما كانت القوات النظامية تحتاج إلى طرق صالحة لسير تشكيلات كبيرة من الجنود ، وهو ما تفتقر إليه بلاد العرب ، فقد استغرقت الحملة ستة شهور ، حتى وصلت إلى أراضى دولة سبأ فى اليمن ، وحين وصلت الحملة إلى غايتها ، كان الجنود قد أصابهم الإنهاك ، وأدركهم اليأس (٣) .

تمكنت القوات الرومانى بعد لآى ، من الوصول إلى مأرب Maribu عاصمة السبائين ، وبعد حصار دام ستة أيام فقط ، أدرك إيليس جالوس عدم جدوى الحصار ، لعدم توافر إمدادات المياه والغذاء ، لذلك قرر فك الحصار والعودة مرة أخرى من حيث أتى . وعادت القوات الرومانية فى هذه المرة عن طريق البحر مباشرة ، فابحرت من شواطئ اليمن إلى مصر (٤) .

والحقيقة أن الحملة فشلت من الناحية العسكرية ، ولكنها حققت نجاحاً من الناحية السياسية والتجارية ، يرى استرابون الذى كان معاصراً للحملة ، وكانت تربطه صداقة -

(1) Strabo. XVI, 4 23

(٢) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(3) Strabo. XVI, 4. 24 .

(٤) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

مع إيلويوس جالوس ، أن مسئولية فشل الحملة تقع على رأس الوزير التبتى سيلايوس ، الذى تعتمد تضليل الحملة ، وكان حريصاً على ألا يحقق أهدافها ، ويستطرد إسترايون قائلاً أن الرومان حين تكشف لهم خداع الوزير التبتى ، وخيانتهم لهم حكموا عليه بالإعدام (١).

وشهد عصر أوغسطس حملة رومانية أخرى على بلاد اليمن ، ويذكر الكاتب الرومانى بلينيوس Plinius ، أن الرومان أرسلوا حملة بقيادة جايوس قيصر ، حفيد أوغسطس ، وأن هذه الحملة لم تستغرق وقتاً طويلاً ، لأن الهدف منها كان إلقاء نظرة على بلاد العرب (٢). كما جاء فى كتاب الطواف Periplos ، الذى وضعه كاتب مجهول ، أن قيصر أخضع ميناء مسدن Eudamon ، وسواه أماكن قيصر المذكور هنا هو جايوس قيصر ، أم أوغسطس الذى عادة ما كان يذكر فى الوثائق باسم قيصر ، فإن النتيجة واحدة ، وهى أن النفوذ الرومانى فى جنوب الجزيرة العربية أصبح قوياً ، ومنذ ذلك الحين أخذت تصافد على روما للمرة الأولى ، بعثات عديدة من دول جنوب بلاد العرب ، بل من الهند أيضاً . وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر أهداف هذه البعثات على وجه التحديد ، فلا مناص من الاعتقاد بأن التجارة كانت على رأس هذه الأهداف (٣). وخير دليل على ذلك ، ما شهدته التجارة بين روما والهند من ازدهار فى عصر كل من أوغسطس وخليفته تيبيريوس ، فقد عثر فى أحد المواقع الأثرية فى الهند على عملات يرجع تاريخها إلى عصر هذين الإمبراطورين (٤).

أما فيما يتعلق بالجزيرة العربية ، فإن بعض الباحثين يرون أنه قام تحالف بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الحميرية ، فى فترة مبكرة من عصر أوغسطس (٥). وقد ظلت بلاد العرب بشكل عام ترتبط بعلاقة تحالف وصداقة مع الإمبراطورية الرومانية . حتى تم ضم بلاد العرب رسمياً إلى الإمبراطورية الرومانية ، فى عهد الإمبراطور تراجان Trajan فى عام ١٠٦ م ، بغرض إكمال سيطرة الرومان على المنطقة (٦). لذلك فقد قرر الإمبراطور تراجان ، فتح القناة

(1) Strabo. XVI, 4. 24 .

(2) Pliny N.H. VI. 141

(3) Vimal Begley and Richard Daniel De Puma, Rome and India. The Ancient sea Trade. p 27

(4) Vimal Begley and Richard Daniel , op cit. 40

(5) Rostovtzeff, op. cit. p. 576. n. 18

(6) Bowman, op. cit. p. 40 .

التي تربط بين النيل والبحر الأحمر ، من أجل تسهيل الاتصال بين الممتلكات الرومانية في المنطقة^(١).

وإذا ما عدنا إلى مصر لكي نواصل استعراضنا لتاريخ هذه الولاية في عصر الإمبراطور أوغسطس ، فإننا نلاحظ أن غياب القوات الرومانية عن مصر ، في حملة بلاد العرب ، قد أغرى الأثيوبيين ، أي سكان المناطق التي تقع جنوب مصر ، بأن ينقضوا الاتفاق الذي سبق لهم أن أبرموه مع أول الولاة الرومان على مصر ، فأغاروا على المناطق الجنوبية في مصر ، بقيادة ملكتهم كنداكي Kandake ، ونهبوا جزيرتي فيلة والفنتين ، وكذلك أسوان^(٢) . وأسروا بعض الأهالي ، واستولوا على ثنائيل أوغسطس^(٣).

وهكذا وجد ثالث الولاة الرومان في عصر أوغسطس ، وهو جايوس بترونيوس Gaius Petronius (٢٤ - ٢١ ق.م) ، نفسه مضطراً إلى قيادة قواته صوب الجنوب ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بالأثيوبيين ، وطارد قواتهم حتى حصن بريميس Primis (قصر إبريم) ، وتوغل في الجنوب حتى مدينة ناباتا Nabata (جبل برقل) ، فاستولى على المدينة ، التي كان الأثيوبيون يتخذونها عاصمة لهم ، وأجبر الملكة كنداكي على توقيع معاهدة صلح ، اكتفى بترونيوس من خلالها باسترداد ما استولى عليه الأثيوبيون ، وعلى رأسها ثنائيل الإمبراطور .

بعد الحملة الأثيوبية عاد بترونيوس أدراجه ، بعد أن ترك حاميات على الحدود ، لكن الأثيوبيون عاودوا الهجوم مرة أخرى ، فأعاد الولاة الكرة ، وهاجمهم مرة ثانية ، وعندما وصل إليه وفد منهم طالباً الصلح ، أرسلهم إلى الإمبراطور لكي يتفاوضوا معه . وكان أوغسطس آنذاك يقضى شتاء عام ٢١ - ٢٠ ق.م. في جزيرة ساموس Samos ببحر إيجه ، وقد وافق الإمبراطور على إبرام الصلح معهم ، وأعفاهم من دفع الجزية . وفي هذه المرة أقام الرومان استحكامات قوية على الحدود ، ووضعوا قوات كافية ، وكان هذا كفيلاً بتحقيق السلام ، فلم تشهد المنطقة اضطرابات لفترة طويلة^(٤) . وأقام أوغسطس في كلابشة معبداً

(١) أبو البراء ، النيل في المصادر الإغريقية ، ص ١٦٦ .

(٢) Reinmuth, op cit. p. 120.

(٣) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٤) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

لأحد الآلهة المحلية ، مما يدل على استتباب الأمن في المنطقة (١) ، ويعد بترونيوس آخر الولاة الرومان في مصر ، الذين قاموا بحملات عسكرية (٢) .

التاريخ السياسي لمصر تحت الحكم الروماني :

عصر العائلة اليوليوكلودية :

بعد وفاة الإمبراطور أوغسطس في عام ١٤ ميلادية ، تولى العرش ابنه بالتبني تيبيريوس Tiberius (٣) ، وكان تيبيريوس قد تفرس في الأعمال الإدارية قبل أن يتولى العرش ، وقد عرف بالشدة والحزم (٤) ، وتذكر المصادر أنه وقف موقفًا حازمًا من واليه في مصر (٥) . وكان هذا الوالي قد أراد أن يسترضى الإمبراطور ، فأرسل إلى روما مقدارًا أكبر من الجزية ، التي كانت مفروضة على مصر ، فغضب تيبيريوس وعنفه على هذا المسلك قائلاً له " إننى أرسلتك لكى تجز غنمى ، لا لكى تسلمها " ، وقد شهدت مصر فى عهد تيبيريوس حالة من الرخاء والاستقرار ، مثل سائر ولايات الإمبراطورية الرومانية ، التي نعمت جميعها بالسلام الأوغسطى Pax Augusta ، لذلك فقد تقرر سحب واحدة من الفرق الرومانية ، التي كانت ترابط فى مصر منذ عهد الإمبراطور أوغسطس ، وظهرت بشائر الرخاء الاقتصادي ممثلة فى إصدار عملة جديدة فى مصر (٦) .

(1) Bowman, op. cit. pp. 40 - 41

(2) Reimuth, op. cit. p. 121 .

(٣) بما هو جدير بالذكر أن أوغسطس لم يتجنب غير ابنة واحدة هى يوليا Julia ، وكان مهمومًا بمشكلة وراثة العرش ، وعندما تزوج ليبيا فى عام ٢٨ ق.م. كان لها من زوجها السابق ابن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، وهو تيبيريوس ، ولم تلبث أن وضعت ابنها الثانى بعد أيام قليلة من زواجها بأوغسطس ، أطلقت عليه اسم دروسوس ، ولم يقع اختيار أوغسطس على واحد من أبناء زوجته لكى يكون خليفة له ، ولكن بعد السكيات التى حلت به ، إثر وفاة من وقع عليهم اختياره واحدًا تلو الآخر ، اضطر صاغراً إلى تبنى الابن الأكبر لزوجته ، وقام بتزويجه من ابنته التى سبق لها الزواج أكثر من مرة ، لذا فإن تيبيريوس ينحس فى الأصل إلى عائلة والده الحقيقية ، وهى العائلة الكلودية ، كما ينحس فى نفس الوقت إلى عائلة أبيه بالتبني ، أى العائلة اليولية . للحصول على المزيد من المعلومات حول هذا الأمر انظر : سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ٩٠ - ٩٦ .

(٤) آمال الرومى : مصر فى عصر الرومان ، ص ٧٣

(5) Dio Cassius. 57 10.5.

(٦) مصطفى العبدى : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

ولعل أهم الأحداث التي شهدتها مصر في عهد الإمبراطور تيبيريوس ، هي زيارة جرمانيكوس Germanicus للإسكندرية ^(١) ، وهو ابن شقيق الإمبراطور تيبيريوس ، وكان الإمبراطور قد تبناه ، بعد وفاة والده ، وكان ينظر إليه باعتباره ولياً للعهد ، وقد تمتع بحب الرومان نظراً لكفاءته العسكرية ، وقد أسند إليه الإمبراطور مهمة تنظيم شئون بعض الولايات الشرقية ^(٢) ، ومر في طريقه ببلاد اليونان ، حيث استقبل بحفاوة بالغة ، وأحببه الناس لبساطته وتواضعه ، وأقيمت قنايله . وسكت عملة تحمل اسمه ، وخلعت عليه الألقاب . ولا شك أن هذه الأمور جميعاً أثارت حساسية الإمبراطور تيبيريوس وغيرته .

بعد أن أنجز جرمانيكوس مهمته ، تراءى له أن يزور مصر لمشاهدة معالمها ، فوصلها في أوائل عام ١٩م . وقد برر قيامه بتلك الزيارة برغبته في معالجة أزمة اقتصادية كانت تمر بها مصر ، بسبب انخفاض فيضان النيل في ذلك العام . ويذكر المؤرخ تاكيتوس أن جرمانيكوس أقدم على زيارة مصر دون أن يسأذن الإمبراطور ، مخالفاً بذلك القاعدة التي وضعها أوغسطس ^(٣) . ولم يراع جرماً نيكوس أثناء وجوده في مصر التقاليد التي تكفل الحفاظ على هيبة البيت الحاكم ، فسار بين الناس مرتدياً الزي الإغريقي ، وكان ينتحل صندلاً إغريقياً . كما أمر بفتح صوامع الفلال ، وتوزيع القمح على الناس ، حتى يخفف من وطأة المجاعة ، مما جعل الناس يحبونه ، ويبالغون في إظهار تقديرهم له ، وقد أثارت هذه المظاهر انزعاج الأمير الشاب ، فأصدر عدة منشورات لكي ينهى الناس عن المبالغة في إسباغ مظاهر التكريم عليه ، ومتاداه باللقاب التي " لا تليق إلا بأبي المنقذ الحقيقي للجنس البشري " ، والمقصود بآبيه هو الإمبراطور تيبيريوس ^(٤) .

(١) كان أبوه قد أحرز انتصارات في بلاد الجرمان ، لذلك خلع عليه السناتور لقب جرمانيكوس ، أي قاهر الجرمان في عام ٩ ق.م. - وحملت ذريته اللقب من بعده .

(٢) محمد السيد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٣) Tacitus, Ann.II. 59 - 61

(٤) يرجع الدكتور عبد اللطيف أحمد على حساس السكندريين وترحيبهم بجرما نيكوس إلى سبب آخر ، بالإضافة إلى بساطة هذا الأمير وتواضعه ، وإتقانه لهم من المجاعة ، وهو أن السكندريين كانوا يحملون في أعماقهم كراهية للإمبراطور ، وكانوا يعلمون بوجود جبهة بينه وبين ابن شقيقه ، لذلك بالخوا في الترحيب بجرما نيكوس نكايه في عهده . انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

قام جرما نيكوس برحلة نيلية ، بدأها من كانوب (جنوب أبى قير الحالية) حتى مدينة طيبة ، ولفت نظره تمثالا ممنون^(١) ، ومما هو جدير بالذكر أن زيارة جرما نيكوس لمصر وما جرى خلالها ، أدت إلى غضب الإمبراطور تيبيريوس ، مما دفعه إلى الشكوى إلى السناتور .

بعد انتهاء زيارته لمصر ، قرر جرمانيكوس العودة عن طريق سوريا ، وكان على خلاف مع واليها ، وفي أثناء وجوده في مدينة أنطاكية توفي فجأة . واتهم هذا الوالى بـدس السم للأمير في طعامه ، فصدر الحكم عليه بالإعدام ، ولكن الشائعات رددت بأن الإمبراطور نفسه كان ضالعا في المؤامرة التى أودت بحياة ابن شقيقه^(٢) .

الإمبراطور جايوس (كاليجولا) ٣٧ - ٤١ م :

هو ابن الأمير جرما نيكوس الذى سلفت الإشارة إليه . وقد تولى العرش ولم يتعد الخامسة والعشرين . وكانت أهم الأحداث التى وقعت في مصر في عهد هذا الإمبراطور هي فتنة اليهود في عام ٣٨ م . والحقيقة أن السكندريين كانوا يكرهون اليهود بسبب مواقفهم المؤيدة للرومان ، إضافة إلى إحساسهم بأن أروسطس قد ميز اليهود . حين سمح لهم بتطبيق قوانينهم ، وبأن يكون لهم مجلس للشيوخ ، بينما حرم السكندريين من أن يكون لهم مجلس للشورى ، ولما كان السكندريون عاجزين عن المجاهرة بكرهيتهم للرومان . فإنهم راحوا بنفسون عن هذه المشاعر تجاه اليهود ، باعتبارهم عملاء للرومان . ومما هو جدير بالذكر أن الوالى الرومانى في مصر في عهد الإمبراطور تيبيريوس كان قد أصدر منشورا يحرم على الأهالى حمل السلاح^(٣) ، ويعلن توقيع عقوبات صارمة على كل من ي ضبط لديه سلاح . فهل يمكننا أن نستشف من هذا المنشور أن الصدام بين اليهود والسكندريين كان أمرا متوقعا ، وأن كلا الطرفين كان يكدر السلاح استعدادا للصراع ؟ .

(١) ممنون في الأساطير الإغريقية هو ملك إثيوبيا . وهو ابن إيوس Eos ربة الفجر . وقد ذهب إلى طرواده لمساعدة الملك برياموس بعد مقتل ابنه هكتور ، ولكنه قتل ، فحزنت عليه أمه حزنا شديدا واحتجبت وراء السحب ، ويقال أن رذاذ الندى هو دموع إيوس ، وقد أطلق الإغريق اسمه على تمثال أمنحوتب الثالث ووجهه في مدينة حابو . وهو تمثال ضخم عندما تسقط عليه أشعة الشمس وقت الشرق يخرج صوتا يحاكي صوت الأوتار ، وتقول الأسطورة أن إيوس كانت تنادى على ابنها كل صباح . انظر : أمين سلامة : معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية . القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) آمال الربوبى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(3) Philo. in Placc. 86

كانت الشرارة التي أطلقت الصراع بين اليهود والسكندريين ، هي وصول أمير يهودى إلى الإسكندرية ، وكان هذا الأمير يدعى أجريبا Agrippa وهو حفيد هيرود Herod الملك اليهودى المعروف . وكان أجريبا قد قضى شطراً من حياته فى روما ، وهاش فى القصر الإمبراطورى مع أبنته ، الأسرة الحاكمة ، وخلال هذا الوقت توثقت علاقته بالإمبراطور كاليجولا منذ الصغر ، وأراد الإمبراطور أن يكافئه ، فأمر بإقامته ملكاً على إيتوريا ، وهى إمارة صغيرة تقع على حدود بلاد اليهودية Iudaea^(١) . وكان السكندريون يعرفون هذا الأمير الذى عاش فى مدينتهم لبعض الوقت ، وكان مسروقاً متلاًفاً ، ويمانى فى أغلب الأحيان من مطاردة دانيه ، لكنهم فوجئوا به يأتى إلى الإسكندرية فى عام ٣٨ م ، وهو فى طريقه لى يصبح ملكاً^(٢) .

أما اليهود فقد هطلوا لوصول أجريبا إلى الإسكندرية ، واستقبلوه استقبالاً ملكياً ، بما أثار غيظ السكندريين ، وجعلهم يقررون إفساد احتفال اليهود ، فأحضروا معشوقاً من سكان المدينة، كان معروفاً باسم كراباس Karabas (الكرنب) ، ووضعوا على رأسه تاجاً ، وألبسوه خرقة بالية ، وأحاطوا بحرس ، وساروا به فى شوارع المدينة ، وأخذوا يرددون كلمة « الملك » سخريه من أجريبا^(٣) . ويبدو أن السكندريين فى غمرة مشاعرهم ضد اليهود ، تناسوا أن أجريبا كان مقرباً من الإمبراطور ، فأرادوا أن ينجبوا غضب الإمبراطور كاليجولا ، فبرروا تصرفهم هذا بأن تلك المظاهرة موجهة ضد اليهود ، الذين يرفضون وضع تماثيل الإمبراطور فى معابدهم^(٤) . وحتى يثبتوا صدق هذه المقولة ، فإنهم اقتنعوا معابد اليهود ، ووضعوا فيها تماثيل الإمبراطور ، وهو أمر يسىء إلى الديانة اليهودية ، التى ترفض مظاهر الوثنية .

شكل هذا الموقف إخراجاً للوالى الرومانى فى مصر ، ووجد أنه من الأفضل له أن ينحاز إلى السكندريين ، فأصدر منشوراً ذكر فيه أن اليهود دخلاء على الإسكندرية ، وأمر بسحب الامتيازات الممنوحة لهم ، وقام بمحاكمة زعمائهم^(٥) . وقد شجع موقف الوالى السكندريين على التمادى فى عدائهم لليهود ، فهاجموهم ، وأجبروهم على الانزواء داخل حيهم ، وهو

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٢) محمد السيد عبد الفنى : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٣) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٤) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

الحى الرابع المعروف بحى " دلتا " ، وقاموا بنهب حوائطهم ، وأضرمو النار فى معابدهم ، ويذكر الكاتب اليهودى فيلون ، أن شوارع الإسكندرية شهدت مذابح رهيبة ضد اليهود (١) .

والواقع أن الوالى الرومانى أساء التصرف ، فالقى القبض على عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ اليهودى ، وأمر بجلدهم (٢) ، وتم تنفيذ هذه العقوبة فى يوم ٣١ أغسطس ، الذى يوافق عيد ميلاد الإمبراطور ، كما أجبر السكندريون بعض اليهود على أكل لحم الخنزير علانية . مما دفع اليهود إلى تقديم شكوى للإمبراطور كاليجولا من الهوان الذى حاق بهم ، واتحياز الوالى ضدهم . وقد اقتنع الإمبراطور بأن الوالى قد أساء التصرف ، فأرسل قوة نزلت فى الإسكندرية تحت جنح الظلام ، وألقت القبض عليه (٣) ، وتم اقتياده إلى روما ، حيث قدم للحاكم ، وصدر الحكم بنفيه ومصادره ممتلكاته ، ثم أعدم بعد ذلك (٤) .

سارع كلا من اليهود والسكندريين بإرسال سفارة إلى روما ، لشرح وجهة نظر كل منهما للإمبراطور ، وكانت البعثة اليهودية بقيادة الكاتب اليهودى فيلون ، أما بعثة السكندريين فقد كان يرأسها أبليون Apion أحد زعماء المدينة ، وقد شاء حظ اليهود التمس أن يتلقى الإمبراطور فى ذلك الوقت ، أنباء تفيد بقيام اليهود بتدمير معبد أقامه الإغريق لعبادته فى فلسطين (٥) ، فثار ثورة عارمة ، وأمر الوالى الرومانى فى سوريا بعمل تمثال ضخم له ، وإقامة هذا التمثال فى قلب معبد اليهود فى أورشليم .

عندما ألتقى الرفدان بالإمبراطور ، هادر بتوجيه اللوم لليهود ، ونعتهم بأنهم كفرة ، لأنهم لا يؤمنون بألوهيته ، ومن الواضح أن كاليجولا كان شديد الغضب على اليهود ، وأنه يتولى التشكيل بهم ، ولم ينقلهم من غضبه سوى اغتياله فى عام ٤١م (٦) .

(1) Philo. in Flacc. 62 - 72

ينبغى أن نأخذ كلام فيلون بكثير من الحذر . لأنه يميل فى الغالب إلى محاكاة قومه من اليهود .
(٢) تسمى بعض هؤلاء الزعماء أثناء تنفيذ العقوبة . انظر ك مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(3) Reinmuth, op. cit. p. 6

(4) Philo. in Flacc. 147. ff .

(٥) كان الإمبراطور كاليجولا قد أصابته حالة من الجنون ، مما جعله يعتقد بأنه إله ، وأن على وعاباء أن يعبدوه ويتبعوا من أجله المعبد .

(٦) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٠١ .

الإمبراطور كلوديوس Claudius ٤١ - ٥٤ م :

عندما تولى الإمبراطور كلوديوس العرش ، كانت آثار فتنة ٣٨م ما تزال بادية للعيان ، وكان على الإمبراطور الجديد أن يعمل على وضع نهاية للصراع بين اليهود والسكندريين ، وأراد كلوديوس أن يهدئ من روع اليهود ، بعد الخوف الذى سيطر عليهم ، بسبب غضب الإمبراطور السابق عليهم ، فأكد الامتيازات التى كانت لليهود قبل فتنة عام ٣٨م ، بعد أن قبل وساطة أجربا الذى كانت تربطه علاقة حميمة بالإمبراطور كلوديوس أيضاً^(١) ، ولكن الإمبراطور من ناحية أخرى حرص على تحذير اليهود والسكندريين من إثارة الاضطرابات مرة أخرى ، ولكن يبدو أن يهود الإسكندرية كانوا ما يزالوا على خوفهم من المستقبل ، فأعدوا للأمر عدته ، وأخذوا فى تخزين الأسلحة ، واستجلاب اليهود من فلسطين ، وكانوا هم الذين بدأوا فى العدوان على السكندريين فى عام ٤١ م ، ولكن الوالى الرومانى فى هذه المرة كان حازماً ، ففضى الفتنة فى المهد .

بعد أن هدأت الأحوال ، سارع كل من اليهود والسكندريين بإرسال بعثة إلى روما ، وكان الهدف الظاهر لهاتين البعثتين ، هو تهنئة الإمبراطور بتولى العرش ، أما الهدف الحقيقى فهو رغبة كل طرف فى الدفاع عن نفسه ، والقاء اللوم على الطرف الآخر .

حاول الإمبراطور أن يضع حدا لهذه الخلافات ، فبعث برسالة إلى الإسكندرية ، قام الوالى بتلاوتها على الملأ ، وقد وصل إلينا نص هذه الرسالة مدوناً على بردية عشر عليها فى إحدى قرى الفيوم^(٢) . وتنقسم رسالة الإمبراطور إلى قسمين ، يتعلق الأول بمطالب السكندريين ، أما القسم الثانى فإنه يختص باليهود^(٣) .

فى القسم الأول من الرسالة قبل الإمبراطور تكريم السكندريين له ، ورحب بإعلان ولائهم له ، ووافق على أن يقام له تمثال من الذهب فى روما ، يعبر عن السلام الذى حققه أوغسطس وكلوديوس Pax Augusta Claudiana .

(1) Goodman, M, Roman World, p. 268

(2) P. Lourd, 1912

(٣) حظيت هذه الرسالة باهتمام الكثيرين من الباحثين ، لمعرفة المزيد عن الدراسات التى أجريت حول هذه الرسالة ، انظر : عبد اللطيف أحمد عفى : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

ولكن الإمبراطور كلوديوس رفض مطلب السكندريين بأن يفيحروا المعابد من أجل عبادته ، قائلاً أن إقامة المعابد يجب أن يكون للآلهة فقط ، وربما أراد بذلك ألا يكرر الخطأ الذي وقع فيه الإمبراطور كاليجولا . ومن ناحية أخرى فإن الإمبراطور كلوديوس أقر للسكندريين الامتيازات التي سبق للإمبراطور أوغسطس أن منحهم إياها ، ولكنه لم يستجب لطلبهم بإنشاء مجلس للشورى ، وقال لهم أنه سوف يحيل هذا الأمر إلى الوالى لكى يقوم ببحتهم ، وفى النهاية ناشد السكندريين أن يكفوا عن التحرش باليهود ، وألا ينتهكوا شعائر عبادتهم . أما فيما يتعلق باليهود ، فقد حذرهم من محاولة الحصول على امتيازات أكثر من تلك يتمتعون بها ، وأن عليهم ألا يقحموا أنفسهم فى معاهد الجمنازيوم ، التى تقتصر عضويتها على الإغريق فقط ، وأن عليهم ألا ينسوا أنهم يقيمون فى مدينة ليست مدينتهم ، كما أن عليهم ألا يستجلبوا يهوداً إلى الإسكندرية .

ويبدو إن هذه الرسالة لم ترض أحداً من الطرفين ، فبالنسبة لليهود فإنها لم تحقق آمالهم فى الحصول على المزيد من الامتيازات ، أما السكندريون فقد أثارت غضبهم لأنها أقرت لليهود حقوقهم القديمة ^(١) . كما أن الإمبراطور لم يستجب لطلبهم الدائم الذى تتمثل فى إقامة مجلس للشورى ، ولما كان السكندريون عاجزين عن التعبير عن غضبهم بشكل علنى ، بسبب التحذير الذى وجهه لهم الإمبراطور فى رسالته ، فإنهم لجأوا إلى التنفيس عن مشاعرهم المكبوتة ، وذلك من خلال بوع من الأدب الشعبى ، عرف بأعمال السكندريين - Acta Alexandrinorum ، عبروا فيه عن كراهيتهم للرومان واليهود ، وقد احتوت هذه الأعمال على الكثير من المبالغات ، فهى تصور زعماء السكندريين فى صورة الأبطال ، الذين يتحذرون الأباطرة الرومان ^(٢) .

الإمبراطور نيرون ٥٤ - ٦٨ م :

خلف نيرون الإمبراطور كلوديوس على عرش الإمبراطورية ، وتوجد اختلافات كبيرة فى الشخصية بين الاثنين ، فعلى حين كان كلوديوس رجلاً حازماً ، فإن نيرون كان شاباً أرعن .

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(2) Goodman. M, Roman World, p 268 .

نعم الدكتور عبد اللطيف أحمد على تفصيلات حول نشأة هذا الأدب وطبيعته . تحت عنوان أعمال السكندريين وأدب الشهداء . انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١٢٩ .

تولى العرش وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكان تلميذاً للفيلسوف سينيكا Seneca ، وكان نيرون محباً للفنون والشعر والموسيقى ، مما جعله ينصرف عن شئون الحكم فى أغلب الأحيان ، تاركاً الأمر فى يد مستشاريه ، كما أن والدته كانت حريصة على التدخل فى شئون الحكم ، مما جعله يقدم على قتلها فى عام ٥٩ م ، وراح يتخبط فى إدارة الدولة ، وبلغ ولعه بالحضارة الإغريقية حداً جعله يشارك بنفسه فى الأعياد الأوليمبية ، بالعزف على القيثارة والغناء (١) .

ولعل من أشهر الأحداث التى وقعت فى عهد الإمبراطور نيرون ، هو الحريق الشهير الذى شب فى مدينة روما فى عام ٦٤ م ، واستمر لأكثر من ستة أيام ، وأتى على شطر كبير من المدينة . ويقال أن نيرون هو الذى دبر هذا الحريق حتى يتخلص من الأحياء القذرة فى العاصمة ، وتذكر الروايات أن نيرون عندما شاهد روما وهى تحترق ، أمسك قيثارته وأخذ يعزف أغنية حزينة عنوانها " طروادة تحترق " ، ولكن النيران ما لبثت أن اتقضت على قصر كان نيرون قد فرغ لتوّه من بناءه (٢) .

انعكست حالة الاضطراب التى كان يعانى منها الإمبراطور ، على كافة نواحي الحياة فى الإمبراطورية ، فاندلعت حركات التمرد فى الولايات ، وكان أخطرها ثورة اليهود فى فلسطين ، التى كان لها تأثيرها على الأحوال فى مصر ، وفى الإمبراطورية الرومانية بأسرها .

والحقيقة أن الرومان كانوا قد لجحروا إلى حد كبير فى صهر الشعوب التى انضوت تحت لوائهم ، ولكن اليهود استعصوا عليهم ، ورفضوا الاندماج فى البوتقة الرومانية ، وكان يوليوس قيصر قد لجح فى إقامة علاقة طيبة مع اليهود فى فلسطين ، واستمرت هذه السياسة فى عصر أوغسطس ، واستطاع ملك اليهود هيرود الكبير أن يمسك بزمام الأمور ، وظلت الأحوال هادئة ، ولكن بعد وفاته فى عام ٦ م . أصبحت الدولة اليهودية أشبه بولاية لها حاكم خاص ، يخضع للوالى الرومانى فى سوريا .

وقد فحرت محاولات الإمبراطور كاليجولا لفرض عبادته على اليهود ، عقدة الحروف المتأصلة لديهم ، ولم يلبث الصراع أن انفجر بين اليهود وباقى سكان فلسطين من الشعوب الأخرى ، من ذوى الأصول الكنعانية ، وكذلك الفلسطينيين والسوريين .

(١) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٢) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

ومن ناحية أخرى ثار خلاف داخل اليهود أنفسهم ، بين معسكر المتشددين الذين يتمسكون بتعاليم التوراة بحذافيرها ، واليهود المتحررين الذين أقبلوا على الثقافة الإغريقية ، وكان لدى هؤلاء الأخيرين الرغبة والاستعداد للتقارب مع الرومان . بينما نظر اليهود المتشددون إلى الرومان نظرة استمزاز ، لأنهم وثنيون .

وفي عام ٦٦م اندلعت أعمال الشغب في مدن فلسطين ، وأخذ اليهود يطالبون بالمساواة في الحقوق السياسية ، مع باقي المواطنين ، وفي أورشليم انفجر الموقف ، حين قام الحاكم الروماني بمصادرة مبالغ كبيرة من أموال هيكل أورشليم . وفاء لضرائب متأخرة على اليهود ، ولم تلبث أحداث الشغب أن تحولت إلى ثورة عارمة ، تولى قيادتها أحبار اليهود . وفي فبراير عام ٦٧م قام الإمبراطور نيرون بإرسال أحد القادة وهو فلافيوس فسباسيانوس Flavius Vespasianus ، للقضاء على هذه الثورة

كان لثورة اليهود في فلسطين أصداء في مصر ، وكما هو معروف فإن العلاقة بين اليهود والسكندريين كانت متوترة على الدوام ، وبينما كان حشد من السكندريين يجتمعون في ملعب المدينة ، للمباحث حول إرسال بعثة إلى الإمبراطور ، لكي يعلنوا تأييدهم له ، بعد ثورة اليهود في فلسطين ، اكتشفوا وجود بعض اليهود المندسين بينهم ، فقاموا بالاعتداء عليهم ، مما أثار غضب باقي اليهود ^(١) . ويلقى المؤرخ جوزيفوس اللوم على السكندريين ، ويرى أنهم البادئين بالعصيان على اليهود ^(٢) . وكان الإمبراطور نيرون قد عين تيبيريوس يوليوس الإسكندر Ti-berius Julius Alexander واليًا على مصر ، وهو يهودي سكندري في الأصل ، ولكنه ارتد عن دينه ، واكتسب المواطنة الرومانية ، وتدرج في سلك الوظائف الرومانية ، حتى وصل إلى هذه المرتبة . وقد حاول هذا الوالي أن يسدي النصح لزعماء الجالية اليهودية ، مطالبًا إياهم بالتروى ، إلا أنهم أعرضوا عن نصائحه ، مما اضطره إلى استخدام القوة ضدهم ، واستعان بالقوات الرومانية ، ويقال أن خمسين ألفًا من اليهود لقوا حتفهم في هذه الأحداث ^(٣) .

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(2) Josephus. Bell. Jude. 2. 487 - 98

(3) Josephus. Bell. Jude. 2. 492 - 4

وبينما كان فسباسيان يحاصر اليهود في أورشليم ، توالى الأتباء بوقوع اضطرابات في روما ، وانتحار الإمبراطور ، وعلى الفور سارع السناتو بتعيين أحد القادة ويدعى جالبا Galba ، في منصب الإمبراطور ، ولكن قوات الحرس البريتوري^(١) فتكت بهذا الإمبراطور ، وأعلنت مناداتها بقائد آخر ، وهو أوتو Otto إمبراطوراً ، وفي نفس الوقت رفضت القوات الرومانية المربطة في الراين الاعتصاف بأوتو ، ونادت بقائدها إمبراطوراً ، وكان هذا القائد يدعى فيتيلوس Vettius ، وزحف في اتجاه العاصمة ، فأقدم أوتو على الانتحار بعد أن استسلم للباس .

دخل فيتيلوس روما ، وأعلن نفسه إمبراطوراً في أبريل من عام ٦٩ م . ولكن ذلك لم يضع حداً للصراع على العرش . فإن القوات العسكرية أصبحت هي التي تتدخل في تحديد من يشغل العرش . وفي اليوم الأول من شهر يوليو عام ٦٩ م . نادت القوات الرومانية والوالى الروماني في مصر فسباسيان إمبراطوراً^(٢) ، ولم تلبث القوات الرومانية في فلسطين أن حلت حذوها ، في يوم ٣ يوليو^(٣) .

أعلن فسباسيان قبوله لمبايعة القوات الرومانية ، وترك ابنه تيتوس Titus لكي يواصل حصار أورشليم ، وذهب إلى مصر لكي يضع يده على صوامع الفلال ، ويضمن سلاحاً فعالاً في معركته المقبلة ، وفي أثناء وجوده في الإسكندرية حرص فسباسيان على زيارة معبد الإله سيرابيس ، وبينما كان يقدم القرابين ، خيل إليه أن أحد عبده يدخل عليه حاملاً غصوناً وأرغفة مقدسة ، مما جعله يتفائل بقرب ارتقائه للعرش^(٤) .

أخذت القوات الرومانية في مناطق أخرى تعثن تأييدها لفسباسيان ، ووحف بعضها على العاصمة ، ودارت بينها وبين قوات فيتيلوس معارك شرسة ، انتهت بهزيمة فيتيلوس والقبض

(١) هي القوات التي تتولى حراسة الإمبراطور ، لمعرفة المزيد عن هذه القوات ، انظر : سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(2) Resmuth, op. cit p. 2

(3) C.A.H.XI, p. 2

(٤) آمال التروبي : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

عليه ، وجرى بعد ذلك تنفيذ حكم الإعدام فيه فى ديسمبر من عام ٦٩م ، وفى يوم ٢٢ ديسمبر ، أى بعد إعدام فيثتلوس بيوم واحد ، أصدر السناتو قراراً بتنصيب فسباسيان إمبراطوراً^(١) .

وفى فلسطين نجح تيتوس فى القضاء على ثورة اليهود ، وتدمير معبد أورشليم فى عام ٧٠م . وذلك بعد حصار طويل للمدينة ، وأصبحت بلاد اليهودية ولاية رومانية ، وأمر تيتوس بحل كافة التنظيمات اليهودية ، وفرض على اليهود أن يدفعوا ضريبة الرأس^(٢) .

العائلة الفلافية :

كان نيرون آخر أباطرة العائلة اليوليوكلودية ، وفى عام ٦٩م جلس على عرش الإمبراطورية الرومانية أربعة أباطرة ، لذا عرف هذا العام بعام الأباطرة الأربعة ، واستقر العرش فى النهاية لفسباسيان الذى يعد عهده بداية لأسرة حاكمة جديدة هى الأسرة الفلافية ، التى ينتمى إليها فسباسيان .

وما يهنا فى قصة ارتقاء فسباسيان لعرش الإمبراطورية الرومانية ، هو الدور الذى لعبته مصر فى هذا الأمر . فعلى الرغم من أن السناتو أصدر قراره بتنصيب فسباسيان فى يوم ٢٢ ديسمبر من عام ٦٩م ، إلا أن فسباسيان اعتبر أن تاريخ حكمه يبدأ من اليوم الأول من شهر يوليو ، وهو اليوم الذى أعلن فيه والى مصر اعترافه به إمبراطوراً^(٣) . لقيت زيارة فسباسيان للإسكندرية ترحيباً بالغاً من شعب الإسكندرية ، فلم تشهد المدينة زيارة إمبراطور رومانى من قبل ، فيما عدا أوغسطس ، فأخذت الجماهير تهتف بحياته .

أخذت الدهاية فى الترويج للإمبراطور الجديد ، وقالت إنه مشمول برعاية الإله سيرايس^(٤) ، وأنه قادر على صنع المعجزات ، وشفاء الناس ، ويقال أن نهر النيل قد ارتفع

(1) C.A.H. XI. p. 4 .

(٢) مصطفى كمال عبد المليم ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(3) Tacitus. II. 79

(4) Bowman, op. cit p 41 .

فى أثناء وجود فسباسيان بمقدار أربعة أذرع فى يوم واحد ، وقد فسرت هذه الظاهرة بأن الآلهة المصرية ترحب بالإمبراطور الجديد (١) .

عندما أفاق السكندريون من فرحتهم بالإمبراطور الجديد ، تبين لهم أن الرجل لا تهمة المظاهر ، وأنه رجل دولة فى المقام الأول ، وأنه حريص أشد الحرص على جباية مسنحات الدولة ، بل إنه لجأ إلى فرض ضرائب جديدة ، مثل تلك الضريبة التى فرضها على السمك المملح . فانتقلوا عليه ، وأطلقوا عليه لقب تاجر السمك المملح ، مما أثار غضب فسباسيان ، وجعله يقرر فرض ضريبة الرأس على السكندريين ، وهى الضريبة التى كان أوغسطس قد أعفاهم من دفعها ، عبر أنه عاد وصفح عنهم بعد توسط ابنه تيتوس .

بعد سقوط أورشليم وتدمير الهيكل فى اليوم الثانى من سبتمبر عام ٧٠م ، ذهب نيتوس إلى الإسكندرية ، وأظهر مشاعر طيبة تجاه سكان المدينة (٢) ، وشمل عطفه المصريين أيضاً ، فحرص على حضور بعض أعيادهم الدينية . وكان قد فر إلى الإسكندرية بعض اليهود المتعصبين ، الذين عملوا على تحريض يهود الإسكندرية ضد السلطات الرومانية (٣) . ولكن هؤلاء الأخيرين لم يستجيبوا لهم ، بل إنهم ألغوا القيض عليهم وسلحواهم للسلطات الرومانية ، ولكن على الرغم من هذا الموقف المتمثل من يهود الإسكندرية ، إلا أن الرومان كانوا ينظرون إلى تحركات اليهود بكثير من التجسس ، لذا أصدرت السلطات الرومانية فى مصر قراراً بإغلاق معبد أونياس Onus فى ليونتوبوليس Leontopolis (تل اليهودية) (٤) . وذلك

(١) ربما كان الإمبراطور فسباسيان هو الذى أوحى للفنان بفكرة الستة عشر طفلاً الذين يعيطون بتمثال إله النيل Neilus ومنذ ذلك الحين أصبح هذا هو السط السائد فى قائل هذا الإله . انظر : أهر اليسر فرح ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢) راجت الروايات بأن مجىء فسباسيان وابنه كان تحت تأثيره تقول بأنه سوف يأتى من بلاد اليهودية رجال سوف يحكمون العالم . انظر : Tacitus, Hist. IV 81, VI 13 .

(٣) مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٤) يرجع تاريخ إنشاء هذا المعبد إلى عهد بطليموس السادس ، وكان هذا الملك يعطف على اليهود . ففتح واحداً من أحياءهم ، وهو أونياس الرابع قطعاً أرض على الفرع الشرقى لنهر النيل فى ليونتوبوليس ، وأقام أونياس حاكماً على المديرية العربية . وقد جرى تصميم هذا المعبد لكون صورة طبق الأصل من معبد أورشليم . انظر : مصطفى كمال عبد العليم ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

خوفًا من يتحول هذا المعبد إلى بديل لهيكل أورشليم الذي تم تدميره ، ويصبح قبلة لليهود ، كما فرض الإمبراطور قسباسيان على اليهود أن يدفعوا ضريبة ، كانت تذهب إلى معبد الإله جوستر في روما ، وهي ذات الضريبة التي كانوا يؤدونها لمعبد أورشليم (١).

شهد عصر العائلة الفلاكية تعاطفًا مع مصر والآلهة المصرية ، بعد العداء الشديد الذي بلغ ذروته خلال الحرب بين أركتافيانوس وكليوباترة ، وقد صورت بعض المصادر الرومانية تلك الحرب بأنها حرب بين آلهة التايير وآلهة النيل . وعندما ارتقى تيتوس العرش بعد وفاة والده في عام ٧٨ م ، أظهر احترامًا للآلهة المصرية ، وعلى رأسها الربة إيزيس . وبما هو جدير بالذكر أن عبادة الربة إيزيس لقيت رواجًا في روما منذ عهد بعيد ، ولكن السلطات الرسمية كانت تحاربها ، وتحول دون انتشارها بين الرومان . ولكن في عهد قسباسيان وجدت هذه الربة تقديرًا كبيرًا من هذا الإمبراطور ، حتى إنه سك عملة عليها صورة الربة إيزيس (٢) . وقد استمر هذا التقدير في عهد تيتوس حتى وفاته في عام ٨١ م ، ولا يغرب عن بالنا أن تيتوس كان منذ البداية مبالًا إلى احترام العبادات المصرية ، وعندما كان في مصر ، حرص على حضور احتفال تقديم القرابين للعجل أبيس (٣) . واستمر الاهتمام بالآلهة المصرية في عهد الإمبراطور دوميتيانوس Domitianus ، الشقيق الأصغر لتيتوس ، وكان هذا الإمبراطور يعتقد أنه مدين للربة إيزيس التي أنقذته من موت محقق (٤) . وفي عام ٩٤ م أعاد بناء معبد إيزيس في ساحة الإله مارس ، في قلب روما ، وأقام كذلك معبدًا للإله سيرابيس ، وكان معبد إيزيس قد تعرض للتدمير على أثر حريق في عام ٨٠ م .

وقد شكل موقف الإمبراطور دوميتيانوس السياسة الرسمية للدولة تجاه العبادات المصرية ، وهي سياسة قامت على الاحترام على الرغم من معارضة قطاع من الرومان لهذه السياسة ، لأنهم كانوا يستهجنون بعض مظاهر العبادات المصرية ، التي تقدس الحيوان .

(١) عيد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) عيد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) محمد السيد عيد الغنى : المرجع السابق ، ص ١٤ .

(4) witt. R.E, Isis in the Graeco - Roman World. London, 1971. p. 234 .

كذلك شهد عصر دوميتيانوس بناء العديد من المعابد للربة إيزيس في مناطق متفرقة من إيطاليا مثل بينيفنتوم Beneventum .

مصر في عصر الازدهار في الإمبراطورية الرومانية ٩٦ - ١٨٠ م :

موت الإمبراطور دوميتيانوس ، انتهى عصر الأسرة الفلافية ، ولم يكن لهذا الإمبراطور ولد يرث العرش من بعده ، لذا قرر الرومان إيجاد نظام جديد لتولى العرش ، يقوم على الاختيار ، وليس الوراثة ، فوقع اختيارهم على نيرفا Nerva (٩٦ - ٩٨ م) ، وكان رجلاً حكيماً^(١) ، ولكن عهده لم يشهد أحداثاً ذات أهمية بالنسبة لولاية مصر . وقد اختار نرفا أحد القادة من ذوى الكفاءة ، لكي يكون خليفة له ، وهو تراچان Trajanus (٩٨ - ١١٧ م)^(٢) . وبعد وفاة نرفا ، تولى تراچان العرش ، وهو أول الأباطرة الرومان الذين ينحدرون من سكان الولايات .

في عهد تراچان حدثت مجاعة في مصر ، بسبب انخفاض فيضانات النيل ، كما تجدد الصراع بين اليهود والسكندريين . وقد واقتنا إحدى الوثائق البردية بصورة من صور الفساد الإداري^(٣) ، حيث ورد فيها إشارة إلى فساد الوالى الرومانى فى مصر ، الذى يدعى جايوس فيبيوس مكسيموس C.Vibius Maximus ، الذى تولى منصبه قيما بين عامى ١٠٢ ، ١٠٧ م ، ووجهت إليه تهم تتعلق بالابتزاز والاعتراف الخلقى ، وبدو أن هذا الوالى قد تعرض للعزل ، وأزيل اسمه من الوثائق الرسمية^(٤) .

بادر الإمبراطور تراچان بالعمل على تخفيف المجاعة ، فأرسل إلى مصر أسطولاً محملاً بالفسلال^(٥) . أما العلاقات بين اليهود والسكندريين فقد سادها الهدوء ، لمدة أربعين عاماً تقريباً بعد سقوط أورشليم ، ولكن النار كانت كامنة تحت الرماد ، ففي عام ١١٣ م ، اندلعت

(1) C.A.H. XI p. 188

(2) C.A.H. XI p. 196

(3) P.Oxy. 4/1 .

يرى بعض الدارسين أن الوقائع التى جاء ذكرها فى هذا النص ، قد لا يكون لها أساس من الواقع ، وأن هذا النص يدخل فى إطار ذلك النوع من الأدب الشعبي الذى يطلق عليه أعمال السكندريين ، والتى يهدف إلى تشويه صورة الحكم الرومانى ، انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(4) Reinmuth , op cit p 3

(٥) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٨١

الفتنة من جديد ، ولا نعرف الأسباب التي أدت إلى اشتعال الموقف ، ولكنها كانت عنيفة ، مما اضطر السلطات الرومانية إلى استخدام القوات العسكرية التي أوقعت الهزيمة باليهود ، وانتهاز السكندريون فرصة انكسار اليهود فأخذوا في التحرش بهم .

فى ذلك العام كان الإمبراطور تراچان يقوم بحملة فى الشرق ، واضطر إلى سحب بعض القوات من الولايات ، وسحب إحدى الفرق من مصر ، فانتهاز اليهود هذه الفرصة ، وأخذوا ينفسون عما فى صدورهم من كراهية للرومان ، وكانت البداية وقصص صراع بين اليهود والإغريق فى قورينائية . لم يلبث أن تحول إلى حرب شاملة ضد الإمبراطورية الرومانية (١) ، امتد أوارها لكى يشمل مناطق أخرى ، مثل مصر وبرقة وقبرص وبلاد الرافدين (٢) ، وقصد مارس اليهود أعمالاً وحشية ضد الإغريق ، وقاموا بهدم معابدهم ، وامتدت أعمال اليهود العدوانية إلى الريف المصرى ، فقد زحف يهود برقة على الأراضى المصرية فى عام ١١٦ م ، ولكنهم عجزوا عن اقتحام الإسكندرية ، فتحولوا إلى مناطق أخرى وعاثوا فيها فساداً ، واضطرت السلطات الرومانية إلى تجنيد الأهالى وتسليحهم لمقاومة اليهود (٣) ، وتمسكن الرومان من إخماد هذه الفتنة فى عام ١١٧ م ، ولكنها تركت آثاراً مدمرة على مرافق البلاد (٤) .

بعد وفاة تراچان فى عام ١١٧ م ، ارتقى العرش الإمبراطور هادريان (Hadrian) ١١٧ - ١٣٨ م ، وشهدت مصر فى عهده ثالث زيارة يقوم بها إمبراطور روماني لهذه الولاية ، فقد جاء هادريان إلى مصر ، وحرص على زيارة آثارها الخالدة ، التى أثارت اهتمامه إلى أبعد حد ، وبخاصة تمثالاً ممنون ، اللذين كان يصدر عنهما صوت جميل ، عند شروق الشمس ، وكانت هذه الزيارة إحدى الفقرات التقليدية ، فى جولات الرومان فى مصر (٥) .

(1) C.A.H. XI, p. 250 .

(2) Goodman, op. cit. p. 269

(3) Rostovtzeff, op. cit. p. 348

(4) C.A.H. XI, p. 353 .

لدينا خطاب طريف حملته إحدى البرديات ، كتبه أحد مديري الأقاليم إلى الوالى يطلب أجازة لإعادة ترتيب أحواله " بسبب الهجوم الضارى ، الذى قام به اليهود الكفرة " ، مما ترتب عليه فقدان كل ما أمك فى قري إقليم هرموبوليس " . أنظر : Slect papyri . II. 298 , p. Gress. 41

(٥) محمد السيد عيد القنى : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

كان يرافق الإمبراطور هادريان في أثناء الزيارة ، أحد الفلماني ، وكان هذا الغلام الذي يدعى أنتيسمينوس Antinous أثيراً لدى الإمبراطور ، وقد ألقى بنفسه في النيل قداء للإمبراطور ، وحزن هادريان لموته ، وأمر بإقامة مدينة في الموقع الذي غرق فيه ، تخليداً للذكره (١) . وحملت هذه المدينة اسم أنتينوبوليس Antinopolis (الشيخ عبادة بمحافظة المنيا حالياً) ، وأصبحت هذه المدينة هي المدينة الإغريقية الرابعة في مصر .

كان معروفاً عن الإمبراطور هادريان حبه الشديد للحضارة الإغريقية Philhellenic ، وبعد من أعظم بناء المدن ، وكان من الطبيعي أن يلجأ إلى هذه الطريقة لتكريم أنتينوس (٢) . ولعل من دلائل تقدير الإمبراطور هادريان للحضارة الإغريقية أيضاً ، حرصه على مقابلة علماء المكتبة ودار العلم (الموسيرون) بالإسكندرية ، وإجراء الحوارات معهم (٣) .

وقد تولى عرش الإمبراطور الرومانية بعد هادريان ، أنطونينوس بيوس (التقى) An-toninus Plus (١٣٨ - ١٦١ م) ، وليست لدينا معلومات عن أحداث وقعت في عهده ، فيما خلا الأنباء التي تواترت عن وقوع ثورة في الإسكندرية ، راح ضحيتها والي الرومان في عسّام ١٥٣ م (٤) . وتلى ذلك حضور الإمبراطور إلى مصر ، حيث أقام فيها بعض المنشآت (٥) .

ويمكننا أن نلاحظ أن الاضطرابات التي شهدتها مصر ، في الفترة السابقة كان مصدرها اليهود والسكندريين . ولم نسمع قط عن اضطرابات قام بها المصريون ، فيما عدا تلك التي حدثت في الأيام الأولى للحكم الروماني .

ولكن يبدو أن المصريين قد طُفح بهم الكيل ، ولم يعد في قوس الصبر متزعج ، فقد أثقلت كواهلهم الأعباء التي فرضها عليهم الرومان ، من ضرائب وخدمات إلزامية ، كما أن الفوضى التي عمت البلاد إبان حرب اليهود ، دمرت المرافق ، وزادت من شظف العيش ، وقسوة الحياة ،

(1) Bowman, op. cit. p 44

(2) C.A.H. XI, p. 250 .

(٣) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(4) Renan, op. cit. p 126 .

(٥) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

فشهد عصر الإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius ، قيام ثورة عنيفة للمصريين في عام ١٧٢م . تحت زعامة أحد الكهنة ويدعى إيزيدور ، وهي الثورة المعروفة بشورة الرعاة ^(١) ، ويبدو أن الذي شجع المصريين على القيام بهذه الثورة هو سحب بعض القوات الرومانية من مصر للفعال في جبهة الدانوب ، وكان مركز الثورة في منطقة شمال الدلتا ، وعجزت القوات الرومانية في مصر عن مواجهتها ، وكاد الثوار أن يستولوا على الإسكندرية ، لولا استعانة السلطات الرومانية بالحامية الرومانية في سوريا ^(٢) .

جاءت القوات الرومانية بقيادة أفيدوس كاسيوس Avidius Cassius ، وتمكنت من القضاء على الثورة ، ولكن هذا الفائد بثقة تبا كادب يموت الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، فسارع بإعلان نفسه إمبراطوراً ، وحصل على تأييد جنوده في عام ١٧٥م ، وأعلن أهالي مصر والإسكندرية تأييدهم له ، لأنهم كانوا على استعداد لتأييد أى منشق ضد السلطة في روما ، ليس حباً في هذا أو ذاك ولكن كراهية لروما ^(٣) . إلا أن تمرد كاسيوس سرعان ما فشل بعد أن معرض للاغتيال على يد أحد صباطه .

في العام التالي لتمرده كاسيوس ، أى في عام ١٧٦م ، قام الإمبراطور ماركوس أوريليوس بزيارة للولايات الشرقية ، ومنها ولاية مصر ، وكان رحيمًا بالجميع ، فأصدر عفواً شاملاً عن كل من تورطوا في تأييد التمرد ^(٤) .

ولكن سياسة التسامح التي اتبعها ماركوس أوريليوس لم تستمر في عهد ابنه وخليفته كوممودوس Commodus (١٨٠ - ١٩٢م) ، فقد كان هذا الأخير ميالاً للعنف ، وقام بمحاكمة كل الذين أيدوا تمرد كاسيوس ، وأخذ في ملاحقتهم والتنكيل بهم ، ويبدو أن حالة الاضطراب التي مرت بها مصر خلال العقود الماضية ، قد أثرت على انتاجها من الغلال ، فالتجّفت روما إلى الاعتماد على مصدر آخر للغلال ، وقام الإمبراطور ببناء أسطول جديد لنقل الغلال من شمال أفريقيا إلى روما ، وهو الذي عرف بالأسطول الأفريقي Clasis Africana ^(٥) .

(١) آمال الروبي : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢) محمد السيد عيد الغنى : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٣) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٤) رفض الإمبراطور أن يرى رأس المتمرد كاسيوس ، وأمر بدفنها انظر : آمال الروبي : المرجع السابق ،

ص ١٣٣ .

(5) Rostovtzeff, op. cit. pp. 395, 708 .

مصر في القرن الثالث « عصر الاضطراب » :

سادت الإمبراطورية الرومانية في هذا القرن ، حالة من الاضطراب ، وأخذ الجيش يتدخل في المنازعات السياسية ، وفي الصراع على العرش . وكما لاحظنا في مناسبات سابقة أن المصريين كانوا يكرهون الحكم الروماني ، ويسارعون بتأييد كل متمرد على السلطة المركزية . وبعد مقتل الإمبراطور برتيناكس Pertinax في عام ١٩٣ م ، عادت تسيطر على الإمبراطورية أجواء أشبه بتلك التي سادت في أعقاب مصرع الإمبراطور نيرون ، فأخذت القوات الرومانية تعطي لنفسها الحق في المناداة بالآباطرة ^(١) ، وأصبح لقوات الحرس البريتوري دور بارز ، في تعيين الآباطرة وخلقهم ، ونادت القوات الرومانية في بريطانيا بقائدها إمبراطوراً ، وكذلك فعلت قوات الدانوب ، وحذت القوات الرومانية في سوريا حذوهم ، فأعلنت مصر تأييدها لحاكم سوريا . وصدرت في مصر عملة باسمه .

كان الرابع في النهاية هو قائد قوات الدانوب ، الذي تمكن بفضل العدد الكبير من القوات الذي كان تحت إمرته ، من السيطرة على روما ، وأصبح سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus إمبراطوراً في عام ١٩٣ م ، وفي عام ١٩٩ - ٢٠٠ م قام هذا الإمبراطور بزيارة لمصر ، وبقي فيها عاماً كاملاً ^(٢) . وحرص على زيارة معاملها ^(٣) ، وأبحر في النيل حتى الحدود الجنوبية ، وقد أدرك سفسروس مدى التدهور الذي آلت إليه الأحوال في مصر ، ومدى الحاجة إلى الإصلاح ، فأمر بإدخال تعديلات إدارية ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشهد فيها مصر تعديلات في النظم الإدارية ، التي وضعها أوغسطس ، وقد تم بمقتضى هذه التعديلات منح الإسكندرية مجلساً تشريعياً ، وكذلك الحال في باقي مدن مصر ^(٤) ، وتعتبر هذه الخطوة التي أقدم عليها سيفيروس ، محاولة منه لتوحيد النظم في سائر أرجاء الإمبراطورية الرومانية ^(٥) .

(1) Rostovtzeff, op. cit pp. 399 - 400

(2) C.A.H. XI p. 656

أمر الإمبراطور سيفيروس بترميم الشقوق الموجودة في تشالي كمن ، ونتج عن هذا الترميم توقف الصوت الذي كان يصدر عنها عند الفجر . انظر : آمال الروس : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(3) Rostovtzeff, op. cit. p. 410

(٤) عن هذه التنظيمات انظر : C.A.H. XI. pp. 650 - 7 .

عندما تولى العرش الإمبراطور كركلا Caracalla (٢١١ - ٢١٧ م) أقدم على خطوة هامة ، حين قرر منح حقوق المواطنة الرومانية ، لكافة رعايا الإمبراطورية ، فيما عدا فئة واحدة ، أطلق عليها القرار وصف *dediticii* ، وهى كلمة تعنى المستسلمين ، وقد ثار جدل بين الباحثين حول تعريف هذه الكلمة ^(١) ، ومن هم المستسلمون الذين يعينهم هذا القرار ، وهل كان المصريون من بينهم ، ولكن الدراسات أثبتت أن هذا المنح شمل المصريين أيضاً ^(٢) . وعلى أية حال فإن لويس Lewis يرى أن هذا القرار كان تأثيره نفسياً وشكلياً ، دون أن يؤدي إلى تغير حقيقى فى حياة الناس ^(٣) .

فى عام ٢١٥ م ، قام الإمبراطور كركلا بزيارة لمصر ، وكان الناس يكرهونه ، لأنهم كانوا يعلمون أنه قتل شقيقه ، لكنى يستأثر بالعرش ^(٤) ، فأخذوا يسخرون منه ، وقد دفعه هذا إلى الانتقام منهم ، فأمر بجمع الإسكندرانيين فى إستاد المدينة ، وقتل عدداً كبيراً من الشباب ، وأمر جنوده بنهب المدينة ، وأصدر قراره الشهير ، الذى يقضى بطرد كافة المصريين الذين يقيمون فى الإسكندرية ، بشكل غير مشروع ، والذين كانوا قد هربوا من مواطنهم فى الريف ، حتى يتهربوا من أداء التزاماتهم تجاه الدولة ^(٥) .

بلغ الاضطراب ذروته فى الإمبراطورية الرومانية ، وذلك فى الفترة التى تقع ما بين عهد الإمبراطور سيفيروس الإسكندر Severus Alexander (٢٢٢ - ٢٣٥ م) ، وتولى دقلديانوس العرش ، فقد انتشرت الفوضى ، وكثرت محاولات استقلال الولايات نتيجة لضعف السلطة المركزية ^(٦) ، ولم تلعب مصر دوراً يذكر فى أحداث هذه الفترة .

(١) عن المناقشات حول هذا الأمر انظر : Rostovtzeff, op. cit. p. 418 . وكذلك . بل : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(3) Lewis, op. cit. p. 35 .

(4) Bowman, op. cit. p. 44 .

(٥) حملت إلينا إحدى البرديات نص هذا القرار : انظر : P.Giss 40 II, 11. 16 - 29 .

عن تحليل هذا النص انظر : أهر اليسر فرج ، الدولة والفرد فى مصر فى عصر الرومان . ص ١٢٠ ، ١٩٣ .

(٦) يطلق الأستاذ روستوفتزل على هذه الفترة عصر الفوضى العسكرية Military Anarchy ، انظر : Rostovtzeff, op. cit. pp. 432 ff.

وفي منتصف القرن الثالث جلس على عرش الإمبراطورية ديكيوس Decius . ومن أبرز الأحداث في عهده اضطهاد المسيحيين . وبما هو جدير بالذكر أن المسيحية كانت قد أخذت في الانتشار ، وأصبح لها الكثيرون من الأتباع ، ورأت السلطات في الديانة الجديدة تهديداً للدولة (١) . كما شهدت مصر محاولة للاستقلال عن الدولة الرومانية ، ولكن تم القضاء عليها (٢) .

وفي عام ٢٦٩م . تعرضت مصر لغزو خارجي ، جاءها من الشرق ، وكان مصدره مملكة تدمر ، وهي دولة كان مركزها المنطقة التي تقع في الصحراء ما بين سوريا وبابل ، واستطاعت أن تحجز مكانة هامة من خلال سيطرتها على طرق التجارة ، وقد ارتبطت تدمر بالإمبراطورية الرومانية ، وكانت تابعة لها ، ولكنها تمتعت بالاستقلال الذاتي ، واستطاع أحد حكامها ويدعى أديش Odeneathus أن يقدم خدمات للرومان ، فأنعم عليه الإمبراطور جالينوس Galinus بلقب قائد dux ، وبعد وفاة هذا الحاكم تولت زوجته زنوبيا الوصاية على ابنه الطفل ، وكانت امرأة طموحة .

كانت زنوبيا ترغب في تكوين إمبراطورية ، فأرسلت جيشاً للاستلاء على مصر في عام ٢٦٩م . وكانت قد اتفقت مع بعض زعماء السكندريين ، وتمكن جيش تدمر من احتلال مصر ، واضطر الإمبراطور الروماني إلى الاعتراف بوهب اللات ، ابن زنوبيا شريكاً له في الحكم . ولكن الرومان بعد ذلك أعلنوا الحرب على تدمر ، وقاد الإمبراطور الروماني قرأته إلى آسيا الصغرى ، وأرسل أحد قادته ويدعى بروبس Probus ، لاستعادة مصر ، وقد انتصر الإمبراطور أوريليانوس على قوات تدمر ، وأخذ زنوبيا أسيرة إلى روما ، وفي نفس الوقت تمكن قائده من استعادة مصر في عام ٢٧١م (٣) .

(١) كان من نتائج اضطهاد ديكيوس للمسيحيين ، وفاة عالم اللاهوت السكندري أوريجين . انظر : Lewis, op. cit. p. 102 وقد ألزم السلطات الرومانية الأهالي بأن يقدموا شهادات تفيد بقبولهم بتقدم القرايين للأكلية الوثنية . وقد واغتيا أوراق البردي بتماذج لهذه الشهادات . انظر : بل المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٢) مصطفى العيادي : المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(3) Bowman, op. cit. p. 44

وتلى ذلك قيام ثورة ضد الحكم الروماني في مصر ، تولى قيادتها أحد تجار الإسكندرية ، ويدعى فيرموس Firmus ، وكان من بين الذين ساعدوا زنوبيا على احتلال مصر (١) ، واضطر الإمبراطور أورليانوس إلى الحضور بنفسه لقمع الثورة (٢) . وبعد وفاة الإمبراطور أورليانوس انتهزت القوات الرومانية في مصر هذه الفرصة ، وتادت بقائدها بربوس إمبراطوراً ، واستطاع هذا القائد أن يتربع على عرش الإمبراطورية لمدة خمسة أعوام ، إلى أن قتل على يد أحد الجنود في عام ٢٨٢م ، وعمت القوضى أرجاء الإمبراطورية لمدة عامين ، حتى تمكن دقلديانوس من تولى العرش في عام ٢٨٤م . وبعد عهده بداية لمرحلة جديدة ، ليس في تاريخ الإمبراطورية الرومانية فحسب ، بل في تاريخ البشرية جمعاء (٣) .

(١) آمال الروم : المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٣) أدخل دقلديانوس تغييرات جذرية على نظام الإمبراطورية الرومانية ، فقسمها إلى قسمين ، وكان ذلك بداية لانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى دولتين إحداهما هي الدولة الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية ، أما الأخرى فقد ظلت عاصمتها روما القديمة في الغرب ، كما أدخل نظاماً جديداً لشغل العرش ، وبعد عهد دقلديانوس نهاية للمعصر القديمة ، وبداية للمعصر الوسطى ، وقد صالغ الأستاذ جونز Jones هذه المرحلة الانتقالية في كتاب له بعنوان " أفول العالم القديم " . وقدم عرضاً طيباً للإصلاحات التي أدخلها دقلديانوس على الدولة الرومانية ، الحق به قائمة مفصلة باقتراحات التحديث التي أجريت حول إصلاحات دقلديانوس انظر :

حضارة مصر في عصر الرومان :

السلطة المركزية :

ورث الرومان عن البطالة جهازاً بيروقراطياً كبيراً^(١)، إلا أن هذا الجهاز كان قد تفشى فيه الفساد والتسيب ، وهو ما نراه ظاهراً في المصادر التي ترجع إلى أواخر حكم البطالة ، وقد عمل الرومان على إصلاح الجهاز الإداري ، وإدخال تعديلات تلائم أهداف الحكم الجديد^(٢).

يأتى الوالى الرومانى على قمة الإدارة العسكرية والمدنية ، ويستمد سلطاته من كونه يمثل الإمبراطور فى الولاية^(٣) ، وبالنسبة لسكان مصر كان الوالى فى نظرهم يحتل مركز الملك ، وهى الحقيقة التى ذكرها بعض الكتاب القدامى ، مثل استرابون وتاكيوس ، حين قالوا أن مصر فى عصر الرومان حكمها رجال لهم منزلة الملوك^(٤) . وكان الوالى الرومانى فى مصر يسلك مسلك الملوك القدامى ، فلم يكن يبحر فى السيل فى زمن الفيضان^(٥) ، وكان يذهب مع حاشيته إلى جنوب مصر ، حيث المكان الذى كان يعتقد أن النيل ينبع منه ، ويقوم بإلقاء هدايا من الذهب والفضة ، طلباً للبركة وتعبيراً عن العرقان للنيل^(٦).

ويعتضى سلطة الإمبريوم التى كان يسمح بها الوالى الرومانى ، فإنه كان ينولى قيادة القوات الرومانية ، التى تعسكر فى مصر^(٧) . وقد واقتنا إحدى البرديات التى ترجع إلى عهد الإمبراطور تراچان^(٨) ، بصورة للمكاتب التى كان يشتمع بها الوالى الرومانى فى مصر ، فكانت الجساهير تصطف لتحيته كل صباح ، ويتلقى الشكاوى والالتزمات ، ومن حقه

(1) Goodman, M, The Roman World P 266

(2) Rostovtzeff, M, Social and Economic History of the Roman Empire. p. 285

3) Remmuth, op. cit. p. 2 .

(4) Tacitus Hist. I, 11, Strabo, 17, 797, 818 .

(5) Pliny N. II, 5 37

(6) Remmuth, op. cit. p. 3

(7) Remmuth, op. cit. pp 119 - 126

(8) P Oxy 471

إصدار الأحكام بالإعدام ومصادرة الممتلكات ، وكان يتأخر على محكمة في البلاد ، وهي محكمة الوالى .

ولم يكن من عادة الولاة تسجيل إنجازاتهم فى النقوش ، مع استثناء ذلك التصرف الذى أقدم عليه كورنيليوس جالوس ، أول الولاة فى عصر أوغسطس ، الذى استرحب تقديمه للمحاكمة . وكان اسم الولاة عادة ما يذكر مرتبطاً باسم الإمبراطور .

وعندما كان الولاة يقوم برعاية بعض المناطق فى مصر ، كان يستقبل بحفاوة ، ويجرى تزيين تماثيل الآلهة ، وتقام المهرجانات احتفالاً بمقدمه ، ولا يغيب عن بالنا أن الولاة هو ممثل الإمبراطور ، وكان الإمبراطور هو الملك الشرعى ، وفرعون مصر ، وقد رسم على المعابد كما كان البطالمة يمثلون من قبل ، فى زى الفراعنة ، على رأسه التاج المزودج لمصر العليا والسفلى وأمامه اسمه محفوراً على خرطوشه بالهيراغليفية (١) .

وكان الأباطرة يحرصون أشد الحرص ، ألا يتولى منصب والى مصر أحد الأشخاص لفترة طويلة ، حتى لا يتحول إلى مركز قوة ، وكانوا يرسلون من يشقون فيهم من رجالهم لتولى هذا المنصب الحساس ، وقد ذكرنا من قبل أن كورنيليوس جالوس ، أول الولاة ، كان من الرجال المقربين لأوغسطس ، كما كان أقيلبيوس فلاكوس Avithus Flaccus فى الأصل صديقاً للإمبراطور تيبيريوس (٢) .

ومن الملاحظ أن أهمية منصب والى مصر ، أخذت فى الانخفاض بعد أن قلت موارد مصر الاقتصادية ، ولم يعد ينظر إلى والى مصر باعتباره متميزاً عن غيره من الولاة فى الإمبراطورية ، وتوارى الخوف من إسناد هذا المنصب إلى رجل من طبقة السناتو ، وكان الإمبراطور ماكزيتوس أول من أقدم على هذه الخطوة ، حين قام بتعيين أحد رجال طبقة السناتو فى منصب والى مصر . بل إن الإمبراطور سفيروس الإسكندر حين رغب فى معاقبة أحد قادة الحرس البريتورى ، قام بتعيينه والياً على مصر ، وعلق المؤرخ ديون كاسيوس على هذا الأمر قائلاً " حيث أن هذا هو المكان الذى يحرم مثل هذا الرجل ، من أن يكون لديه فرصة فى أن يصبح مصدراً للإزعاج " (٣) .

(١) بل : المرجع السابق ، ص ٩٤

(2) Refamuth, op. cit. p. 6

(3) Dio Cassius 80. 2

وعند تعيين والٍ جديد ، كان على الوالى أن يظل فى مصر حتى دخول الوالى الجديد (١) ، وفى حالة خلو المنصب لأسباب طارئة ، يتم اختيار واحد من كبار الموظفين فى الولاية ، لتصرف الأمور حين وصول الوالى الجديد من روما .

كان الوالى يترأس الجهاز الإدارى فى البلاد ، وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم ، هى إقليم طيبة (مصر العليا) ، وإقليم المديرية السبعة وأرسنوى (مصر الوسطى) ، ثم إقليم الدلتا ، وعلى رأس كل إقليم من هذه الأقاليم موظف يدعى إستراتيجوس Epistratogus وكان هذا الموظف يتم اختياره عن طريق الإمبراطور ، ولابد أن يكون مواطناً روماناً (٢) .

وقد انقسمت الأقاليم إلى وحدات أصغر هى المديرية nome ، وعلى رأس كل مديرية موظف حمل لقب الاستراتيجوس Strategos ، وكان الوالى هو الذى يعين الاستراتيجوس (٣) كما كان الوالى يقوم بتعيين مدير إدارة السجلات فى المديرية ، والذى ظل يحمل اللقب القديم منذ عصر البطالة ، وهو لقب الكاتب الملكى Basilko grammateus .

وكان يوجد إلى جانب الوالى فى الإسكندرية مجموعة من معاونين ، يختص كل واحد منهم بأحد القطاعات ، فكان من بينهم " اليوريد يكوس " iuridicus (٤) ، وكان يختص من الرومان المنتهين إلى طبقة الفرسان ، ولا نستطيع أن نتبين بصورة واضحة مهام هذا الموظف ، ولكن من الجائز أنها كانت تتضمن بعض اختصاصات وزير العدل ، وهناك موظف قضائى آخر يطلق عليه الأرخى ديكاستيس Archidikastes (٥) . كما كان يوجد مساعد آخر للوالى مهمته الإشراف على حفظ الوثائق والسجلات ، ويدعى كاتب الوثائق Hypomnematogra-phos ، وكان عليه أن يعد كافة الوثائق التى يحتاج إليها الوالى ، وكان مساعد الوالى فى البداية من الشئون المالية ، يحمل اللقب البطلمى القديم وهو الديويكتيس Dioketes . وفى منتصف القرن الثانى آلت السلطة التى كان يمارسها الوالى فى النواحي المالية ، إلى إدارة جديدة هى إدارة الحساب الخاص - الإديوس لوجوس - Idios Logos .

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٧٦

2) Rostovtzeff, op. cit. p 286

(3) Reinmuth, op. cit. p. 11

(٤) المعنى الحرفى لهذا اللقب هو : " القاضى " .

(٥) بل : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

كان الوالى يشرف إشرافاً كاملاً على الشئون الدينية ، وكانت موارد المعابد تخضع لرقابته ، ومن المعروف أن أوغسطس صادر أسلاك المعابد ، وحولها إلى أسلاك الدولة^(١) ، ولكن لم يلبث الإشراف على المعابد أن انتقل إلى موظف حمل لقب الكاهن الأعلى Archiereus ، مع إنه لم يكن كاهناً ، بل موظفاً مدنياً رومانياً الجنسية^(٢) . وعلى أية حال فإن الإشراف على المعابد انتقل بعد ذلك إلى سلطة مدير الحساب الخاص (الإيديوس لوجوس)^(٣) .

وقد امتدت سلطة الوالى على الأفراد ، لكن تشمل ضرورة الحصول على موافقته عند مغادرة البلاد ، فقد كانت مداخل مصر ومخارجها تخضع لرقابة شديدة ، وكانت مسألة السفر أمراً مستحيلاً ، بدون الحصول على موافقة الوالى ، ومن سلطته أن يقوم بتوقيع العقوبة على من يغادرون البلاد دون إذنه^(٤) .

كان الوالى يقوم بتصريف شئون الولاية عن طريق المراسلات ، فكان يلقى تقارير مفصلة عن كافة مظاهر النشاط فى أرجاء مصر ، فهناك تقارير عن الضرائب والتعداد وتسجيل الملكية ، وسجلات المواليد والوفيات ، وتعاريف عن مصادر دخل الدولة ، كما كان يتلقى الالتباسات من الأهالى ويقوم بتحويلها إلى جهات الاختصاص^(٥) .

وكان الوالى يصدر المراسيم^(٦) المختلفة ، وكانت اللغة التى تصدر بها المراسيم هى اللغة الإغريقية ، وبعض تلك المراسيم كانت تصدر بصفة روتينية ، مثل المراسيم الخاصة بإجراء

(1) Rostovtzeff., op. cit. 286 .

(٢) بل : المرجع السابق ، ص ٩٧

(3) Reinmuth, op. cit. pp. 27 - 28

(4) Reinmuth, op. cit. pp. 32 - 33

جمدت لنا إحدى الوثائق البيروية من مجموعة بردى أوكسييريخوس طلباً مقدماً من أحد الأفراد ، للسماح له بالسفر عن طريق جزيرة فاروس ، ويوجد على البيروية توقيع الوالى بالسماح له بالسفر . انظر :

P.Oxy. 1271

(5) Reinmuth, op. cit. pp. 24ff

(٦) قسم رايموث حصراً شاملاً للمراسيم التى أصدرها الولاة الرومان فى مصر انظر : Reinmuth, op. cit.

pp. 140 - 143

التعداد ، ومن المعروف أن الإدارة الرومانية في مصر كانت تقوم بإجراء تعداد للسكان Census ، كل أربعة عشر عامًا^(١) . كما كانت هناك مراسيم تصدر في ظروف خاصة ، مثل المراسيم التي كان يصدرها الولاة لحض الهاربين على العودة إلى مواطنهم ، وكانت هذه المراسيم في العادة تحتوي على قرارات تفضي بالإعفاء عن الهاربين ، وتخفيف الأعباء المفروضة عليهم ، والتي كانت تؤدي إلى هروبهم^(٢) .

وكانت قرارات الولاة عادة ما تتضمن عبارات مثل " طبقاً لمشيئة أوغسطس المؤله " أو " إن أوغسطس المؤله قد أمر " . وكان الأباطرة يستندون إلى تقارير الولاة ، في كل ما يصدرونه من قرارات تتعلق بالولايات ، وكان من حق الأهالي رفع شكاواهم إلى الإمبراطور مباشرة

ولما كان من المعروف شدة حرص الرومان على الحصول على أكبر قدر ممكن من دخل ولاية مصر ، فإن الإشراف على الشئون المالية كان من أهم واجبات الوالي ، وبطراً لأن مصر كانت تمثل أهمية قصوى كمصدر للفلال للإمبراطورية ، فإن الفلال التي كان يجرى شحنها إلى روما ، كانت في معظمها من الضرائب المقررة على مصر ، وكان الإشراف على الضرائب من أولى المهام التي أنيطت بالوالي في مصر .

كان الوالي هو الذي يحدد مقدار الضريبة التي يتم جبايتها ، في ضوء التقارير التي ترد إليه ، ويذكر الكتاب فيلون أن الوالي كان ينفق معظم وقته في مراجعة تقارير الضرائب في المديرية^(٣) . أما مقدار الضريبة الذي كان على الولاية أن تدفعه إلى روما ، فإن الإمبراطور هو الذي يحدده ، وذلك بناء على التقارير التي يتلقاها من الوالي^(٤) .

وكان الوالي يتمتع بسلطة مطلقة في تقدير الضرائب داخل مصر ، ولكن يحد من هذه السلطة تدخل الإمبراطور ، الذي كان يعد السلطة الوحيدة التي تملك الحق في تقرير الإعفاء

(١) بل : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) من أشهر تلك المراسيم ، مرسوم الوالي فيبيوس ماكسيموس Vibius Maximus من عام ٩٤ ، وكذلك مرسوم الولي ليبراليس Libralis في عام ١٥٤ ، انظر : أبر اليسر فرج الدولة والفرد ، ص ١٨٣ - ٢٠٣ .

(٣) Photo. In Place 16

(٤) Reinmuth, op. cit. pp. 1511

الضريبي . أما فيما يخص الخدمات الإلزامية ، فإن الوالى لم يكن يتدخل فى هذا المجال خلال القرنين الأول والثانى ، ولكن القرن الثالث شهد إشراقاً كاملاً للوالى على نظام الخدمات الإلزامية (١) .

وكان الوالى يقوم بجولات تفقدية فى أقاليم مصر ، بشكل دورى ، يعقد خلالها جلسات المحكمة التى كانت تعد أعلى سلطة قضائية ، وهى محكمة الوالى Conventus . وكسنت تتمعد ثلاث مرات فى العام ، مرة فى بيلوزيوم للنظر فى قضايا شرق الدلتا ، ومرة فى الإسكندرية للنظر فى قضايا غرب الدلتا ، أما المرة الثالثة فكانت تتمعد فى منف ، للنظر فى قضايا باقى الأقاليم (٢) . ولكن ليس هناك ما يمنع من قيامه بمعقد هذه المحكمة بشكل استثنائى فى أماكن أخرى (٣) .

النظم المالية والاقتصادية :

كانت العنائم التى استولى عليها أوكتافيانوس (أغسطس) من مصر ، بعد أن هزم أنطونينوس وكليوباترة ، كبيرة لدرجة جعلته قادراً على تلبية مطالب جنوده ، وأدت كذلك إلى زيادة ثروته الشخصية هو وأتباعه ، وقد أدى تدفق ثروات مصر على روما إلى ارتفاع الأسعار (٤) .

قامت سياسة الرومان المالية والاقتصادية فى مصر على مبدأ أساسى ، وهو الحصول على أكبر قدر ممكن من دخل هذه الولاية ، وقد تطلب تحقيق هذا المبدأ القيام بجهود شاقة ، من أجل إصلاح مرافق البلاد التى لحقها التدهور فى السنوات الأخيرة من حكم البطالمة ، فقامت الإدارة الرومانية بإجراء إصلاحات شاملة لشبكة الري ، وعملت على تطهير القنوات والترع والمصارف ، وإعادة بناء الجسور التى تهدمت . وقد أدت هذه الجهود إلى إنعاش الاقتصاد المصرى ، وكان من شأن ذلك مساعدة الإدارة الرومانية فى الحصول على مستحققاتها لدى الأفراد ، وهو أمر لا يتحقق إلا من خلال نظام دقيق لجباية الضرائب .

(1) Remmuth, op. cit. p. 59

(٢) بل : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٣) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق . ص ١٧٤ - ١٧٥

(4) Johnson, Allan Chester, Roman Egypt to the Reign of Diocletian Baltimore. 1936 p 481 .

الضرائب :

قام نظام الضرائب في مصر في عصر الرومان على قواعد محكمة^(١)، تستطيع الدولة بمقتضاها أن تحصل على مستحققاتها لدى الأفراد ، وكانت هذه المستحققات تشتمل على ضرائب ورسوم مختلفة ، عن الممتلكات والأفراد ، والنشاط المالى والتجارى ، وإلى جانب الضرائب الثابتة كانت هناك ضرائب استثنائية ، ترتبط بظروف خاصة^(٢).

كانت هناك بعض الضرائب التى تجبى نقداً ، البعض الآخر يجبى عيناً . وفيما يتعلق بالتزامات مصر العينية تجاه الإمبراطورية ، فمن المعروف أن مصر كانت قد روما بثلاث احتياجاتها السنوية من القلال^(٣) ، كما كان يتحتم عليها إطفاء جيش الاحتلال الرومانى المرابط على أراضيها . وللوفاء بذلك كان على المزارع أن يدفع أردباً عن كل أروة^(٤) ، كضريبة نوعية عن الأرض التى تزرع حبوباً ، ولكن فى بعض الأحيان كان المزارع يدفع أكثر من هذا القدر ، فى حالة الأراضي العنابية المخصصة ، والتى كانت تغل مقداراً أكبر من المحصول .

كانت الإدارة تحرص على عدم بقاء أى قطعة أرض دون زراعة ، لأن بقاءها على هذا النحو يعنى عدم جباية ضرائب منها ، لذلك فإن الأراضي التى لم يكن يتقدم أحد لاستئجارها ، أو أن يهرب مزارعوها ، كانت الدولة تلزم سكان القرية بزراعتها ، على أن يسددوا الضرائب المستحقة عليها إجبارياً ، بشكل تضامنى .

كان على المزارع بعد حصاد المحصول ، أن يقوم بتسليم ما عليه من مستحققات للدولة إلى أمثاء مفسازن القلال Sitologoi ، الذين كانوا يكلفون بالقيام بهذا العمل بصورة

(١) يعد كتاب ولانس Wallace هو المرجع الرئيس عن الضرائب في مصر في عصر الرومان ، انظر .

Wallace, S.L.; Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian, Princeton, 1938 .

راجع كذلك الفصل الذى كتبه جونسون 552 - 481 pp. Johnson, op. cit. ، ولكن الفصل الذى كتبه

لويس هو الأحدث فى هذا المجال ، انظر : 176 - 159 pp. Lewis, op. cit.

(2) Rostovtzeff, op. cit. p. 483 .

(3) Johnson, op. cit. p. 481 .

(4) الأروة أربعة أخماس الفدان .

الإزامية^(١)، ولم يكونوا يتقاضون أجراً مقابل قيامهم بهذا العمل ، وكان على أمراء مخازن الغلال ومساعدتهم ، أن يشرفوا على تسليم الغلال إلى معسكرات الجيش ، أو إلى المخزن العام بالقرب من الإسكندرية . وكانت هناك ضرائب مقررة على المحاصيل الأخرى مثل الكروم والفاكهة والنخيل والزيتون^(٢) . وفيما عدا الكميات التي كان يتم تسليمها إلى معسكرات الجيش ، كان يتم تحصيل مقدار هذه الضرائب نقداً .

ولم تكن الحيوانات التي يملكها المزارع تسلم من تحصيل ضرائب عنها ، لذلك كان ينبغي على المزارع أن يقدم تقريراً سنوياً عن عدد الحيوانات التي بحوزته ، حتى يتأكد جباة الضرائب من عدد الحيوانات التي تولد في كل عام ، ويتمكنوا من تحصيل الضرائب المستحقة عليها .

والى جانب الضرائب التي تجبى في مجال الزراعة والثروة الحيوانية ، كانت هناك ضرائب تجبى على الأفراد ، لعل أشهرها ضريبة الرأس Laographia^(٣) . وكان يجب على جميع سكان مصر من الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والستين أن يؤدوها . إلا أن بعض الفئات كانت تتمتع بحق الإعفاء من أداء هذه الضريبة ، مثل الذين يتمتعون بالمواطنة الرومانية ، ومواطنو مدينة الإسكندرية ، وأعضاء المعهد العلمي بالإسكندرية ، وخريجي معاهد الجنائزوم ، وعدد من الكهنة من دوى المكانة الخاصة ، وبعض أصحاب المهن . أما سكان عواصم المديريات Metropolitai ، فإنهم كانوا يؤدونها بقيمة مخفضة^(٤) .

وقد وجدت ضريبة أخرى يدفعها الأفراد ، وهي ضريبة الجسور Chomatikon ، وكان مقدارها واحداً في جميع أرجاء البلاد ، وكان الهدف من جبايتها ، الاتفاق على صيانة الجسور وتنظيم عمليات الرى . وهناك ضريبة أخرى مقدارها درختان لكل فرد ، وهي ضريبة الخنازير ، كان الغرض من تحصيلها إمداد المعابد الإغريقية بالحيوانات اللازمة للأضاحي .

(1) Johnson, op. cit. p. 490

(2) Johnson, op. cit. p. 490

(٣) تعد هذه الضريبة من أهم الضرائب التي فرضها الرومان في مصر ، لأنها كانت ذات مدلولات سياسية واجتماعية على قدر كبير الأهمية ، إضافة إلى كونها من المصادر الهامة لدخل الدولة ، وكانت هذه الضريبة محوراً لدراسة لدوجة الماجستير . انظر : محمد فهمي عبد الباقي : ضريبة الرأس في مصر الرومانية . رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٧٩ م ، راجع القوائم التي أوردها الباحث ص ٢٦٤ ، ٢٧٢ .

(4) Wallace, op. cit. pp. 116 - 39

فرضت الإدارة الرومانية ضرائب على أصحاب الحرف ، وكان ينبغي على كل فرد أن يؤدي ضريبة الحرف ، سواء أكان رجلاً أو امرأة ، طالما إنه يؤدي عملاً يتقاضى في مقابلته أجراً ، وكان على الصبية الذين كانوا ما يزالون في مرحلة التدريب ، أن يدفعوا هذه الضريبة ، إذا بلغ الواحد منهم الرابعة عشرة من العمر ، وكان يتم تحصيل هذه الضريبة من أصحاب كل حرفه على حدة ، وقد اختلف مقدارها من فترة لأخرى ، وتراوحت قيمتها من منطقة لأخرى . وكان على صاحب العمل أن يقوم بإبلاغ السلطات ، عند انتهاء أحد الصبية من مرحلة التدريب ، وتقليد هذا الصبي العمل ، حتى يتم إدراج اسمه في قوائم الضريبة التي يدفعها العاملون . وكان على العامل أن يبلغ السلطات في حالة انتقاله لممارسة عمل آخر ، سواء أكان هذا الانتقال بصفة دائمة أو مؤقتة^(١) .

أما الأشخاص الذين كانت طبيعة عملهم تتطلب التنقل من مكان إلى آخر ، فكان يتحتم عليهم أن يحصلوا على تصريح من جابي الضريبة في موطنهم ، يسمح لهم بالتواجد في أماكن أخرى^(٢) .

وقد فرضت الإدارة الرومانية ضريبة إضافية على الأهالي ، لتعويض النقص الناجم عن وجود بعض الأشخاص الذين يعجزون عن دفع الضريبة لكونهم معدمين Aporoi ، أو بسبب هروب البعض الآخر ، دون أن يتركوا وراءهم ممتلكات يمكن للدولة مصادرتها ، حتى تتمكن من تحصيل مستحققاتها لدى الهارب وكان مقدار العجز الذي يشترط على وجود مثل هذه الحالات ، يجرى توزيعه على باقي سكان القرية ، ويختلف هذا المقدار حسب أعداد الهاربين .

وقد خضعت الأنشطة المالية والتجارية للضرائب ، وكان يتم فرض رسوم عند تسجيل الوثائق في دار السجلات ، وهناك ضرائب كان يتم تحصيلها عن عمليات البيع بواقع ١٠٪ ، وعن الرهن بنسبة ٢٪ . وحتى الحيوانات التي كان الأهالي يقدمونها قرباناً للآلهة ، لم تكن تسلم من تدخل الدولة التي كانت تحصل على نسبة منها .

وقد فرضت ضرائب كان الهدف منها إمداد جيش الاحتلال الروماني المربط في مصر ، بحاجته من العلاء والوقود والعلف وملابس الجنود ، ولم يكن مقدار هذه الضرائب محدداً ، بل

(1) Lewis, op. cit. p. 171 .

(2) Lewis, op. cit. p. 172 .

كان الأمر يترك لرجال الجيش لتقدير مدى حاجتهم ، وفى غالبية الأحيان كانت المعسكرات تشتت في مطالبيها (١).

ولم يقتصر الأمر على إمداد جيش الاحتلال الرومانى فى مصر بحاجته ، بل كان على دافعى الضرائب فى مصر ، أن يقدموا ما يطلب منهم لمساعدة جيش الإمبراطورية فى الحروب التى كان يخوضها . وكان على الأهالى أن يقدموا بتحويل الزيارات التى كان يقوم بها كبار الزوار الرومان لمصر ، بما فى ذلك زيارات الأباطرة وأفراد عائلاتهم ، كما كان عليهم أيضاً تحويل الزيارات التى كان يقوم بها الوالى وحاشيته فى أرجاء البلاد .

جباية الضرائب :

قامت جباية الضرائب فى مصر فى عصر الرومان فى البداية على نظام الالتزام (٢) ، وهو ما يعد استمراراً للنظام الذى كان معمولاً به فى عصر البطالمة ، حيث كان يشتر فى المزارع فى كل عام جباية كل ضريبة على حدة ، فى منطقة فى الأغلب لم تكن تزيد عن مديرية واحدة ، ويرسو المزارع على من يضمن للدولة الحصول على أكبر قدر ممكن من حصة الضريبة .

وكان يتعين أن يكون للمتقزم ضامنون ، وأن يقدم المتقزم وضامته ممتلكاتهم رهناً للوفاء بالتزاماته ، والحقيقة أن معلوماتنا عن نظام الالتزام فى عصر الرومان قليلة للغاية . ويبدو أن الدولة اضطرت بعد ذلك إلى فرض التزام جباية الضرائب على الأفراد ، مما كان يؤدي إلى هروب المتقزمين فى كثير من الأحيان . بيد أن نظام الالتزام أخذ يختفى شيئاً فشيئاً ، وأسندت جباية الضرائب إلى موظفين كان يجرى تكليفهم للقيام بهذا العمل ، بشكل إلزامى ، وكان جباة الضرائب المكلفين يلتزمون بتعويض النقص الذى ينتج فى بعض الأحيان من أفعالهم الخاصة ، ولكن فى عهد الإمبراطور تراچان (٩٨ - ١١٧م) تقرر إلزام كل سكان القرية بأن يتضامنوا فى سد العجز الذى قد يترتب على عملية الجباية .

وكان الوالى هو الذى يشرف على عملية الجباية بأكملها (٣) . ويقوم بمراجعة الموازنة العامة فى أثناء زيارته للمدريات ، ويقرأ التقارير التى يقدمها له المسئولون فى المديرية . ولكن

(١) والتنا إحدى الوثائق البردية بشكوى تقدم بها بعض الأهالى ، بسبب الإهراق الذى كانوا يعانون منه ، لإجبارهم على تقديم حاجات معسكرات الجيش الرومانى . انظر : P Oxy. 705

(2) Wallace, op. cit. pp. 288 - 9

(3) Reinmuth, op. cit. p. 63 .

الإمبراطور هو الذى يقرر مقدار الضريبة المستحقة على الولاية . استناداً إلى تقارير الوالى ، ومن حقه أن يمنح البعض إعفاءات من الضرائب ، كما كان الوالى يتمتع بنفس الحق ولكن فى حالات إستثنائية .

حدثتنا بعض المصادر عن الوسائل التى كان يلجأ إليها بعض جباة الضرائب ، من أجل انتزاع مستحقات الدولة لدى الأهالى ، فقد أشار الكاتب اليهودى فيلون إلى بعض هذه الوسائل التى كان يلجأ إليها الجباة فى القرن الأول الميلادى ^(١) . قائلاً أن جابى الضريبة فى إحدى المناطق حين وجد أن بعض دافعى الضرائب قد هربوا ، دون أن يدفعوا ما عليهم ، اتجه إلى زورجاتهم وأطفالهم وأقاربهم فسامهم سوء العذاب ، وطرح بعضهم أرضاً ، وأخذ يضربهم ويطأهم بأقدامه ، بل إنه لم يتورع عن قتل بعضهم ، فإذا لم يجد أقارب للهارب ، فإن الأذى ينتقل إلى الجيران ، وقد يشمل سكان القرية جميعاً .

ويستطرد فيلون فى موضع آخر ^(٢) ، فيصف بشاعة الأساليب التى كان يلجأ إليها جباة الضرائب ، الذين لم يرحموا حتى الموتى ، ودفعتهم صفاقتهم إلى الاعتداء على جثث الموتى ، حتى يجبروا أقاربهم على دفع ما هو مستحق عليهم من ضرائب ، وإزاء بشاعة هذه الأساليب ، وعجز الأهالى عن الوفاء بالتزاماتهم ، فلا عجب أن يؤدى ذلك إلى هروب الأهالى من مواطنهم ، وخلق بعض القرى من السكان ^(٣) .

الخدمات الإلزامية :

إذا كانت هناك ضرائب يؤديها الأهالى عيباً أو نقداً ، فإن هناك التزامات كان عليهم أن يؤدونها من خلال جهودهم وممتلكاتهم ، من خلال ما يعرف بنظام الخدمات الإلزامية *Leitourgia* ^(٤) . ومن المعروف أنه فى بعض الممالك الشرقية فى العصور القديمة ، كان من

(1) Philo, De Specialibus Legibus. LII, 159 - 63 .

(2) Philo, Spe. Leg. 94-5 .

(٣) عن الضرائب باعتبارها من أسباب هروب الأهالى من مواطنهم . انظر : أبو اليسر فرج : المرجع السابق ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٤) نشر الأستاذ لويس العديد من الأبحاث حول الخدمات الإلزامية ، كما نشر مجموعة من أوراق البردى حول هذا الأمر هى *Leitourgia Papyri* إلا أننا نكتفى بإحالة القارئ إلى الفصل الذى أورده هذا الباحث فى كتابه الذى رجعنا إليه فى مواضع كثيرة انظر : Lewis, op. cit pp. 177 - 184 .

حق الملوك تسخير رعاياهم لإلحجاز بعض الأعمال التى يتطلبها الصالح العام ، وفى مدينة أثينا كان على المواطنين أن يقدموا بعض الخدمات لصالح المدينة . وكان الرومان منذ عهودهم الأولى يعرفون نظام الواجبات العامة munera ، وعقضى هذا النظام ، كان على الموسرين من المواطنين الرومان ، أن يؤدوا بعض الخدمات للدولة . وحين استولى الرومان على مصر ، وجدوا فيها نظاماً للخدمة الإلزامية ، يرجع إلى عهود سحيقة ، وكان البطاقة قد سبقوهم إلى الأخذ به . وقد أدخل الرومان على هذا النظام تعديلات ، جعلته يختلف عما كان معروفاً فى عصر البطالة^(١) . فامتد لى يشمل كل فئات المجتمع .

ولكن هناك شريحة من الناس تمتعوا باحتياز الإعفاء من الخدمة الإلزامية ، وهم المواطنون الرومان الذين يقيمون فى مصر ، ومواطنو مدينة الإسكندرية ، وسكان عواصم المديريات من الإغريق ، والفنائون فى المسابقات الرياضية ، وأصحاب بعض المهن مثل الأطباء ، والأشخاص الذين يعملون خمسة أطفال ، والمكلفون بتقديم الخدمات للجيش الرومانى ، كما كان يتم إعفاء باقى أفراد الأسرة ، إذا كان أحد أفرادها مكلفاً بإحدى الوظائف الإلزامية . كما تتمتع بالإعفاء أيضاً النساء والجنود القدامى Vetrani ، وبعض الكهنة وكبار السن^(٢) . والذين يعانون من الإعاقة البدنية . وأصحاب الفئة الأخيرة كان يتم إعفائهم من الخدمات التى تعتمد على العمل البدنى ، ولكن هذا لا يمنع من تكليفهم بالأعمال التى تعتمد على الثروة .

ويمكننا أن نفرق بين نوعين من الخدمات الإلزامية ، كان قوام أحدهما العمل اليدوى ، بينما اعتمد النوع الآخر على الثروة . وقد أخذ نظام الخدمات الإلزامية يتطور فى حوالى منتصف القرن الأول ، واتخذ شكله المألوف فى نهاية هذا القرن ومطلع القرن الثانى ، وأخذت وظائف جديدة تخصص لنظام التكليف ، وقد وصل هذا النظام إلى ذروته فى نهاية عهد الإمبراطور تراچان (عام ١١٧) . فقد اتخذ هذا الإمبراطور خطوات واسعة فى مجال الخدمات الإلزامية ، حين جعل أغلب وظائف جباية الضرائب فى أيدي جباة مكلفين .

وقد تمكننا من معرفة أسماء أكثر من مائة وظيفة خضعت لنظام الخدمة الإلزامية . وكان يشغل الوظيفة الواحدة شخص أو أكثر ، وفى القرنين الثانى والثالث كان أصحاب الوظائف

(1) Bowman, op. cit. p. 69 .

(٢) كان سن الإعفاء فى عهد الإمبراطور سيثوريوس ٧٠ عاماً ، انظر P. Flor 382 .

بشغلون وظائفهم ، بالتكليف لمدة عام أو ثلاثة أعوام ، وبعد انتهاء هذه المدة كانت الإدارة تمهل الشخص لفترة من الوقت ، قبل أن تعود إلى تكليفه بوظيفة أخرى ، ولكن هذه القاعدة لم تكن تراعى بدقة ، حيث كان يجرى ترشيح البعض مرة أخرى ، بعد فترة وجيزة من انتهاء شغلهم للوظيفة السابقة ، وفي بعض الأحيان كان يكلف بعض الأشخاص بشغل وظيفة جديدة ، بعد انتهاء شغلهم للوظيفة السابقة مباشرة .

وكان من الضروري التأكد من ثروة كل شخص عند ترشيحه لشغل إحدى الوظائف (١) . وذلك للتأكد من قدرته على النهوض بأعباء الوظيفة ، وكانت ثروات المكلفين تتفاوت حسب طبيعة الوظيفة التي يرشح لشغلها الواحد منهم (٢) . وبمجرد الإعلان عن تكليف شخص بإحدى الوظائف ، توضع ممتلكاته تحت إشراف الدولة ، وفي بعض الأحيان كان يطلب من هذا الشخص أن يحضر ضامناً له ، حتى يمكنها أن تستدير إلى ممتلكات هذا الضامن ، في حالة عجز هذا المكلف أو هروبه . وكانت قوائم المرشحين تقدم لحاكم المديرية (الاستراتيجوس) ، الذي يوافق عليها ويطلب إعلام المرشحين بوقوع الاختيار عليهم .

وفي بعض الأحيان كان يتم ترشيح شخص لا تنطبق عليه الشروط ، كأن يكون متمتعاً بامتياز الإعفاء من الخدمة الإلزامية ، أو أن تكون ممتلكاته دون الحد المطلوب لشغل الوظيفة المرشح لها . وفي هذه الحالة تطلب الإدارة من الموظف الذي قام بترشيحه إيجاد بديل له ، وإذا عجز عن إيجاد البديل ، فإن الإدارة تلزمه هو بشغل هذه الوظيفة ، وإزاء الضغوط التي عانى منها الأهالي بسبب هذا النظام الجائر ، فلم يكن أمامهم من سبيل غير الهروب من مواطنهم (٣) .

(1) Lewis, op. cit. p. 179 .

(٢) أشار الدكتور بومان إلى وثيقة بردية تحتوي على تقرير بمصادرة ممتلكات ١٢٠ شخصاً رفضوا القيام بوظائف إلزامية انظر : Bowman, op. cit. p. 69 .

(٣) من العلاقة بين نظام الخدمات الإلزامية وظاهرة هروب الأفراد من مواطنهم انظر ، أبو اليسر فرح ، المرجع السابق ، ص ١٦٠ - ١٦٤ .

النظم الاقتصادية :

يوجد اختلاف جلى ما بين السياسة الاقتصادية للبطالة والرومان ، فعلى حين حرص البطالة على السيطرة على النشاط الاقتصادى ، وكان الملك هو محور الحياة الاقتصادية ، فإننا نجد أن الرومان حرصوا على تشجيع الاستثمارات الفردية ، وكانت سياسة الإمبراطور أوغسطس ترمى إلى تشجيع الطبقة الوسطى على ممارسة النشاط الاقتصادى ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى خلق طبقة قوية ، لكى تكون قادرة على مساعدة الدولة فى تحمل بعض الأعباء ، وقد أتت هذه السياسة ثمارها المرجوة ، حينما شرعت الإدارة الرومانية فى الاعتماد على نظام الخدمة الإلزامية ، والحقيقة أن الانحياز نحو تشجيع الملكية الفردية يعتبر تحولاً مهماً فى الحياة الاقتصادية فى مصر .

الزراعة :

أولى أوغسطس اهتماماً كبيراً للزراعة فى مصر ، باعتبارها عماد الاقتصاد المصرى عبر العصور ، ويذكر استرابون أن أوغسطس عهد إلى جنوده بإصلاح نظام الري فى مصر (١) . ويستطرد استرابون قائلاً أنه نتيجة لهذه الجهود فإن إنتاج محصول الوفير ، أصبح يتطلب أن يكون ارتفاع منسوب النيل ١٢ ذراعاً فقط ، بعد أن كان يتطلب فى السابق ١٤ ذراعاً ، وبينما كانت مصر فى السابق يمكن أن تتعرض للجفاف إذا كان ارتفاع منسوب النيل ٨ أذرع ، أصبح هذا المنسوب لا يمثل خطراً على البلاد بأى شكل (٢) .

حرص أوغسطس على عدم إدخال تغييرات جوهرية فى نظام الأرض الزراعية ، وما هو جدير بالذكر أن الأرض الزراعية فى عصر البطالة ، كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، أولهما الأرض الملكية ، وهى تلك الأراضى التى كان الملك يستثمرها بشكل مباشر ، عن طريق

(١) Strabo. XVII, 788 .

(٢) كانت الدولة خلال عصر البطالة والرومان تحدد مستحققاتها لدى الأفراد بناء على ما يحدده مقياس النيل ، فتم التفريق بين الأرض الزراعية التى تغطيها المياه خلال موسم الفيضان ، وتلك التى لا تصل إليها المياه . وكان يوجد على مجرى النهر العديد من مقاييس النيل Nilometer أشهرها مقياس إلفنتين فى الجنوب ومقياس منف . عن مقياس النيل انظر : أبو اليسر فرج . النيل فى المصادر الإغريقية ، ص ١٣ - ١٣٤ .

تأجيرها إلى مزارعين ، يتولى الإشراف عليهم موظفو الدولة . أما القسم الآخر فهي تلك الأراضي التي كان الملك يتنازل عنها لآخرين ، لكن يقوموا بزراعتها نظير شروط محددة ، ويشمل هذا القسم أراضي المعابد ، وأراضي الإقطاعيات العسكرية ، وأراضي الهيئات التي كان الملك يختص بها بعض رجال الإدارة المدنية ، بالإضافة إلى شريحة كانت تعرف بأرض الامتلاك الخاص ، والأراضي التي كانت تمنح للمدن الإغريقية في مصر .

وفي عصر الرومان أيضاً انقسمت الأرض الزراعية إلى قسمين رئيسيين ، أولهما أرض الدولة ، أما القسم الآخر فهو أرض الامتلاك الخاص (١) .

أولاً : أرض الدولة :

١ - الأرض الملكية : ge Basilike :

وهي الأرض التي كانت تحمل ذات الاسم في عصر البطالمة ، وقد آلت ملكيتها إلى الدولة الرومانية بعد فتح مصر ، وظل هذا النوع كما كان العهد به في عصر البطالمة . يؤثر في شكل مساحات صغيرة إلى مزارعين يطلق عليهم المزارعون الملكيون georgoi basilikoi ، وكان هؤلاء المزارعون يدفعون إيجاراً عينياً يمثل نسبة من المحصول ، ومن حق مزارع الأرض الملكية أن يحصل على قرض من القلال من صوامع الدولة ، على أن يعيده بعد جني المحصول، بالإضافة إلى الفوائد المستحقة عليه . ويشرف على هذه الأراضي مدير الحساب الخاص (الإديرس لوجوس) (٢) .

٢ - الأرض العامة ge demosia :

لا تعرف على وجه التحديد معنى هذه التسمية ، وأغلب الظن أن هذا الاسم كان يطلق على الأراضي الرملية ، أو الأرض المتاخمة للصحراء ، ويبدو أن غالبية هذه الأراضي كانت ذات إنتاجية منخفضة ، لذلك كان إيجارها منخفضاً أيضاً ، وكانت تخصص للزراعات الخفيفة ، وكانت الدولة تجد صعوبة في إيجاد مزارعين يقبلون القيام بزراعة هذه الأرض ، لذلك كان الموظفون يلجأون إلى إرغام المزارعين على أداء قسم باسم الإمبراطور ، بأنهم سوف

(١) آمال الروم : المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

(2) Johnson, op. cit. p. 26 .

يقومون بزراعة هذه الأرض ، وتأدية الالتزامات المستحقة عليها ، وكان يطلق على هؤلاء المزارعين اسم " مزارعو الدولة " demosioi georgoi .

٣ - أراضي الضياع الإمبراطورية : ge Ousia :

يختلف نظام الضياع في عصر الرومان اختلافاً جليداً عن نظام الضياع في عصر البطلمية^(١) . ففي عصر البطلمية كان الملوك يمنحون كبار موظفيهم ووزراءهم مساحات من الأرض الزراعية ، وكانت هذه الأرض بمثابة هبة ملكية لهؤلاء المعاونين من أجل تشجيعهم على استثمار أموالهم في تلك الأراضي ، وخير مثال على هذه الهبات ، الضيعة التي وهبها بطليموس فيلادلفوس إلى وزير مالىته أبولونيوس

أما في عصر الرومان فقد اختلف الأمر ، فإن أغلب أصحاب الضياع لم يكونوا يقيمون في مصر ، بل كانوا يقيمون في روما ، ولم تكن الضياع تؤزل إلى أصحابها عن طريق الهبة ، وإنما عن طريق الشراء ، وأغلب الظن أن الرومان حينما صادروا أراضي الإقطاعيات العسكرية البطلمية^(٢) ، وأراضي الهبات ، أضافوا إليها تلك الأراضي التي مات أصحابها ، دون أن يكون لهم ورثة . وكان يتم عرض هذه الأراضي في مزاد علني ، حيث يتقدم لشرائها أثرياء الرومان ، وقد شجع أوغسطس آل بيته على شراء تلك الأراضي ، ونحن نعرف على سبيل المثال أن ليفيا Livia زوجة أوغسطس كانت تمتلك ضيعة في قرى الفيوم^(٣) ، وكذلك الأمير جرمانيكوس ، والأميرة أنطونيا ابنة ماركوس أنطونيوس من أوكثاقيا .

كما شجع أوغسطس أصدقاءه وكبار رجال الدولة في عهده ، على شراء الأراضي في مصر ، فنعرف مثلاً أن ماكييناس Maecenas وزير الثقافة في عصر أوغسطس^(٤) ، وصديق الشاعر ثرجيل كانت له ضيعة في الفيوم ، كما كان الفيلسوف سينيكا Seneca معلّم الإمبراطور نيرون يملك ضيعة في إقليم أوكسيرينخوس . ومن ناحية أخرى أقبل أثرياء الرومان

(١) قمت الدكتور آمال الروبي تفصيلات كثيرة حول أراضي الضياع ، وقسمتها إلى عدة فئات انظر : آمال الروبي . المرجع السابق ، ص ١٦٨ - ١٨٠ .

(2) Rostovtzeff, op. cit. p. 294 .

(3) Rostovtzeff, op. cit. p. 292 .

(4) Rostovtzeff, op. cit. p. 293

الذين كانوا يقيمون في مصر على امتلاك أراضي الضياع الإمبراطورية ، وكذلك أثرياء الإسكندرية (١).

لم يلبث الكثيرون من أصحاب الضياع الإمبراطورية أن أخذوا في التنازل عنها للدولة ، مثلما فعل ماكيناس (٢). وآلت ملكيتها إلى الخزانة الإمبراطورية (٣). وفي عام ٦٩ حينما تولى العرش الإمبراطوري قسطنطينوس ، أصدر السنانو قراراً بمنحه كل الأملاك الإمبراطورية. فأصبحت هذه الأراضي ملكاً للإمبراطور بصفة شخصية ، وشكلت قسماً من الأرض العامة التي تمتلكها الدولة (٤).

ويتم استغلال أراضي الضياع عن طريق تأجيرها إلى مزارعين ، يطلق عليهم مزارعو الضياع Osiakoi gergot ، وكان باستطاعة المزارع أن يستأجر أراضٍ في أكثر من ضيعة ، وقد فرضت على أراضي الضياع نوعان من الضرائب ، أولاهما ضرائب عينية ، كانت تفرض على الأرض التي تزرع غلالاً ، أما النوع الثاني ، فهي الضرائب النقدية ، التي كانت مقررة على حدائق الفاكهة .

٤ - أراضي المعابد ge hieratike :

من المعروف أنه في عصر البطالمة كانت في حوزة المعابد مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية ، وقد ازدادت مساحات هذه الأراضي في الشطر الثاني من عصر البطالمة . وعندما فتح الرومان مصر ، رأى الإمبراطور أوغسطس أن تمتع المعابد بملك المساحات الكبيرة من الأراضي يضع تحت أبدي الكهنة موارد جمّة . مما يؤدي إلى تعاطف دورهم في المجتمع ، فقرر أن يعمل على تقليم أظافر الكهنة ، فأمر بمصادرة أراضي المعابد (٥) ، وجعلها ملكاً للدولة ،

(1) Rostovtzeff, op. cit. p. 287 .

(2) Johnson, op. cit. pp. 26, 78 .

(٣) على الرغم من ذلك فقد ظلت هذه الأراضي لقرن من الزمان تحمل اسم ملاكها السابقين انظر :

Lewis, op. cit. p. 74

(٤) بل، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٥) بل : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

وتقرر وضعها تحت إدارة مدير الحساب الخاص (الأيديوس لوجيوس) ، الذى تولى منصب رئيس الكهنة فى مصر أيضاً^(١) . ولكن الدولة لم تشأ حرمان الكهنة كلية من الأرض الزراعية فخصصت بعض المساحات للاتفاق على شئون العبادة^(٢) .

٥ - أراضي المستنقعات ge Limintike :

كانت هذه الأراضي ذات إنتاجية منخفضة ، وتقع غالبيتها فى الدلتا^(٣) . ونظراً لانخفاض إنتاجيتها ، فإن الضرائب والإيجارات المقررة عليها كانت منخفضة أيضاً .

٦ - أراضي الدخل ge Prosodos :

ليس من المعروف على وجه التحديد طبيعة هذا النوع من الأراضي ، ولكن بما يستلقت النظر ، أن الضرائب المستحقة عليها كانت مرتفعة نسبياً ، وتشبه إلى حد كبير تلك التى كانت مقررة على الأرض الملكية ، وربما كانت هذه الأرض هى تلك المساحات التى تقوم الدولة بمصادرتها بسبب فشل أصحابها فى أداء التزاماتهم ، حيث كان يتم وضعها تحت إشراف مدير الحساب الخاص لبعض الوقت ، حتى يتم حسم أمرها ، وتوضع تحت تصنيف آخر من الأراضي.

ثانياً : أراضي الامتلاك الخاص ge idiotike :

يعتبر هذا النوع من الأراضي من المعالم البارزة للسياسة الزراعية للرومان فى مصر ، فهى تتسق مع سياستهم الاقتصادية التى ترمى إلى تشجيع الملكية الخاصة . وكانت هذه الأراضي تعد ملكية خاصة للأفراد ، ومن حقهم التصرف فيها بالبيع والرهن والتوريث ، وكانت الضريبة المقررة عليها مقدارها أردب عن كل أرورة ، وكان من حق أصحاب هذه الأراضي أن يؤجروها لآخرين ، طبقاً لعقود يتم إبرامها بين الطرفين ، تحدد فيها حقوق كل طرف ، وقد نص فى بعض هذه العقود على تحديد نوعية المحصول ، الذى ينبغي زراعته فى الأرض ، ولكن فى أحيان أخرى كان للمستأجر مطلق الحرية فى زراعة الأرض كيفما يشاء ، وكان للنساء الحق فى تملك بعض المساحات من الأراضي التى تنتمى إلى أراضي الامتلاك الخاص .

(١) مصطفى العبدى : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

(2) Johnson, op. cit. pp. 26 .

(2) Johnson, op. cit. pp. 27 .

وكان من حق مزارعى أرض الامتلاك الخاص الحصول على قروض من صوامع الغلال التى تمتلكها الدولة ، ومن حقهم أيضاً أن يطلبوا تخفيض الضرائب المقررة عليهم ، فى حالة عدم وصول مياه الفيضان إلى أراضيهم .

وبالإضافة إلى الأراضى التى كان يمتلكها الأفراد ، كانت هناك أراض خاصة بالمدن ge Politike^(١) ، وهى التى كانت تسمتع بها المدن الإفريقية فى مصر ، والتى كانت موجودة منذ العصر البطلمى ، وقد زادت عندما أضاف الرومان مدينة رابعة هى مدينة أنتينوبوليس ، ويخصص دخل هذه الأراضى للإتفاق على إدارة شئون هذه المدن ، ومن الملاحظ أن بعض المدن كانت تمتلك أراض زراعية فى مناطق بعيدة عنها ، فقد كان لمدينة الإسكندرية مساحات من الأرض فى الفيوم .

أما عن المحاصيل الزراعية ، فقد كان القمح أهم تلك المحاصيل ، وكان القمح الذى يزرع فى صعيد مصر هو الأفضل ، لأن طبيعة أرض الدلتا التى تسودها المستنقعات ، أقل صلاحية لزراعة القمح^(٢) . وقد أولت الدولة عناية خاصة لهذا المحصول نظراً لحاجة روما الشديدة له ، وبأتى الشعير فى المرتبة الثانية ، الذى يستخدم كعلف للخيول ، كما كانت تصنع منه الجعة ، المشروب الرئيسى للمصريين . كما انتشرت زراعة البقوليات بأنواعها المختلفة ، إضافة إلى الخضر والفاكهة ، كذلك مزارع الزيتون والكروم ، وفى جنوب مصر وجدت بكثرة أشجار النخيل^(٣) . ويقال أن مصر عرفت زراعة القطن فى العصر الرومانى ، وأن الملابس القطنية كانت هى المفضلة لدى الكهنة^(٤) .

وقد ارتبطت بالزراعة ارتباطاً وثيقاً ، عمليات مسح الأراضى ، فقد كان فيضان النيل فى كل عام يغير شكل الأرض الزراعية^(٥) ، وكانت عملية مسح الأراضى أمراً ضرورياً من أجل تقدير الضريبة المقررة على الأرض الزراعية . والتى كانت تختلف من منطقة لأخرى ، فإن

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .

(2) Johnson, op. cit. pp. 1 .

(4) Lewis, op. cit. pp. 124 - 7 .

(٤) محمد عبد الغنى ، لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، ص ١٩٦ .

(5) Strabo. XVII, 787

الأرض التي كانت تروى بسهولة ، فرضت عليها ضرائب أعلى من تلك التي لا تصل إليها مياه النيل . وكانت الإدارة الرومانية في مصر تحفظ لديها بسجلات دقيقة عن أوضاع الأرض الزراعية (١).

الصناعة والتجارة :

إذا كانت الدولة قد عملت على تشجيع الملكية الفردية في مجال الزراعة ، فإنها نهجت ذات النهج في مجال الصناعة والتجارة (٢) ، فلم يتبع الرومان سياسة الاحتكار التي مارسها البطالمة ، بل تركوا أمر الصناعة في أيدي الأفراد ، ولكنهم حرصوا على إبقاء الصناعات الأساسية خاضعة لسيطرة الدولة ، مثل الإشراف على المناجم والمحاجر ، كما تدخلت الدولة بشكل جزئي في بعض الصناعات ، مثل صناعة النسيج والبردي والجمعة والطوب .

ومما هو جدير بالذكر أن الصناعة والتجارة قد شهدتا إزدهاراً كبيراً في بدايات العصر الروماني ، ويرجع ذلك إلى النشاط الذي شهدته التجارة الشرقية ، وهر النشاط الذي لعبت فيه الإسكندرية دوراً مهماً ، فقد استطاعت هذه المدينة بفضل موقعها المتوسط في قلب الإمبراطورية الرومانية ، أن تحتل مكانة عظيمة في اقتصاديات العالم القديم .

كانت الإسكندرية مركزاً مهماً لصناعة الزجاج والبردي والنسيج (٣) ، وتعد صناعة الزجاج من الصناعات العريقة في مصر ، ويرجع تاريخها إلى عصر الفراعنة ، حيث توفرت في رمال مصر المادة اللازمة لإنتاج أنواع متميزة من الزجاج (٤) ، وكانت الإسكندرية تقوم بتصدير الزجاج إلى سائر أرجاء البحر المتوسط . أما صناعة أوراق البردي فهي صناعة مصرية خالصة ، انفردت بها مصر دون سائر بلدان العالم القديم . لأن نبات البردي كان ينمو في مستنقعات الدلتا المصرية فقط ، وكانت أوراق البردي يتم صنعها من سيقان هذا النبات (٥) . ومن

(1) Johnson, op. cit. pp. 29 .

(2) Johnson, op. cit. p. 325 .

(3) Bowman, op. cit. p. 40 .

(٤) وصلت جودة صناعة الزجاج في الإسكندرية إلى درجة ، جعلت صناع الزجاج قادرين على تقليد الأحجار الكريمة ، انظر ، محمد عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(5) Pliny, NH, XIII, 71 .

المرجح أن تجارة أوراق البردي كانت حرة تماماً ، ولكن الدولة فرضت ضرائب نقدية ونوعية على صناعة البردي (١) .

ثم تأتي بعد ذلك صناعة النسيج ، التي كانت تحظى بانتشار واسع في مصر ، وقامت هذه الصناعة على الإنتاج المنزلي ، إلى جانب المصانع التي كانت تقوم بإنتاج أنواع واقية من النسيج ، وقد اشتهرت الإسكندرية بإنتاج نوع متميز من التيل المزخرف ، ويقول بليسي أن المصريين كانت لديهم طريقة سرية لتلوين وصباغة الملابس (٢) ، وكانت المنسوجات المصرية تلقى رواجاً في الأسواق الشرقية ، بالإضافة إلى بلدان البحر المتوسط ، ويبدو أن الدولة كانت تشرف على هذه الصناعة ، وكانت لديها مصانع للنسيج ، وكان عمال النسيج ينضون في نقابات تشرف عليها الدولة (٣) . وقد فرضت الدولة على النساجين وعلى المصانع دفع ضرائب نقدية ونوعية .

وإلى جانب الصناعات الأساسية عرفت مصر صناعات أخرى ، مثل صناعة العطور والمستحضرات الطبية (٤) ، وكذلك الأدوات الموسيقية والخمور والفخار (٥) .

أما فيما يتعلق بالتجارة ، فإنه على الرغم من تدهور مكانة الإسكندرية من الناحية السياسية ، فإن دورها في مجال التجارة أصبح عظيماً (٦) . وكان ذلك نتيجة حتمية لحالة

(١) عن أماكن مبيعات البردي ، وطرق صناعته وتصديره إلى الخارج ، راجع المقدمة التي كتبها الأستاذ "بل" في الكتاب الذي أشرنا إليه مراراً في مراجعتنا السابقة ، والذي ترجمه الدكتور عبد اللطيف أحمد على : انظر ، بل : المرجع السابق ، ص ١ - ٣٠ ، وكذلك الفصل الذي كتبه الدكتور : عبد اللطيف أحمد على عن أوراق البردي باعتبارها مصدراً من مصادر التاريخ الروماني ، انظر : عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الروماني ، ص ١٤٦ - ٢٢٠ .

(2) Pliny, NH, XXXV, 150 .

(3) Johnson, op. cit. p. 29 .

(4) Johnson, op. cit. pp. 4 , 331 .

(٥) امتدح الكتاب القدامى النبيذ الذي كانت تنتجه منطقة الدلتا في مصر ، وبخاصة نبيذ مريوط ، كما ذكروا أن هناك أنواع من الخمور كان يتم إنتاجها من التين ، وأنواع أخرى تنتج من اليلع ، انظر :

Johnson, op. cit. pp. 6 7

(6) Goodman, op. cit. pp. 267 8 .

الازدهار التي عمت الإمبراطورية الرومانية ^(١)، بعد أن عم السلام وخلا البحر من القراصنة ، وأصبحت السفن تبحر في أمان ، وتقاطر التجار على الإسكندرية من جميع أرجاء المعمورة ، من الإغريق والإيطاليين والسوريين ومن آسيا الصغرى ، وكذلك الأثيوبيين والعرب والفرس ^(٢) . وسيطر التجار السكندريون على تجارة البحر الأحمر والشرق ^(٣) . وبعد اكتشاف الرياح الشرقية الموسمية على يد هيبالوس في القرن الأول ق.م. ازدادت التجارة بشكل واضح. وقبل عصر أوغسطس لم تكن تبحر إلى المياه الشرقية أكثر من عشرين سفينة . ولكن بعد ذلك ازدادت التجارة حتى أن الأساطيل الكبرى أصبحت قادرة على جلب التجارة من الهند وأقصى أثيوبيا ^(٤) .

ولكن لأن دوام الحال من الحال ، فقد تأثرت الصناعة والتجارة بالأحوال السياسية التي شهدتها مصر والإمبراطورية الرومانية ، وتدهورت الصناعة في القرن الثالث .

وإذا كانت النظم الاقتصادية للرومان قد أتت أكلها في البداية وشهدت مصر حالة من الازدهار في كافة القطاعات الاقتصادية ، فإنها ما لبثت أن أنهارت ، ولم تصمد أمام الرياح العاتية التي تمثلت في الاضطرابات التي شهدتها مصر في كثير من الأحيان ، بالإضافة إلى الأحوال المضطربة التي سادت الإمبراطورية في أحوال كثيرة . ويمكننا أن نعزو ذلك إلى أن النظم المالية والاقتصادية في مصر ، استندت إلى أسس فاسدة ، قامت على اعتصار هذه الولاية ، والحصول على أكبر دخل ممكن منها ، دون أن تضع في اعتبارها في غالبية الأحيان الظروف التي تمر بها البلاد . ويعلق الأستاذ بل Bell على سياسة الرومان الاقتصادية في مصر قائلاً " إن تاريخ مصر الرومانية هو قصة محزنة من قصص الاستغلال الذي يدل على قصر النظر ، وينتهي حتماً بالانهيار الاقتصادي والاجتماعي ، ومهما قيل عن إساءة بعض الملوك البطالة الأواخر إدارة البلاد ، فقد كانت معظم الثروة الناتجة يبقى على الأقل في مصر، ولكن روما كانت مالكة متغيباً " ^(٥) .

(1) Bowman, op. cit. p. 40 .

(٢) محمد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

(3) Strabo, II, 120 .

(4) Johnson, op. cit. p. 484 .

(٥) بل : المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وتظهر الأبحاث التي أجراها الباحثون في عصرنا الراهن إلى أي مدى كانت الإدارة الرومانية ظالمة في مصر ، فقد كتب الأستاذ روستوفتزهف مقالاً بعنوان " الاستغلال الروماني لمصر في القرن الأول الميلادي " (١) ، أدان فيه الأساليب التي كانت تارسها الإدارة الرومانية في مصر ، أما الأستاذ ميلن Milne فقد اختار عنواناً أكثر دلالة لبحثه في هذا المجال وهو "تدمير مصر بسبب سوء الإدارة الرومانية" (٢) . أوضح فيه مدى مسئولية الرومان عما لحق بمصر من تدهور .

(1) Rostovtzeff, Roman Exploitation of Egypt in the first century A.D. Journal of Economic and Business History. Vol. I, 1929. pp. 355 ff .

(2) Milne, The ruin of Egypt by Roman mismanagement. JRS XVII, 1927. pp. 1ff

الحياة الاجتماعية :

يقول ألان بومان Bowman أنه بالنسبة للغالبية العظمى من سكان مصر في عصر الرومان ، لم يحدث تغير جذري في حياتهم ، ما بين عصرى البطالة والرومان ، فليس هناك فارق يذكر بين أن يكون حاكمهم هو الملك البطلمي أو الإمبراطور الرومانى (١) .

يذكر المؤرخ جوزيفوس Josephus أن سكان مصر في عهد الإمبراطور نيرون كان يصل عددهم إلى سبعة ملايين ونصف (٢) ، فإذا قدرنا أنه يوجد في الإسكندرية نصف مليون ، أصبح مجموع السكان ثمانية ملايين نسمة تقريباً ، ولكن ينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن هذا الرقم لم يكن ثابتاً في ضوء الظروف التي كانت تمر بها البلاد ، والتي تؤدي بهذا العدد إلى الزيادة والنقصان (٣) .

يتخذ البناء الاجتماعي في مصر شكلاً هرمياً ، يحتل قمته المواطنون الرومان ، وهم الفئة التي طرأت على المجتمع المصري بعد الفتح الرومانى ، وتتكون من كبار الموظفين والجند ، ورجال الأعمال والتجار ، وهي فئة لم تكن كبيرة العدد مقارنة بباقي السكان (٤) ، وكسان أفرادها يتمتعون بكافة الامتيازات ، ويأتى بعد ذلك قطاع كبير من ذوى الامتيازات الأقل ، وهم الإغريق واليهود ، ويقع في قاعدة الهرم الاجتماعي باقى سكان مصر من المزارعين والحرفيين وصغار الملاك والتجار ، أى الغالبية العظمى من الشعب التي كانت تلقى معاملة جائرة من الإدارة الرومانية ، ويطلق عليهم إجمالاً " المصريين " (٥) .

كانت توجد حدود فاصلة بين هذه الطبقات ، فكان من ضرور المستحيل أن يتمكن فرد من القفز إلى طبقة أعلى ، إلا في حالات استثنائية ، وبإذن خاص من الإمبراطور شخصياً ، وكان بعض أثرياء الإسكندرية ، والشخصيات البارزة في المدينة يكافأون بمنحهم المواطنة الرومانية ،

(1) Bowman, op. cit. p. 37

(2) Josephus, Bell. Jud. II.16. 4 .

(٣) مصطفى المبادئ : المراجع السابق ، ص ٢٠١ .

(4) Johnson, op. cit. p. 247

(5) Lewis, op. cit. p. 19 .

فقد كانت طبقة الأثرياء كما هو الحال في سائر أنحاء الإمبراطورية ، موالية للرومان ، ولم يكن الرومان أسخياء في منح المواطنة الرومانية ، رغبة منهم في الحفاظ على الفوارق بين الطبقات ، ولكن في عام ٢١٢ أقدم الإمبراطور كركلا على خطوة جريئة حين ألغى بجرة قلم تلك الفوارق ، ومنح كافة سكان الإمبراطورية حقوق المواطنة الرومانية (١) .

الرومان :

وهم الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية ، من المقيمين في مصر ، وكان هذا الوضع يكفل لهم التمتع بكافة الامتيازات مثل الإعفاء من الضرائب والخدمات الإلزامية . يأتي الوالي الروماني على رأس هذه الفئة ، وكان يتم إرساله من روما (٢) ، لكي يحكم مصر بصفته ممثلاً للإمبراطور ، ويظل شاغلاً لمنصبه طالما إنه يتمتع برضا للإمبراطور ، وعادة ما يشغل منصبه لمدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام ، وفي أحيان نادرة لمدة أربعة أعوام أو خمسة (٣) . وكان الوالي وكبار معاونيه يتخذون من الإسكندرية مقراً لهم باعتبارها عاصمة الولاية .

وكان الوالي يغادر الإسكندرية مصطحباً بعض معاونيه ، للقيام بجولات تفقدية في أنحاء البلاد ، فتارة يذهب إلى شرق الدلتا ، وتارة أخرى يتوجه إلى الصعيد . وكانت تحوطهم حالة من الإجلال أينما حلوا ، باعتبارهم رمزاً للسلطة العليا .

أما الرمز الذي كان يتعامل معه السواد الأعظم من سكان مصر ، فهم رجال الحامية الرومانية في مصر ، ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنه كان يوجد في مصر في عصر أوغسطس ما يزيد على ٢٢ ألفاً من الجنود ، ولكن هذا العدد انخفض في عهد خليفته تiberius إلى حوالي ١٦ ألفاً ، ثم ما لبث بعد ذلك أن انخفض في القرن الثاني إلى حوالي ١١ ألفاً (٤) .

(١) P. Giss. 40, 11, 16 - 29 .

(٢) كان الوحيد من بين الولاة الذي يعد مصري المولد هو تييريوس يوليوس الإسكندر ، وكان ابناً لأحد زعماء اليهود في الإسكندرية ولكنه تلقى تعليمًا رومانيًا ، وانخرط في سلك الوظائف الرومانية حتى وصل إلى هذا المنصب الرفيع ، انظر : Reimmuth, op. cit. pp. 4 - 5 .

(٣) Lewis, op. cit. p. 19

(٤) مصطلق العبادي : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

وكانت هذه القوات من الفرق الرومانية ، التي كان أفرادها من المواطنين الرومان . بالإضافة إلى الفرق المساعدة ، التي كان أفرادها من أهالي الولايات ، ويتولى قيادتها ضباط رومان .

وكان من حق الجندي الذي يخدم في الفرق المساعدة ، أن يحصل على المواطنة الرومانية بعد ٢٦ عامًا من الخدمة العسكرية ، وتجدر الملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن أمراً ميسوراً أمام المصريين ، وفي أواخر القرن الثاني تم فتح باب التطوع في الجيش أمام الشباب من سكان عواصم المديريات ، والالتحاق بالفرق المساعدة ، وكان أفراد هذه الفئة في غالبيتهم من الإغريق الذين استقروا في مصر منذ عصر البطلمة (١) .

وبالإضافة إلى الجنود كانت هناك قلة من أغنياء الرومان يأتون إلى مصر للاستمتاع بشتائها اللطيف ، والاستشفاء في جوها الطيب ، كما اتخذ بعض الرومان من مصر مستقراً لهم ، وكان غالبيتهم من قدامى المحاربين ، إلا أن بعضهم كانوا ينحدرون من عائلات سكندرية ، حصلت على المواطنة الرومانية . وتجدر الإشارة إلى أنه في خلال القرن الأول كانت سياسة الأباطرة الرومان تقوم على الساع لرجال الولايات بالالتحاق بالخدمة العسكرية ، في الفرق التي ترابط في الولايات ، لذلك فإن الجنود القدامى الذين استقروا في مصر كانوا من أصول أجنبية ، ونظراً لطول إقامتهم في مصر ، فقد ارتبطوا بها ، وأحسوا أنها وطنهم .

وعلى الرغم من إنه لم يكن مسموحاً للجنود بالزواج خلال الخدمة العسكرية ، فإننا نلاحظ أن الجنود أقاموا علاقات مع نساء ، وأنجبوا منهن أبناء (٢) . ولم يكن وضع هؤلاء الزوجات قانونياً ، طالما أن الزوج ما يزال ملتحقاً بالخدمة العسكرية ، إلا أنه بعد تسريح الجندي كان يتم الاعتراف بتلك الزوجات ، وكان الجنود وزوجاتهم وأبنائهم يحصلون على المواطنة الرومانية .

وعندما يتم تسريح الجندي من الخدمة العسكرية ، فإنه يكون في وضع مالي طيب ، فقد كان يحصل على مكافأة مالية ، كما أن مدة الخدمة العسكرية التي كانت تقترب من ربع قرن ، كان تفرض على الجندي إ ذخيراً إجبارياً من راتبه ، وكان بعض الجنود يستثمرون أموالهم في

(1) Lewis, op. cit. p. 20 .

(٢) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

مشروعات ، تدر عليهم أرباحاً طيبة ، وكانت الأنشطة المالية لرجال الحامية تمتد إلى عدة مجالات ، مثل تجارة العبيد وغيرها من الأنشطة التجارية ، ولعل أهم الأنشطة المالية التي شارك فيها رجال الحامية ، هي إقراض الأهالي في مقابل الحصول على الربا (١) .

كانت الإدارة الرومانية تمنح الجندي المسرح الأوراق التي تدل على أدائه الخدمة العسكرية ، ويهذين السلاحين أي المال والمستندات كان الجندي المسرح يبدأ حياته المدنية (٢) . فيشتري العقارات ، وكان الجنود المسرحون يحرصون على الإقامة في القرى الكبيرة ، ففي قرية فيلادلفيا بمديرية أرسينوى على سبيل المثال ، كانوا يشكلون خمس عدد الملاك في القرية ، في أوائل القرن الثالث .

ويبدو أن سكان القرى لم يكونوا يشعرون بالارتياح لوجود هؤلاء الجنود السابقين بينهم ، ويرجع هذا الشعور إلى نفور الأهالي من الجنود ، وهو شعور ترسب في أعماق القرويين بسبب الابتزاز الذي اعتاد أن يمارسه الجنود ضدهم . كما أن الامتيازات التي كانت تمنح للجنود المسرحين ، كانت تثير الحقد والاستياء لدى سكان القرى ، ومن ناحية أخرى ، فقد كان الجنود المسرحون يتعاملون مع الإغريق والمصريين بقدر كبير من الاستعلاء ، ويرجع السبب في هذا إلى رغبتهم في تعويض إحساسهم بالتقص ، لأنهم ينتمون إلى أصول متواضعة .

إغريق المدن واليهود :

عندما دخل أوكتافيانوس مصر ، كانت توجد ثلاث مدن إغريقية في مصر (٣) ، وهي نقرطيس في الدلتا ، ثم مدينة الإسكندرية ، أما المدينة الثالثة فهي بطلمية ، التي تقع في صعيد مصر ، وفي عام ١٣٠ أصاب الإمبراطور هادريان مدينة رابعة هي أنتينوبوليس ، التي أقامها في مصر الوسطى ، تكرماً للذكرى خليله الذي غرق في هذه المنطقة خلال مرافقته للإمبراطور . وقد حصلت مدينة أنتينوبوليس على كافة الامتيازات ، التي كانت تتمتع بها المدن الأخرى . إضافة إلى قمتعها بالنظام البلدي الروماني municipia ، وحصول مواطنيها

(١) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

(2) Lewis, op. cit. p. 22

(3) Rostovtzeff, op. cit. p. 297

على امتيازات إضافية . أما مدينة الإسكندرية فقد بلغ عدد الرجال الأحرار فيها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، حسب رواية المؤرخ ديودور الصقلي^(١) ، وربما يصل إجمالى عدد سكانها إلى نصف مليون نسمة . ولكن لا تتوفر لدينا معلومات عن مدينتى قناتيس وبطلمية فى عصر أوغسطس ، أما مدينة أنتينوبوليس فقد توفرت لدينا معلومات عنها ، بفضل أوراق اليردى التى نشرت فى الفترة الأخيرة ، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلاف فى نظم المدن الأربع إلا أن نظمها كانت فى الغالب متقاربة^(٢).

وأهم تلك النظم التى تشابهت فيها هذه المدن ، هى تسجيل مواطنيها فى قبائل وأحياء ، وهو النظام الذى كان سبباً فى المدن المستقلة فى بلاد اليونان ، وكذلك وجود مؤسسة الجمنازيوم ، التى حرص عليها الإغريق باعتبارها من رموز المدينة الإغريقية ، وكان مواطنو هذه المدن يقبلون على تولى وظيفة مدير معهد الجمنازيوم ، وهى وظيفة شرقية ، كان شاغلها مسئولاً عن إمداد المعهد بكافة احتياجاته ، وقد أصبحت هذه الوظيفة فيما بعد إلزامية .

يعد مجلس الشورى Boule أيضاً من معالم المدينة الإغريقية ، وكان حرمان الإسكندرية من هذا المجلس من الأسباب التى جعلت السكندريين يكرهون الحكم الرومانى ، أما مدينتا قناتيس وبطلمية ، فقد تمتعتا بوجود مجلس للشورى فیهما^(٣) . وقد حصلت مدينتا أنتينوبوليس على مجلس الشورى منذ تأسيسها . وحصلت الإسكندرية على حق التمتع بوجود مجلس الشورى ، فى عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس ، الذى منح هذا الحق لكافة عواصم المديريات ، وقد أثار هذا الأمر سخط السكندريين ، الذى ساء لهم أن يروا مدينتهم العظيمة تتساوى مع سائر المدن الأخرى فى مصر^(٤).

ومن الناحية الاقتصادية ، تمتع مواطنو المدن الإغريقية ببعض الامتيازات ، فقد كانوا يشاركون فى النشاط الاقتصادى لمدينة الإسكندرية ، كما أعفوا من دفع ضريبة الرأس ، التى كانت تعد بالنسبة لسكان الولايات عيباً تنوء به كواهلهم ، إضافة إلى كونها دليلاً على تدنى

(1) Diod. XVII. 52 . 6 .

(2) Lewis, op. cit. p. 26 . -

(3) Lewis, op. cit. p. 27 .

(١) بل : المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

المكانة الاجتماعية والسياسية . وكان مواطنو المدن الإغريقية الأربع يمتلكون أراض زراعية في أنحاء متفرقة من مصر ، وكانت بعض هذه الأراضي تقع على مسافات بعيدة من مدنها . كما تمتع هؤلاء المواطنون بحق الإعفاء من الخدمات الإلزامية أينما حلوا (١) .

وكان من حق مواطني المدن الإغريقية أن يخدموا في الفرق الرومانية ، وهذا يعني أنهم يصبحوا مواطنين رومان بمجرد تسجيلهم في هذه الفرق . أما باقي السكان فكان من حقهم الخدمة في الفرق المساعدة فقط ، وهذا لا يعطيهم الحق في الحصول على المواطنة الرومانية ، إلا بعد الخدمة لمدة ربع قرن .

وبما هو جدير بالذكر أن حقوق المواطنة في المدن الإغريقية كانت تقتصر على فئة محدودة ، ولم يكن كل المقيمين في المدينة يتمتعون بحقوق المواطنة . فقد كان يوجد الكثيرون الذين اجتذبتهم إلى هذه المدن الرغبة في استثمار أموالهم .

أما اليهود فإن استقرارهم في مصر يرجع إلى عهود قديمة . وكانت هناك جالية يهودية في جنوب مصر منذ القرنين الخامس والرابع ق.م. ، وقد انتشر اليهود في سائر أرجاء مصر . وكان لهم دور ملموس في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الإسكندرية (٢) . كما شغل بعض اليهود مراكز إدارية مهمة في الإسكندرية ، مثل إسكندر لوسبما خوس شقيق الكاتب فيلون ، ووالد تيريوس الإسكندر ، الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد (٣) . وبعد فيلون من العلامات الثقافية البارزة في الإسكندرية في القرن الأول ، وكان ضليعاً في الفلسفة اليونانية ، وكتب أبحاثه باللغة اليونانية . وكان يحاول شرح الديانة اليهودية لعبر اليهود .

بذكر فيلون أن عدد اليهود في الإسكندرية يصل إلى المليون (٤) . وهو رقم يدخل في إطار المبالغات الخطائية ، لأن إجمالي سكان المدينة لم يكن يصل إلى نصف هذا العدد . ولكن يبدو أن عدد اليهود في الإسكندرية تزايد ، فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة

(1) Lewis, op. cit. p. 27

(٢) يشتمل ما ذكره فيلون تعليقاً على قسنة عام ٣٨ أن اليهود كان يمتلكون الكثير من الحوانيت والمستودعات التي تعرضت للنهب . انظر : Philo. In Flacc. 56 .

(٣) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(4) Philo. In Flacc. 6. 43

الخمس ، بعد أن كانوا يسكنون في السابق حياً واحداً ، هو الحى الرابع (دلتا)^(١) . وكان أوغسطس قد كافأ اليهود نظير الخدمات التي قدموها للرومان ، فأقر لهم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها منذ عصر البطالمة ، والتي تشمل احتفاظهم بمجلس للشيوخ^(٢) . ففى الوقت الذى حرم فيه السكندريين من أن يكون لهم مجلس للشورى ، لذلك تمادى اليهود وتصرفوا كما لو كانوا من مواطنى الإسكندرية وأخذوا يقصمون أنفسهم فى مؤسسات الإغريق مثل الجمنازيوم ، مما استفز السكندريين ، وأدى إلى تفجير روح الكراهية لديهم تجاه اليهود .

بعد الفتن المتوالية التى قام بها اليهود فى القرن الأول والثانى ، فباتهم حرموا الكثير من امتيازاتهم . وقد ظل يهود مصر على ولائهم للرومان ، حتى بعد تدمير الرومان لهيكل أورشليم . وعلى الرغم من ذلك فإن معبد اليهود الرئيس فى مصر ، وهو معبد ليونتوبوليس ، قد تعرض للنهب والتدمير ، وأمر فسباسيانوس بإغلاقه نهائياً^(٣) . فقد خشيت السلطات الرومانية من أن يتحول هذا المعبد إلى مركز لتجمع اليهود ، بدلاً عن هيكل أورشليم ، وقد فرضت السلطات الرومانية على كل يهودى أن يدفع ضريبة سنوية ، بخصص دخلها للاتفاق على معبد جوبيتر (كبير آلهة الرومان) ، وكان اليهود قد دمروا هذا المعبد فى أورشليم خلال ثورتهم ، وقد استمرت جياة هذه الضريبة ، حتى انتهى الرومان من إعادة بناء معبد جوبيتر فى أورشليم .

لم تنته متاعبه الرومان مع اليهود بتدمير هيكل أورشليم ، وقد أشرنا من قبل إلى الثورة الكبرى التى قام بها اليهود فى عام ١١٥ ، والتى شملت أنواعاً كثيرة من الولايات الشرقية ، واستمرت حتى اعتلاء الإمبراطور هادريان للعرش فى عام ١١٧ ، وظل الريف المصرى يعانى من آثارها لفترة طويلة . ولكن انكسرت شوكة اليهود بعد ذلك ، ولم يعودوا مصدر قلق فى المنطقة^(٤) .

(1) Philo, in Flacc. 55 .

(٢) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(3) Goodman, op. cit. p. 275 .

(4) Lewis, op. cit. p. 31 .

المصريون :

أما البقية الباقية من سكان مصر ، من غير المواطنين الرومان ، ومواطنى المدن الإغريقية واليهود ، فهم الذين يطلق عليهم إجمالاً " المصريون " ، وتطلق هذه الصفة على سكان الريف ، سواء أكانوا ينحدرون من أصول مصرية أو إغريقية ، وهى فئة لم تشهد حياتها تغييرات تذكر^(١) ، وبما هو جدير بالذكر أن الرضع المتبخر الذى كان يتجمع به الإغريق والمقدونيون فى عصر البطالمة لم يعد له وجود ، وقد أشار المؤرخ ليفيوس إلى هذه الحقيقة حينما ذكر " أن المقدونيين قد أنزلوا إلى مرتبة المصريين " ^(٢) . وقد أدى زوال التفرقة بين المصريين والإغريق إلى إنعدام الفجوة بينهم ، فشاع الزواج بين الطرفين ، وبشكل خاص فى الريف ، وكان الأطفال الذين يولدون نتيجة لهذه الزيجات يحطون أسماء إغريقية أو مصرية . ولكن الإدارة الرومانية كانت حريصة على بقاء الفوارق بين الفئات ، فوضعت قوانين لتنظيم العلاقة بين الطبقات ، وفرضت عقوبات صارمة على من يخالف تلك القوانين . ومن الملاحظ أن هذه القوانين كانت جائرة جداً بالنسبة للمصريين .

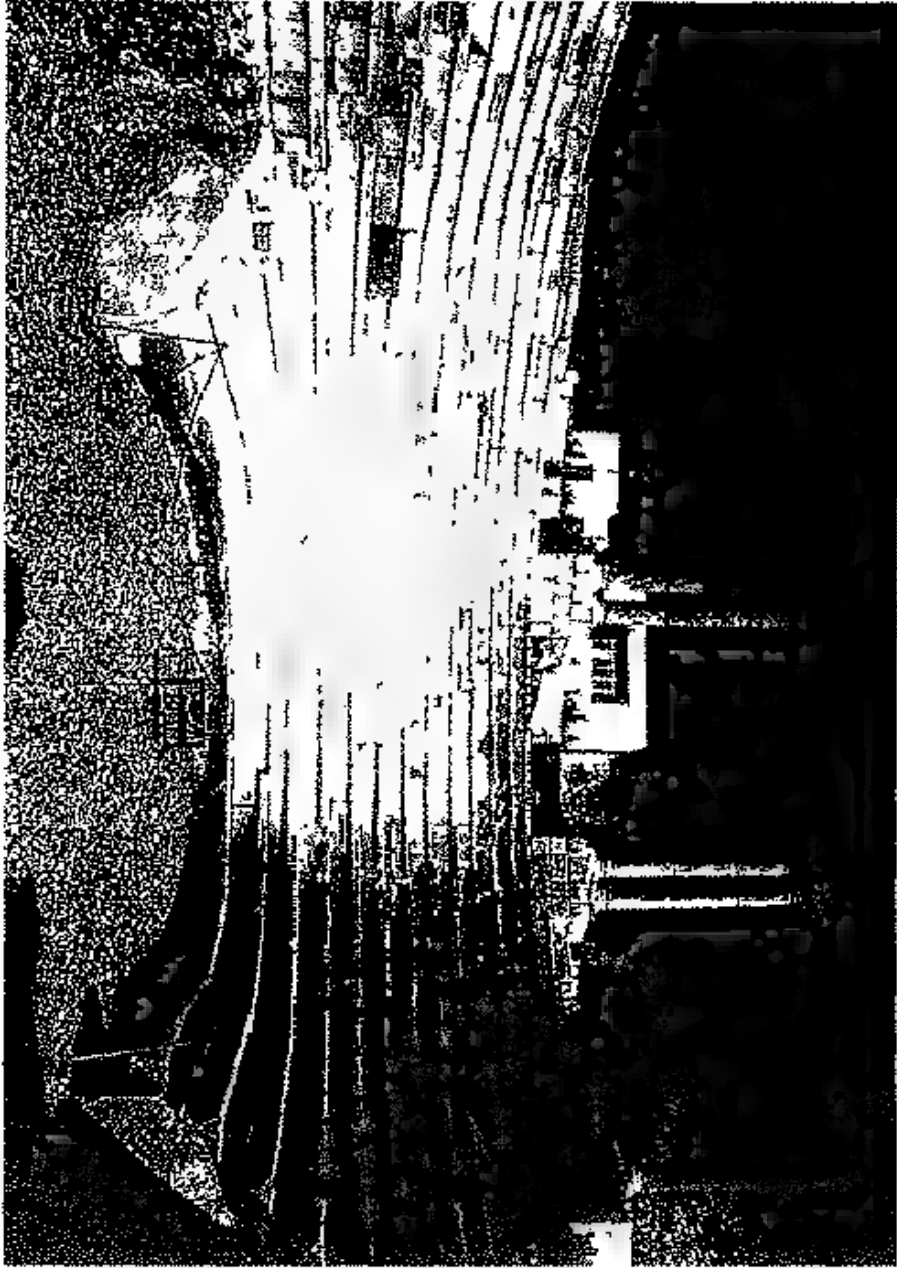
عندما أصدر الإمبراطور كركلا قراره الشهير فى عام ٢١٢ ، والذى قضى بمنح حقوق المواطن الرومانية لكافة رعايا الإمبراطورية ، فيما عدا فئة واحدة أطلق عليها القرار فئة المستسلمين ، وهى فئة أشرنا من قبل إلى أننا لا نعرف على وجه التحديد من هم الذين عناهم هذا القرار ، فعلى الرغم مما قد يبدو للعيان من أن هذا القرار قد ألغى الفوارق الاجتماعية ، فإنه بالنسبة للمصريين فى المدن والقرى ، لم يكن معنى شيئاً جديداً ^(٣) . ويقول الأستاذ "بل" أن حصول المصريين على المواطنة الرومانية لم يؤد إلى إعفائهم من دفع ضريبة الرأس ، بل زادت عليهم الأعباء . فقد تقرر أن يدفعوا ضريبة جديدة . هى ضريبة الميراث التى كانت مقررة على المواطنين الرومان ^(٤) .

(1) Rostovtzeff, op. cit. p. 298

(2) Livy . His. 38 37

(3) Lewis, op. cit. p. 32 .

(٤) بل : المرجع السابق ، ص ١٤١ .



المسرح الروماني بالإسكندرية

الاختصارات الواردة في الكتاب

- C.A.H = The Cambridge Ancient History .
- J.E.A = Journal of Egyptian Archaeology .
- J.H.S = Journal of Hellenic Studies .
- J.J.P. = Journal of Juristic Papyrology .
- J.R.S. = Journal of Roman Studies .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ - النقوش :

- O.G.I.S : Orientis graeci inscriptiones Selectae ed. W.Dittenberger. Leipzig. 1903 - 1905 .
- Res Gestae Divi Augusti : P.A.Brunet, J.M.Moore. Oxford. 1983 .
- S.E.G : Supplementum epigraphicum graecum, Leiden. 1923 - 1938 .

٢ - البردى :

- P. Lond : Greek Papyri in the British Museum , I-IV. ed Kenyon, Bell, London. 1838 - 1917 .
- P.Oxy : The Oxyrhynchus Papyri. London. ed. Grenfell, Hunt and Others. 1898 - 1968 .
- P.Tebt. : Tebtunis Papyri. B.P.Grenfell, A.S.Hunt, London. 1902 - 1933 .
- Revenue Laws : Revenue Laws of Ptolemy Philadelphus ed . Mahaffy . Oxford. 1896. redited with minor Corrections by. J. Bingin. 1952 .
- Select Papyri : Loeb Classical Library. London, 1970 .

٣ - المصادر الأدبية :

- Ammianus Marcellinus : tr. John. C.Rolf. L.C.L. 1972 .
- Appian. Syr : Appian. Roman History. Syrian wars tr. Hortace White. L.C.L. 1972 .
- Dio Cassius : Roman History. L.C.L. 1970 .
- Dio Chrysostom : Tr. J.W. Cohoon. L.C.L. 1961 .

- Diodoros of Sicily : tr. Francis R. Walter . L.C.L. 1967 .
- Horatius, Odes : tr. C.E. Bennett. L.C.L. 1968 .
- Herodutus. The Histories : tr. A.R. Burn. 1972 .
- Josephus : Jewish Antiquities. tr. Louis H. Feildman L.C.L. 1969 .
- The Jewish Wars. tr. St. J. Thackray L.C.L. 1968 .
- Libanius, Antiochikos : Selected works. tr. A.F. Norman . L.C.L.1969 .
- Livy : tr. B.O.Foster. L.C.L. 1967 .
- Maccabees : ed. R.H.Charles. Oxford. 1913 .
- Ovid, Tristia : tr. Arthur Leslie Wheeler. L.C.L. 1965 .
- Philo : De Specialibus Legibus. tr. H. Colson L.C.L. 1950 .
- in Flaccum. tr. F.H. Colson . L.C.L. 1967 .
- Pliny : Natural History. tr. H. Rackham. L.C.L. 1969 .
- Plutarch : Caesar. tr. Bernado tte Perrin. L.C.L. 1967 .
- Polybius : The Histories. tr. W.R.Paton. L.C.L. 1968 .
- Strabo. : Geography. tr. H.L. Jones. L.C.L. 1966 .
- Tacitus : The Histories. tr. Clifford H. Moore. L.C.L. 1968 .

ثانيًا : المراجع

١ - المراجع العربية :

- إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطلمة أربعة أجزاء . القاهرة ١٩٨٠م.
- أبر اليسر فرح : حملات الإسكندر الأكبر وتطور المعلومات الجغرافية عند الإغريق .
- حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، العدد ٢٧ ، ج ٢ ، ١٩٩٩م .
- الدولة والفرد في مصر في عصر الرومان (عين للدراسات) ، القاهرة ١٩٩٤م.
- النيل في المصادر الإغريقية (عين للدراسات) ، القاهرة ١٩٩٥م.

- مهام الأريكونوموس (عامل المالية) فى مصر فى عصر البطالة . رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ١٩٨٠م.
- أحمد عثمان : كليوباترة وأنطونيوس ، دراسة فى فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقي ، القاهرة ١٩٩٠م.
- » » » : الأدب اللاتينى ودوره الحضارى . عالم المعرفة العدد ١٤٩.
- أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٩١م.
- أرسطر : السياسة . ترجمه إلى العربية أحمد لطفى السيد . مع مقدمة للأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود . الرياض (بدون تاريخ) .
- آمال الروبى : مصر فى عصر الرومان . القاهرة ١٩٨٠م.
- أمين سلامة : معجم الأساطير اليونانية والرومانية ، القاهرة ١٩٨٨م.
- بل . ه . آندرس : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ترجمه د. عبد اللطيف أحمد على . بيروت ١٩٨٨م.
- تارن . وو : الإسكندر الأكبر قصته وتاريخه . ترجمة زكى على مراجعة د. محمد سليم سالم . القاهرة ١٩٦٣م.
- الحضارة الهلنستية . ترجمة : زكى على : القاهرة ١٩٦٦م.
- چنتر ، جون : الإسكندر الأكبر . ترجمة : قاروق القاضى . القاهرة ١٩٦٣م.
- داونى . جلاتيل : أنطاكية القديمة . ترجمة إبراهيم نصحى . القاهرة ١٩٦٧م.
- حمد بن صراى : تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم - دى ١٩٩٧م .
- منطقة الخليج العربى من القرن الثالث ق.م- إلى القرنين الأول والثانى الميلاديين . أبو ظبى ٢٠٠٠م.
- زكى على : كليوباترة . سيرتها وحكم التاريخ عليها ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- سليم حسن . مصر القديمة . ج ١٦ من عهد بطليموس الخامس إلى بطليموس السابع . القاهرة (بدون تاريخ) .

سيد الناصري : مصر والشرق الأدنى في العصر الهلينيستي ، القاهرة ١٩٩٧ -
١٩٩٨ م.

- تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسية والحضارى ، القاهرة ١٩٧٥ م.

عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٤ م.

عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق اليدوية القاهرة
١٩٩٥ م.

لطفى عبد الوهاب يحيى : دراسات في العصر الهلينيستي ، بيروت ١٩٨٨ م.

- العرب في العصور القديمة . مدخل حضارى في تاريخ العرب قبل الإسلام .
بيروت ١٩٧٩ م.

محمد السيد عبد الغنى : شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة .
الإسكندرية ١٩٩٩ م.

- لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان . الإسكندرية ١٩٩٩ م.

محمد فهمى عبد الباقي : ضريبة الرأس في مصر الرومانية . رسالة ماجستير غير
منشورة . جامعة القاهرة . ١٩٧٩ م.

مصطفى العبادى : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . القاهرة ١٩٨٥ م .
- العصر الهلينيستي . بيروت ١٩٨٨ م.

مصطفى كمال عبد العليم : اليهود في مصر في عصرى البطلمة والرومان . القاهرة
١٩٦٨ م.

مليحة الزهرانى : علاقة شبه الجزيرة العربية بجاراتها في العصر الهلينيستي سياسياً
وحضارياً . من عام ٣٣٢ إلى عام ١١٥ ق.م. ، رسالة ماجستير غير
منشورة ، كلية البنات بالدمام ١٩٩٥ م .

نورة التميم : الوضع الاقتصادى في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث ق.م. حتى
القرن الثالث الميلادى ، الرياض ١٩٩٢ م.

٢ - المراجع غير العربية :

- Bell, H.I. : The Acts of the Alexandrians. J.J.P.IV. 1950 .
Alexandria. J.E.A. XIII. 1927.
- Bowman, A.K. : Egypt after the Pharaohs. London. 1983 .
- Bury, J.B. : A History pf Greece. London. 1982 .
- Cary, M. : The Geographic Background of Greek and .
Roman History. Oxford. 1949 .
A History of Rome. London. 1988 .
- Ellis, Walter M. : Ptolemy of Egypt. London. 1994 .
- Crawford, Michael . : The Roman Republic. London. 1992 .
- Fraser, P.M. : Ptolmaic Alexandria. Oxford. 1984 .
- Goodman, Martin . : The Roman World. 44 B.C. - AD. 180 . London.
1997.
- Grant, Michael . : From Alexander to Cleopatra. The Hellenic world. Lon-
don. 1982 .
- Hadas, Moses . : Hellenstic Culture. New York. 1972 .
- Hamilton, J.R. : Alexander the Great. London. 1973 .
- Herman Bengtson, Others. : The Greeks and Persians. London. 1972 .
- Johnson, Allan Chester . : Roman Egypt to the Reign of Diocletian, Balti-
more. 1936 .
- Jones, A.H.M. : The Decline of the Ancient World. London, 1977.
- Jouguet, p. : Alexander the Great and the Hellenstic Civilization. Chicago.
1978 .

- Lewis. N. : Life in Egypt under the Roman Rule. Oxford. 1983 .
- Greeks in Ptolemaic Egypt. Oxford. 1986 .
- Milne, J. G. : The Ruin of Egypt by Roman mismanagment. J.R.S.XVII.
1927. pp. 1-13 .
- Préaux, C. : L'economie royal des Lagides. Bruxdelles 1939 .
- Le Monde Hellenistique, La Grece et l'Orient. 323 - 146. J.C.
Paris. 1989.
- Reinmuth, O.W. : The Prefect of Egypt from Alexander to Diocletian. 2d
ed. Klio. 1979 .
- Rostovtzeff, M. : The Social and Economic History of the Hellenstic
World. Oxford. 1953 .
- The Social and Economic History of the Roman Empire. 2d. ed. Revised
P.M. Fraser. Oxford. 1979 .
- A Large Estate in Egypt in the third Century B.C. Madison. 1922 .
- Roman Exploitation of Egypt in the first Century A D. Journal of Economic
and Business History. Vol L 1929 .
- Ruth, Cecil . : A Short History of the Jewish people , London. 1953 .
- Syme, Ronald. : The Roman Revolution. Oxford. 1960 .
- Tam, W.W. : Ptolemy II and Arabia. J.E.A. 14. 1928 .
- Tcherikover, Victor. : Hellenistic civilization and the Jews. New York.
1979 .
- Vimala, Begley. and Richard Daniel de Puma .
- Roma and India. The Ancient sea Trade. London. 1991.

- Wallace, S.L. : Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian. Princeton. 1938 .
- Welles, B.C. : Royal Correspondence of the Hellenstic Age. Yale. 1934 .
- Wilcken, U. : Alexander the Great. translated into English by. G. G. Richards , New York, 1976 .
- Whiteborne, John . : Cleopatras. London. 1994 .
- Witt . R.E. Isis in the Graeco - Roman World, London. 1971 .

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٤٨٢٤

التسجيل الدولي ٨ - 095 - 322 - 977 I.S.B.N.

د. روثايريت للطباعة ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

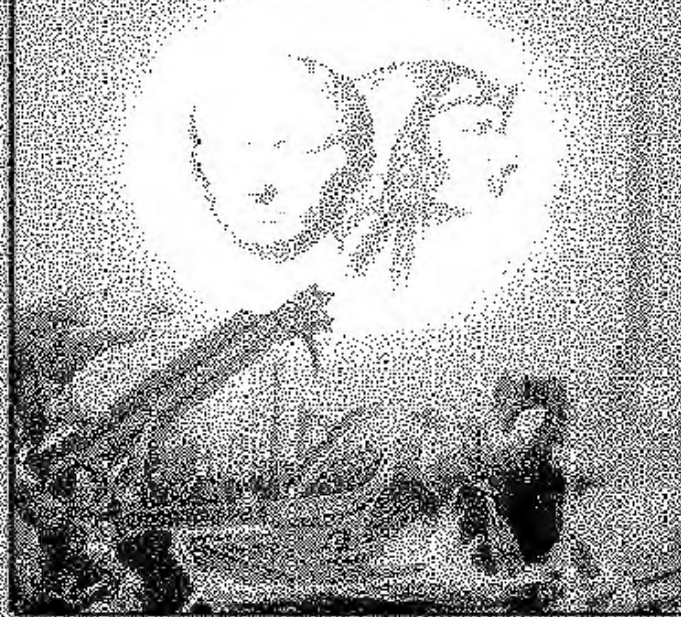
٥٣ شارع نوبار - باب الشرق



دكتور أبو اليسر فؤاد

تاريخ مصر

في عصر البطالة والرومان



Bibliotheca Alexandrina



0430247



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

To: www.al-mostafa.com